أسرار الباطنية والفرق الخفية

حركة الحشاشين

تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي

محمد عثمان الخشت



أسرار الباطنية والفرق الخفية

حركة الحشاشين

تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي

محمد عثمان الخشت

مكتبة ابن سينا
للنشر والتوزيع والتصدير
٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - النزهة
مصر الجديدة القاهرة ت ٢٤٧٩٨٦٣ / ٢٤٨٠٤٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم



تعتبر بلا شك حركة الحشاشين أخطر حركة سرية شهدها العالم الإسلامى ؛ نظراً لما كان لها من تأثير واسع النطاق فى المجتمع الإسلامى إبان فترة بالغة التعقيد .. فترة كان يسيطر عليها الصراع بين مختلف الفِرَق العقائدية والسياسية ، بل بين مختلف دول العالم الكبرى آنذاك .

وأول شىء يتحتم علينا أن نؤكد عليه منذ البداية هو بيان الصواب من تسمية هذا الكتاب وهذه الحركة . فقد يطرأ على ذهن القارىء للوهلة الأولى عندما تقع عيناه على عنوان هذا الكتاب أننا نقصد به طائفة من المدمنين الأوباش الذين يضعفون أمام تأثير المخدرات .

ومن أسف فإن هذا المعنى هو الذى يؤكد عليه معظم الدارسين . والحقيقة أن هذا المعنى خطأ تماماً ؛ فقد ثبت لنا بالدليل القاطع ، كما سيرى القارىء فى تضاعيف هذا الكتاب ، أن هذه الحركة بريئة تماماً من تناول الحشيش المخدر .

والسبب الواقعى لتسميتها بهذا الاسم ، كما حققنا ، يرجع إلى مواقف صمودية كانت تقفها الحركة فى مواجهة ضروب الحصار التى كانت تفرضها عليها الجيوش المضادة لمدد طويلة ؛ فكان يصمد رجال الحركة فى قلاعهم حتى بعد نفاد المؤن والأطعمة ، معتمدين فى غذائهم فقط على أكل الحشائش (= العشب أو الكلأ) . ومن هنا جاءت تسميتهم بالحشاشين .

إذن فليس هذا الكتاب إلحاحاً على « القصة السوداء » التى نالت من اسم هذه الحركة ، ومن ذكرى رجالها طويلاً ؛ وإنما هو مجرد محاولة موضوعية محايدة تهدف إلى غاية علمية بحتة بعيدة عن أى غرض دعائى أو تشهيرى ، محاولة منزهة تماماً عن أية نزعة مذهبية أو أيديولوجية . وعمل المؤلف فى الكتاب ليس كعمل الداعية ولا كعمل المهاجم ، وإنما عمله يقف عند حد

البحث والمقارنة والوصف والتحليل والموازنة ، ولا يشبه بأى حال من الأحوال عمل القاضى أو المتمذهب الذى مهمته الأساسية إصدار الأحكام القيمية سواء بالخير أو الشر ؛ فالحكم القيمى أمر يخرج عن دائرة اهتمام المؤلف فى هذا الكتاب . وإذا ما وجد القارئ ثمة آراء نقدية للمؤلف ولاسيما فى الخاتمة ، فإنها نتيجة النقد العلمي الموضوعى والبحث الحر ، لا نتيجة التفكير الطائفى أو الانحياز المذهبى .

ولذا فلا أظن أن أحداً من أفراد هذه الحركة أو المتعاطفين معها سيتخذ منى موقفاً عدائياً لمجرد أنى أحاول المساهمة فى كشف الحقيقة عن وضع هذه الحركة فى التاريخ ، أو لأنى أسلط الضوء على أنساق العقائد التى تعتنقها .

كما أنى لا أحسب أن أحداً من أهل التيارات المعارضة لهذه الحركة ، سيرفض الكتابة عنها على أساس أنها حركة سرية معارضة ينبغى لها أن تظل فى طى الكتمان . فليس من شك أن أدنى وعى بالواقع المعاصر يجعل المرء يجزم بحق القارئ المسلم — الذى شب عن الطوق — فى أن يتعرف على كل ما يدور حوله من مذاهب وحركات فكرية . ومن غير المعقول ولا المنطقى أن يظل هذا القارئ محروماً من التعرف على التيارات المعارضة فى تاريخه وتراثه بحجة أنها تيارات مخالفة للتيار الرسمى السائد . وكل من يدعى وجوب عزل القارئ المسلم عما يدور حوله أو عما حدث فى تاريخه ، لا شك أنه يحكم على هذا القارئ بالقصور وعدم النضج لحاجة فى نفس يعقوب . وهذا ما نخالفه فيه تماماً ؛ لأن وعى القارئ المسلم نضج الآن بشكل يسمح له بالقدرة على الحكم والتمييز بين الصواب والخطأ والحق والباطل ، إلى حد كبير .

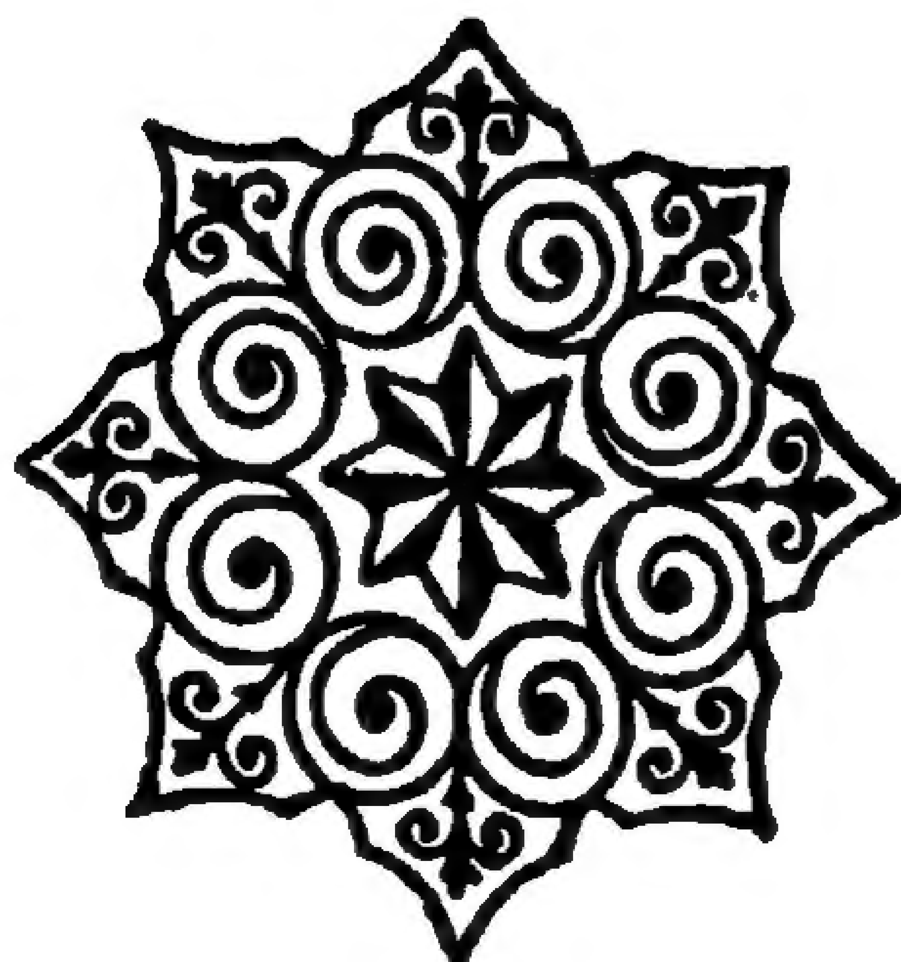
وأخيراً ، وليس آخراً ، فإن طبيعة العمل السرى الذى كانت تنتهجه حركة الحشاشين ، جعل فكرها وعقائدها فى طى الكتمان والخفاء ؛ مما أتاح لخصومها فرصة التشكيك فيها ونسج كثير من الأساطير والخرافات حول تاريخها وعقائدها ، لاسيما إذا علمنا أن هؤلاء الخصوم قد أبادوا معظم النصوص التى كتبها زعماء الحركة . وللأسف فإن معظم الباحثين المحدثين قد اعتمدوا فى

كتاباتهم عن هذه الحركة على أقوال هؤلاء الخصوم ؛ مما اوقعهم فى كثير من المزالق والعثرات التى حالت دون وصولهم إلى الحقيقة .

وقد حاولنا فى دراستنا هذه تجنب هذا الخطأ المنهجى ؛ فلم نقف فقط عند ما كتبه الخصوم ، وإنما رجعنا إلى المصادر الأصلية والنصوص الحقيقية التى كتبها زعماء الحركة ومفكروها ، الأمر الذى ساعدنا أكبر مساعدة على تبديد كثير من الأوهام والأساطير التى ارتبطت بهذه الحركة تاريخياً وعقائدياً .

محمد عثمان الخشت

القاهرة فى : ٢٦ ذى القعدة ١٤٠٨ هـ
١٠ يوليو ١٩٨٨ م



الأحداث الخارجية المواكبة لنشأة الحركة وتطورها واضمحلالها

- طابع العصر .
- السلاجقة .
- الفاتح طغرل .
- ألب أرسلان : البطل قلب الأسد .
- السلطان ملكشاه .
- نظام الملك : الوزير اللامع والخصم اللدود لحسن الصباح .
- اضمحلال مجد السلاجقة .
- السلاجقة فى الشام .
- سلبية الخليفة العباسى تجاه الحروب الصليبية .
- مقدم صلاح الدين وانتصاراته .
- الخليفة الناصر وشاهات خوارزم .
- ظهور التتار فى أقصى الشرق .
- العاصفة المميتة .
- هولاكو يحطم قلاع الحشاشين .
- سقوط بغداد .
- تحطيم الجيش المصرى لأسطورة التتار .

الأحداث الخارجية المواكبة لنشأة الحركة وتطورها واضمحلالها

عندما ظهرت جركة الحشاشين فى أفق التاريخ الإسلامى من الشرق فى القرن الخامس الهجرى(= القرن الحادى عشر الميلادى) لم يكن الخليفة العباسى يقبض إلا على خيال من سلطته السابقة ، وكانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ممزقة شر ممزق .

ذلك أن بلاد فارس وما وراء النهر وما يليهما إلى الشرق وإلى الجنوب خاضعة للأتراك السلاجقة .

وكان الفاطميون الشيعة فى مصر وشمالى أفريقية ، قد توطدت أقدامهم حتي أصبح أمر تنحيتهم بعيداً عن أن يجول فى خاطر بغداد .

وفى الأندلس ظهرت مجموعة من الدويلات الصغيرة على أنقاض الخلافة الأموية كان يسمى زعماؤها باسم ملوك الطوائف .

وكان شمالى الشام وأعالى العراق فى أيدى بعض زعماء العرب المشاغبين الذين نجح فريق منهم فى تأسيس دول خاصة .

وكانت الفوضى السياسية والحربية ضاربة أطنابها فى كل مكان . وكان الاضطراب السنى الشيعى هو روح العصر السائد فى ذلك الوقت .

وخيل إلى الناس أن العالم الإسلامى قد دالت دولته ، لاسيما مع مجئ الصليبيين ــ بعد ذلك بفترة ــ من الغرب ، ثم التتار من الشرق..

هذا ، وقبل أن نستعرض معاً تاريخ حركة الحشاشين ، يجدر بنا أن نستعرض حوادث العصر الخارجية التى واكبت ظهور الحركة وتطورها ثم اضمحلالها ؛ حتى نتبين فى أى إطار تاريخى بالضبط كانت تتحرك مختلف دول المنطقة ؛ الأمر الذى يسهل علينا كثيراً فيما بعد فهم العديد من السياسات التى كانت تلجأ إليها الحركة .

السـلاجقـة :

فى وسط الاضطراب الذى كان يموج به العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى (= العاشر الميلادى) ظهر زعيم يسمى سلجوق ، فدخل إلى معمعة الصراع حوالى سنة ٩٥٦م على رأس قبيلة من الأتراك ، وقد جاءوا من برارى القرغيز فى التركستان . وكانوا قوماً بدواً أقاموا فى منطقة بخارى التى اعتنقوا فيها الإسلام على المذهب السنى وتحمسوا له . ثم أخذوا يقتحمون سبيلهم ببطء وبقدم ثابتة وعلى رأسهم سلجوق ومن بعده أولاده حتى تمكنوا من أخذ بعض ممتلكات الإيلخانات والسامانيين .

الفاتـح طـغرل :

واجترأ أحد أحفاد سلجوق وهو الزعيم طغرل بك المحنك شديد البأس هو وأخوه داود ، فواصلوا زحفهم حتى أطراف خراسان . وفى سنة ١٠٣٧م تمكن الأخوان من الاستيلاء على مرو ونيسابور من أيدى الغزنويين . وسرعان ما ضموا إلى ممتلكاتهم كلاً من بلخ وجرجان وطبرستان وخوارزم وكذلك همذان والرى وأصفهان . وتصدع البيت البويهى أمام تفوقهم . ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم فى المستقبل ، فأرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم بأمر الله فى بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام . وكان الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بنى بويه ، فأرسل إلى طغرل بك يدعوه لمعونته . ولبى طغرل دعوته فأقبل فى عام ١٠٥٥م ، ووقف على رأس جماعة من قبائل التركمان الغلاظ الجفاة يطوقون أبواب بغداد . فبارح البساسيرى — القائد التركى والحاكم العسكرى لبغداد فى عهد آخر البويهيين — العاصمة .

وأسرع الخليفة القائم إلى استقبال الفاتح السلجوقى واعتباره منقذاً . وقد غاب طغرل عن بغداد سنة ثم عاد إليها ، واستقبل استقبالاً حافلاً ، ولبس الخليفة البردة ، وأمسك بعصا الرسول ، وجلس من وراء ستار ، حتى إذا ما وصل الفاتح رفع الستار ، وجلس طغرل على منصة إلى جوار منصة الخليفة ، وكان يترجم بينهما ترجمان . وقد عين الغازى حاكماً للامبراطورية ونودى به « ملكاً على الشرق والغرب » ، وكان لقبه الرسمى السلطان .

ومن ذلك الحين دخلت الخلافة العباسية تحت رعاية جديدة ، لم يعد الخليفة معها يملك إلا الزعامة الدينية .

وعندما غاب طغرل فى حملة إلى الشمال ، انتهز البساسيرى — وكان قد انحاز إلى الفاطميين — الفرصة ، فعاد فى سنة ١٠٥٨م على رأس جيش من الديلم وغيرهم واحتل العاصمة بغداد ، وأكره الخليفة القائم على أن يمضى وثيقة يتنازل فيها عن حقوقه وحقوق كل العباسيين الأخر لمصلحة الخليفة الفاطمى « المستنصر » المنافس له فى القاهرة ، الذى أرسلت إليه إذ ذاك شارات الخلافة بما فيها بردة الرسول وغير ذلك من الآثار المقدسة . وأرسلت كذلك عمامة « القائم » وشباك جميل من قصره إلى القاهرة لتكون تذكاراً لهذا الانتصار . ولكن لما عاد طغرل إلى بغداد أعاد الخليفة « القائم » ، وأمر بقتل البساسيرى لخيانته سنة ١٠٦٠م ثم سرحت الجنود الديلمية ، فسحقت بذلك سلطة البويهيين نهائياً .

وبمجىء السلاجقة وسيطرتهم على الأمور بُعثت فى الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم ، كما بُعثت بفضلهم فى الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم . فلقد أخذ هذا الشعب الأبى من آسيا الوسطى ينضم بدم جديد إلى الصراع الذى كان يقوم به الإسلام ليحصل على السيادة العالمية . إن قصة هؤلاء البدو الذين اعتنقوا ديانة أولئك الذين تغلبوا عليهم وأصبحوا من أشد أنصارها حماساً — لتعتبر حادثة فذة من الحوادث المبعثرة فى تاريخ هذا الدين . ولقد تكرر هذا العمل على أيدى التتار الذى

جاءوا فى القرن الثالث عشر ، كما تكرر على أيدى أقربائهم الأتراك العثمانيين الذين جاءوا فى أوائل القرن الرابع عشر . ولا أدل من ذلك على فاعلية الدين الإسلامى الذى يستطيع فى أحلك الساعات السياسية بالنسبة له أن يكتسب انتصاراً من انتصاراته الزاهية .

ألب أرسلان : البطل قلب الأسد :

لما توفى طغرل بك فى عام ١٠٦٣م خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ولم يكن قد جاوز السادسة والعشرين من عمره .

وكان حاكماً قوياً ، عادلاً ، كريماً بوجه عام ، كثير البذل للفقراء لا يتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب مالهم من عماله . وكان يقضى جزءًا كبيراً من وقته فى دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التى تكشف عن أخلاقهم وأنظمة حكمهم وإدارتهم .

وقد أثبت ألب أرسلان رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه الذى معناه « البطل قلب الأسد » ؛ فقد فتح الشام ، وبلاد الكرج ، وهراة ، وأرمينية . وبذلك كان أول من اكتسب من المسلمين أرضاً ثابتة فى بلاد الروم . وقد كان امبراطور الروم قد حشد جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندى من مختلف الأجناس ليلاق به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥,٠٠٠ مقاتل . فلما التقيا عرض القائد السلجوقى على عدوه صلحاً معقولاً ، رفضه رومانوس بازدراء ، واشتبك معه فى معركة منزيكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية عام ١٠٧١م ، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء ، فهزم ووقع فى الأسر ، وجيء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه فى هذه الحال كان يمزق جسده بالسياط . ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة . وبعد عام من ذلك الوقت أغتيل ألب أرسلان .

السلطان ملكشاه :

كان ملكشاه بن ألب أرسلان (١٠٧٢ــ١٠٩٢م) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينا كان قائده سليمان يتم فتح آسيا الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . واستطاع بتدبير وزيره العظيم نظام الملك أن يجرى كثيراً من الإصلاحات والتجديدات ، حتى أسبغ على البلاد كثيراً من الرخاء والبهاء كالذى أسبغه البرامكة على بغداد فى أيام هارون الرشيد ، وقد كانت كل الطرق فى عهده آمنة لدرجة أن القافلة الواحدة المكونة من رجل أو رجلين كانت تستطيع أن تسافر بسلام دون أن تحتاج إلى حراسة خاصة من بلاد ما وراء النهر إلى بلاد الشام .

نظام الملك : الوزير اللامع والخصم اللدود لحسن الصباح :

كان نظام الملك ــ العدو الأول والخصم اللدود لحسن الصباح ــ هو اليد المدبرة الهادية خلال حكم ألب أرسلان وملكشاه ؛ فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شؤون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ، ويشجع الصناعة والتجارة ، ويصلح الجسور والنزل ؛ ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان مثقفاً ، وعالماً كبيراً ، وصديقاً كريماً للمفكرين والشعراء والعلماء ، شاد المبانى الفخمة فى بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها فى الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم فى المسجد الجامع بأصفهان .

ويبدو أنه هو الذى أشار على ملكشاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسى . وكانت النتيجة أن وضعوا التقويم المشهور المعروف بالتأريخ الجلالى الذى سمى كذلك نسبة إلى ملكشاه لأن اسمه الكامل كان « جلال الدين أبا الفتح » . ولقد قال جوستاف لوبون أحد العلماء المستشرقين المحدثين عن هذا التقويم : « إنه إلى حد ما أضبط من تقويمنا » .

وتشير قصة قديمة إلى أن نظام الملك وحسن بن الصباح وعمر الخيام كانوا أصدقاء طفولة ، وقد أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يواتى أى واحد منهم من حظ طيب . وسنذكر هذه القصة بالتفصيل ونحقق القول فيها عند الكلام على نشأة الحسن الصباح .

وقد كتب نظام الملك وهو فى سن الخامسة والسبعين فلسفته فى الحكم فى كتاب من أكبر الكتب فى النثر الفارسى وهو كتاب « سياسة ناما » أى كتاب فن الحكم . ويوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ؛ لأنه يرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس . ولم يبخل نظام الملك على مليكه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال : إن الحاكم يجب ألا يفرط فى الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ، وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين فى كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم .

وكان نظام الملك رحيماً بوجه عام فى حكمه ، ولكنه لم يكن متسامحاً فى أمور الدين ؛ ولذا فإنه يأسف لأن الدولة تستخدم فى أعمالها المسيحيين واليهود والشيعة ، ويندد أشد التنديد بحركة الحشاشين التى كان يتزعمها الحسن الصباح ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة ، وأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعيين أهل فارس الساسانية .

ومن هنا فقد كان يحارب هذه الحركة حرباً لا هوادة فيها ، انتهت سنة ١٠٩٢م باغتياله على يد أحد أتباع الحركة . وسنشير إلى ظروف عملية الاغتيال هذه وكيفيتها عند الحديث عن تفاصيل الصراع بينه وبين الحسن الصباح .

اضمحلال مجد السلاجقة :

وقد توفى ملكشاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وبموته انتهت فترة المجد التى شملت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأولين . لقد جمع هؤلاء الثلاثة —

لفترة صغيرة ولكنها زاهرة ــ معظم البلاد المبعثرة التى كانت تكون يوماً ما الخلافة الإسلامية .

وبعد موت ملكشاه تنازع أبناؤه على وراثة العرش وأخذت الحروب الداخلية يستعر أوارها بينهم ، وتلت ذلك عدة اضطرابات أضعفت السلطة المركزية السلجوقية وأدت إلى تصدع أسرته .

وقد كانت الامبراطورية السلجوقية مؤسسة على النظام القبلى لشعوبها البدوية ، فكان لا يستطيع أن يجمع بين هؤلاء إلا رجل يتمتع بشخصية قوية مسيطرة . وكان نظام الاقطاعيات الحربية الذى أسسه نظام الملك سنة ١٠٨٧م ، والذى جعل هذه الاقطاعيات وراثية للمرة الأولى ، من العوامل التى أدت إلى تأسيس حكومات شبه مستقلة . وهذه الاقطاعيات المنفصلة وصلت إلى الاستقلال الحقيقي فى أنحاء مختلفة من المملكة الواسعة فى الوقت الذى كان فيه السلاجقة العظام فى فارس لا يتمتعون إلا بنفوذ اسمى حتى سنة ١١٥٧م .

السلاجقة فى الشام :

فى أواخر القرن الخامس الهجري وأواخر القرن الحادي عشر الميلادي عندما أخذت جموع الصليبيين المتعددة الهويات تسلك سبيلها إلى بلاد الشام لتغتصبها من أيدي المسلمين كانت البلاد مسرحاً للانقسامات والعجز ؛ فلقد كانت موزعة بين عدد كبير من زعماء العرب المحليين ، وكان يحفها من الشمال الأتراك السلاجقة الأقوياء بينما كان الحكم فى الجنوب فى يد الشيعة الفاطميين بمصر . وكان السكان أبعد ما يكونون عن الوحدة فى التكوين أو حتى فى اللغة ؛ ففى جنوب لبنان كان يوجد الدروز ، وكان فى الجبال الشمالية النصيرية ، ويجاورهم الاسماعيلية ــ أو الحشاشون فيما بعد ــ . وكان هؤلاء يكونون ثلاث فرق مختلفة تناقض المذاهب السنية فى مميزاتها . أما الجماعات المسيحية فكان من بينها المارون فى شمال لبنان الذين كانوا لايزالون يستعملون اللغة السريانية إلى حد كبير ويكونون أكبر أقلية مسيحية فى تلك البلاد

ثم جاء أحد فروع السلاجقة من أواسط آسيا ، وكونوا قسماً من أشهر أقسام تلك الأسرة ، ولكنهم لم يكونوا متحدين تحت زعامة رئيس واحد . فلقد كانت كل بلدة فى سوريا مهما يكن شأنها فى ذلك الوقت لها حاكمها السلجوقى أو العربى . وقد استقلت طرابلس بعد سنة ١٠٨٩ م تحت حكم بنى عمار الشيعيين . وكان بنو منقذ يحكمون شيزر بعد سنة ١٠٨١م . وكان البيزنطيون يستولون ثم يفقدون البلاد الواقعة على طول السواحل وعلى الحدود الشمالية .

وقد ظهرت أول حملات السلاجقة فى الشام قبل سنة ١٠٧٠م بقليل . وجعل ألب أرسلان فى هذه السنة من الأمير العربى الذى يحكم حلب تابعاً له ، ودخل أتسز من قواد ألب بيت المقدس ، واستولى على فلسطين من أيدى الفاطميين . ولما كان السلاجقة من أهل السنة المتحمسين فإنهم كانوا يرون من واجبهم استئصال شأفة التشيع الفاطمى الإسماعيلى . وبعد خمس سنوات استولى أتسز على دمشق من الفاطميين أيضاً .

ولكن لم تكد تأتى سنة ١٠٩٨م حتى عادت بيت المقدس مرة ثانية إلى أيدى الفاطميين الذين قد أعاد أسطولهم القوى سنة ١٠٨٩ الاستيلاء على كل مدن السواحل بما فيها عسقلان وعكا وصور وجبيل فى الشمال .

ويعتبر تتش بن ألب أرسلان المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة فى الشام . وقد استطاع فى ربيع سنة ١٠٩٤ م أن يدعم نفوذه فى حلب والرها والموصل علاوة على ممتلكاته فى خراسان .

ولكنه لما سقط فى العام التالى فى المعركة انقسمت ممتلكاته الشامية — التى تعب فى الحصول عليها — بين ولديه رضوان ودقاق نتيجة للمنافسة بينهما والتحاسد الموجود بين قواده الذين كانوا يجرون وراء مصالحهم الشخصية .

وقد اتخذ رضوان حلب عاصمة له ، وظل يحكم فيها من سنة ١٠٩٥ إلى ١١١٣م . أما دقاق الذى حكم من ١٠٩٥ إلى ١١٠٤م فإنه اتخذ دمشق عاصمة له . وقد كانت العداوة والصراع بين الأخوين — التى بدأت سنة

١٠٩٦م — هى المحور الذى دارت حوله الحوادث فى عصريهما .

سلبية الخليفة العباسى تجاه الحروب الصليبية :

إن تسلط السلاجقة على الخلافة الذى بدأ فى أيام القائم سنة (٤٤٧ هـ = ١٠٥٥م) استمر حتى سنة (٥٩٠هـ = ١١٩٤م) فى عهد الناصر . وخلال الشطر الأكبر من هذه المدة كانت الحروب الصليبية تسلك سبيلها بصعوبة فى سوريا وفلسطين ، ولكن لم يكن سلاجقة فارس الأقوياء ولا العباسيون يكترثون لشىء من هذه الأمور البعيدة عنهم . وكانت الحروب الصليبية فى نظر الشطر الأكبر من المجتمع الإسلامى إذا نظرنا من زاوية مركزه الرئيسى — أمراً أو حادثاً غير واضح الدلالة أو الغرض . ولما سقطت أورشليم القدس سنة ١٠٩٩م وصل وفد من المسلمين إلى بغداد يطلب المعونة ضد المسيحيين الغزاة — ذرف الناس الدمع الغزير وأظهروا العطف الكبير ولكن لم يتحرك أحد للعمل ! وقد أحال الخليفة المستظهر العباسى الوفد إلى السلطان بركيارق الخلف الثانى لملكشاه وابنه الذى بدأ فى عصره تدهور السلطنة ، ففاوض الوفد السلطان وانتهت المفاوضة إلى لا شىء .

وفى سنة ١١٠٨م ظهر وفد آخر من طرابلس التى دكها الصليبيون ، وكان يرأس الوفد زعيم المدينة المحاصرة ، وفشلت البعثة هذه المرة كما فشلت نظيرتها من قبل .

وبعد ذلك بثلاث سنوات عندما أسر الافرنج بعض المراكب المصرية التى كانت تحمل سلعاً تجارية إلى تجار حلب ، ذهب وفد ثالث إلى الخليفة المستظهر ، وألح أعضاء هذا الوفد الحلبى ، وبلغ بهم الأمر إلى أن حطموا المنبر وعطلوا الصلاة فى المسجد الذى كان يؤدى السلطان فيه الصلاة ، وأخيراً اكتفى المستظهر بأن أرسل ثلة من الجنود مع الوفد لم تفعل شيئاً بطبيعة الحال .

وهكذا كان الخليفة العباسى وسلطانه السلجوقى يقفان موقفاً سلبياً حين كانت تمثل على مسرح تاريخ العلاقات الإسلامية الصليبية أروع مناظره ومآسيه .

وعندما صب الصليبيون — فى عهد الخليفة المقتفى — جام غضبهم على الزعيم الإسلامى زنكى مؤسس دولة الأتابكة فى الموصل والشام ، وشددوا عليه الحصار — بعث يطلب النجدة العاجلة إلى بغداد ، فكان الرد أن أرسلت بضعة آلاف تلبية لإلحاح الشعب .

مقدم صلاح الدين وانتصاراته :

وفى تلك الفترة نفسها كان كل من نور الدين بن زنكى الذى اشتهر بشجاعته وميله إلى الحرب ، وصلاح الدين القائد العظيم ، قد نجحا لا فى مقارعة الصليبيين فحسب ، بل فى إسقاط الدولة الفاطمية ، ولما كان صلاح الدين سنياً مخلصاً فإنه أحل اسم الخليفة العباسى المستضئ فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة الفاطمى فى كل من مصر والشام . وهكذا اعترف بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين فى هذه البلاد مرة أخرى .

واستطاع صلاح الدين أن يوجه الضربة القاضية للصليبيين فى معركة حطين سنة (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) . وبعد حصار بيت المقدس — التى فقدت حاميتها فى حطين — حصاراً استمر أسبوعاً سلمت فى ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ، وجلجلت فى المسجد الأقصى أصوات المؤذن بدل صلصلة الأجراس المسيحية ، ثم أسقط الصليب الذهبى الذى كان يعلو قبة الصخرة : أسقطه محطماً رجال صلاح الدين .

وكان الاستيلاء على عاصمة المملكة اللاتينية مؤذناً باستيلاء صلاح الدين على معظم المدن الفرنجية فى الشام وفلسطين . لقد سلم معظم تلك المعاقل على أثر سلسلة من الانتصارات الباهرة ، فلم يقاوم واحد منها ، وما كانت تستطيع ذلك بعد إذ فقدت أحسن حماتها فى يوم حطين ، وكأنما روح الجهاد التى يظهر أن الصليبيين فقدوها قد سرت فى بطل الإسلام العظيم صلاح الدين ، فدفعته يواصل انتصاراته فى الشمال حتى اللاذقية وجبلة وصهيون وفى الجنوب حتى الكرك والشوبك . كل هذه المدن وغيرها مثل شقيف أرنون وكوكب

وصفد وغيرها من الأشواك التى كانت تحز فى جنب المسلمين ، سقطت قبل خاتمة سنة (٥٨٦ هـ = ١١٨٩ م) .

الخليفة الناصر وشاهات خوارزم :

أتاح الاعتراف الجديد بالخلافة العباسية الذى يرجع الفضل فيه إلى البطل صلاح الدين، والمشاحنات الداخلية ــ التى لا حد لها بين الأمراء السلاجقة ــ الفرصة لتحقيق آمال الخليفة الناصر فى أن يرجع إلى الخلافة شيئاً يشبه كيانها القديم . وتعتبر فترة حكم الناصر التى امتدت من سنة (٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م) إلى (٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ م) أطول فترة حكم فى التاريخ العباسى .

وقد بدأ يفرض الناصر إرادته على العاصمة بغداد ، فأمر بإقامة عدة مبان تعهدها بالأموال ، كما رفع مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وازدهر فى ظل رعايته نظام خالص من الأخوة يعرف بنظام الفتوة ، ويرجع إصل هذه الأخوة إلى أيام على وكانت تجمع نفراً من أصل طيب معظمهم من سلالة ابن عم الرسول وزوج ابنته . وكان يسمى أعضاء هذا النظام بالفتيان ، وكانت لهم حفلات خاصة وطقوس لإدخال الأعضاء فى جماعتهم كما كانوا يلبسون ملابس تميزهم عن غيرهم .

على أن محاولات الناصر هذه لم تكن أكثر من اشتعال فتيل قبل انطفائه أو كصحوة الموت .

وكانت أول غلطة خطيرة له عندما حرض تكش ــ حاكم خوارزم وأحد أعضاء الأسرة التركية لشاهات خوارزم التى قيض لها أن تلعب الدور الرئيسى فى تاريخ آسيا الوسطى أكثر من مائة سنة ــ أقول عندما حرضه على أن يهجم على سلاجقة العراق العجمى ــ أى إقليم ميديا ــ الذين خلفوا سلاجقة فارس العظام فى حكم بغداد . ودارت رحى المعركة بين تكش والسلطان السلجوقى طغرل فى سنة (٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م) وانتهت بهزيمة طغرل . وبذلك انتهى البيت السلجوقى فى كل من العراق وكردستان .

وكان الناصر ينتظر من الشاه المنتصر أن يسلم إليه البلاد المفتوحة ، ولكن تكش كان يفكر تفكيراً آخر ويدبر شيئاً ثانياً . ولقد اتبع التقليد السلجوقى بأن سك على العملة اسمه كسلطان ، وكان يطمع فى أن يكون له النفوذ الزمنى فى بغداد وأن يترك للخليفة السلطة الاسمية فقط .

واستمر النزاع فى عهد ابنه علاء الدين محمود الذى خلفه على العرش سنة (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠م) ، فبعد أن أخضع الشطر الأكبر من فارس وبخارى وأختها سمرقند واستولى على غزنة ، قرر هذا الشاه الخوارزمى أن يضع حداً نهائياً للخلافة العباسية ، وصمم على أن يقيم مكانها خلافة علوية .

ظهور التتار فى أقصى الشرق :

ووقع الخليفة الناصر فى حيرة ، لم يخرجه منها إلا ظهور قوة كبرى كان قد بدأ نجمها يبزغ فوق الأفق فى الشرق البعيد بقيادة جنكيز خان ، ذلك الزعيم المرعب لجموع التتار الوثنية . فقد أدت ظهور هذه القوة إلى انشغال علاء الدين محمود الخوارزمى بمقاومتها والتصدى لها ، مما صرف نظره عن مطامحه بشأن القضاء على الخلافة العباسية .

وأمام هذه الجموع التتارية الرهيبة التى كانت تتراوح بين ٦٠٠,٠٠٠ و ٧٠٠,٠٠٠ ، ويزداد عددهم بمن ينضم إليهم من الشعوب التى تخضع لهم على طول الطريق — لم يجد علاء الدين وسيلة إلا الفرار . وكان الملجأ الذى أهرع إليه جزيرة فى بحر الجزر .

التتار يدمرون كل شئ أمامهم :

كان التتار بقيادة جنكيز خان على خيولهم السريعة وبما يحملون من أقواس غريبة يثيرون وينشرون الفزع والخراب أينما حلوا . لقد استؤصلت أمام حركاتهم وزحفهم كل مراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى ، وتركوا كل مكان عامر صحراء بلقعاً وخرائب متراكمة ، يستوى فى ذلك القصور الفخمة ودور

الكتب العظيمة ، وكان يدل على مسيرهم مجرى من الدماء ؛ فقد كان تعطشهم للدماء عجيباً ومفزعاً ، وعلى سبيل المثال كان عدة أهل هراة ١٠٠,٠٠٠ فلم يتركوا فيها إلا ٤٠,٠٠٠ . أما مساجد بخارى التى كانت مقر العلم والتقى فقد اتخذ منها هؤلاء المتخلفون أشباه الإنسان — اسطبلات لخيولهم . وأسلم قائدهم جنكيز خان للسيف الكثير من سكان سمرقند وبلخ ، وساق أمامه جموع الأسرى منهم . أما خوارزم فقد دمرت تدميراً تاماً .

وقد روى عن جنكيز خان أنه بعد الاستيلاء على بخارى وصف نفسه فى إحدى خطبه بأنه عذاب الله أرسله إلى الناس عقاباً لهم على خطاياهم !

وعندما زار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت وصفها بأن أكثرها لايزال خرائب ينعق فيها البوم .

وزحف تولوى بن جنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان هؤلاء الهمج يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم — من أمامهم أو قتلهم من خلفهم .

وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد المؤرخون أن هذه المذابح استمرت ثلاثة عشر يوماً هلك فيها ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة .

وقاومت نيسابور الغزاة الهمج ببسالة زمناً طويلاً ، فلما استسلمت آخر الأمر قتل كل من فيها من الرجال والنساء والأطفال ، ماعدا أربعمائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رؤوس القتلى فى كومة مروعة .

وخربت كذلك مدينة الرى الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاث آلاف ، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين .

لقد كانت هذه الوحشية جزءًا من علوم الحرب عند المغول ، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب فى قلوبهم ، وإرهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا فى الخروج عليهم . ونجحت هذه الخطة إلا مع مصر القاهرة .

أما الخليفة الناصر فإنه قضى السنوات القلائل الباقية من حكمه الطويل فى حالة رعب مستمر ، وكذلك كان حال ابنه الظاهر وحفيده المستنصر . وحدث ذات مرة أن التتار قد تقدموا حتى وصلوا إلى سامراء ، فامتلأ أهل بغداد رعباً وأخذوا يتهيأون للدفاع عن أنفسهم . ولكن الخطر زال مؤقتاً ، ولم يكن زواله إلا بمثابة الهجعة المؤقتة قبل هبوب العاصفة المميتة .

العاصفة المميتة :

وقد هبت العاصفة المميتة بالفعل عندما سمع التتار بتحركات الحشاشين ضدهم فى إيران ؛ ففى سنة (٦٥٢هـ = ١٢٥٣م) بارح هولاكو حفيد جنكيز خان **منغولياً** على رأس جيش ضخم واضعاً أمام عينيه هدفين أساسيين ، هما : تحطيم الحشاشين الذين أبدوا بأساً وشجاعة وصموداً فى مواجهتهم ، والقضاء على الخلافة العباسية .

وعندما بدأت موجة الزحف المغولى الثانية اكتسحت أمامها كل الإمارات الصغيرة التى كانت تحاول أن تقوم على أنقاض امبراطورية خوارزم شاه .

هولاكو يحطم قلاع الحشاشين :

وأرسل هولاكو دعوة إلى الخليفة المستعصم لينضم إليه فى حملة ضد حركة الحشاشين ، فلم تلق دعوته جواباً . مما دفع هولاكو إلى تركيز جل جهوده على مهاجمة معاقل وقلاع الحركة ، وبالفعل تمكن فى النهاية من تحطيم معظم القلاع بما فيها قلعة ألموت الشهيرة . وسنذكر إن شاء الله تعالى تفاصيل المواجهة بين المغول والحركة فى فصل لاحق .

سقوط بغداد على يد التتار :

وبعد أن حقق هولاكو هدفه الأول المتمثل فى القضاء على الحركة الخطرة : (حركة الحشاشين) ، أرسل فى العام التالى وهو فى طريق خراسان المتعرج المشهور إنذاراً نهائياً إلى المستعصم يطلب فيه أن يكون الخليفة خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع ، وأن يدمر أسوار مدينته الخارجية . فرفض المستعصم هذه الطلبات فى إباء ، فحاصر المغول بغداد ، وأخذت منجنيقات هولاكو تقذف أحجارها على أسوار العاصمة ، وسرعان ما أحدثت تصدعاً فى أحد الأبراج . فظهر على أثر ذلك الوزير ابن العلقمى ومعه الجاثليق النسطورى — وكان هولاكو متزوجاً من زوجة مسيحية — يعرض عليه الصلح ، ولكن هولاكو رفض أن يستقبلهما . ولما رأى الخليفة هلاك المدينة أمر لابد حادث ، لم يجد بداً من تسليم نفسه إلى عدوه على أمل الرحمة التى وعده بها هولاكو ، فخرج من بغداد يوم الأحد (٤ من صفر سنة ٦٥٦هـ = ١٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) ومعه أولاده الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك ، وثلاثة آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وسلم نفسه معهم إلى هولاكو .

وقد قابله هولاكو المخادع الذى ليس له عهد ولا ضمير بترحاب وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بالتجرد من سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم ، فأجابه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولاً من لدنه ينادى على الناس فى طرقات بغداد أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار . ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم .

ثم دخل جيش هولاكو المدينة وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوماً كاملة ، حتى فتكوا بـ ٨٠٠,٠٠٠ من أهلها على حد قول بعض المؤرخين . وهلك فى هذه المذبحة الشاملة آلاف من العلماء والشعراء والأدباء ، ونهبت أو دمرت فى أسبوع واحد المكاتب والكنوز التى أنفقت فى

جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران . أما الخليفة وأفراد أسرته ، فقد أرغمهم هولاكو على أن يكشفوا عن مخابئ ثرواتهم ، ثم قتلهم .

الجيش المصرى يحطم أسطورة جيوش التتار :

ثم توجه هولاكو إلى سوريا ، واستولى على حماة وحارم بعد استيلائه على حلب التى أسلم فيها عدداً يقرب من خمسين ألفاً من السكان إلى السيف . وعندما بلغه موت أخيه الخان الأعظم اضطر إلى العودة إلى منغوليا ، وبقى جيشه وراءه يتقدم لفتح باقى بلاد الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت سنة (١٢٦٠م) بجيش مصرى يقوده الملك قطز وقائده بيبرس ، وتمكن الجيش المصرى من تحطيم الجيش المغولى ، وزفّت البشرى إلى كل مكان فى بلاد الإسلام بل وفى أوربا ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد حل الطلسم وذهب الروع .

بعد ذلك استطاع المماليك أن يعيدوا استرداد كل سوريا ، وعندما عاد هولاكو وحاول أن يعقد محالفة مع الفرنج ليغزو سوريا فشل فى محاولته .

****

ويعد هولاكو أول من حصل على لقب « أيلخان » (= سيد القبيلة) باعتباره المؤسس لدولة المغول فى فارس ، تلك الدولة التى امتدت من آموداريا (جيحون) إلى حدود الشام ، ومن جبال القوقاز إلى المحيط الهندى . وكان هذا اللقب يحمله أخلافه من بعده حتى السابع منهم المسمى غازان محمود (١٢٩٥ــ١٣٠٤م) ؛ وهو الذى أصبح فى عهده الإسلام بما فيه من ميول شيعية دين الدولة الرسمى .

وفى عهد هؤلاء الأيلخانات ــ أو أخلاف هولاكو ــ هبطت مكانة بغداد حتى أصبحت عاصمة لمقاطعة تعرف باسم العراق العربى . وقد شجع الأيلخان العظيم هولاكو العنصر المسيحى بين رعاياه . وفى أوقات السلم كان

يميل دائماً إلى أن يتخذ مقره فى مراغة الواقعة إلى الشرق من بحيرة أرمية الملحة ، حيث أقيمت هناك عدة مبان من بينها المكتبة المشهورة والمرصد . وفى هذه البلدة مات هولاكو سنة ١٢٦٥م ، ودفن معه ـــ جرياً على العادة المغولية ـــ عدة من الفتيات الجميلات . أما هولاكو ومن خلفه ، فإنهم كانوا ـــ كما كان السلاجقة من قبلهم ـــ يسرعون إلى تقدير الإدارة الفارسية ويستفيدون منها ، وكثيراً ما كانوا يحيطون أنفسهم بجماعة من العلماء المثقفين أمثال الجوينى ورشيد الدين وهما من أشهر مؤرخى العصر . والحق أن الخمسة والسبعين سنة التى حكم فيها الأيلخانات فارس كانت سنوات مزدهرة بالتقدم الأدبى .

لقد بدا الإسلام فى الشطر الأول من القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) وكأنه سيزول إلى الأبد ، فلقد انحصر من ناحية الشرق بهؤلاء المغول الهمج رماة النبل والخيالة ، ومن الغرب بالفرسان المدرعين من جنود الصليبيين .

وما أعظم الفرق بين هذا الموقف وموقف الإسلام فى الشطر الأخير من نفس هذا القرن : إن آخر جندى صليبى كان قد قذف به إلى البحر ، أما سابع الأيلخانات ـــ الذين عشق كثير منهم المسيحية واحتضنوها ـــ فقد اعتنق الإسلام واتخذه ديناً للدولة .

وهكذا انتصر دين الإسلام فى الوقت الذى انهزم فيه جنوده . وفى مدة تقل عن نصف قرن من محاولة هولاكو تدمير الحضارة الإسلامية ـــ نرى واحداً من أبناء أحفاده ، وهو غازان ، من أشد الناس إخلاصاً للإسلام ، فركز كل جهده وتفكيره فى محاولة لإحياء تلك الحضارة الإسلامية .



الأصول التاريخية لحركة الحشاشين

- نشوء الفاطميين .
- عبيد الله الحاكم القوى .
- فتـح مصـر .
- عصر الأساطير والتناقضات .
- أطول حكم فى التاريخ الإسلامى .
- الحالة الداخلية لمصر فى عهد الفاطميين .
- هل حققت الدعوة الإسماعيلية انتصارات عقائدية مع انتصارات الفاطميين السياسية ؟
- لماذا فشلت الدعوة الإسماعيلية فكرياً رغم نجاحها السياسى ؟

الأصول التاريخية لحركة الحشاشين

ترجع الأصول الأولى لحركة الحشاشين إلى التيار الشيعى فى الإسلام — ذلك التيار الذى انقسم إلى فرقتين كبيرتين عند موت الإمام جعفر الصادق الإمام السادس سنة ١٤٨ هـ ، وقد كان الإمام جعفر قد عهد بالإمامة إلى ابنه الأكبر إسماعيل ولكن مات إسماعيل أثناء حياة أبيه جعفر الصادق ، وهنا حدث الخلاف بين الشيعة : هل تنتقل الإمامة إلى محمد بن إسماعيل أم من حق الإمام جعفر الصادق أن ينقلها إلى ابن آخر من أبنائه هو موسى الكاظم ؟ .

ساقت مجموعة بقيادة ميمون القداح الإمامة إلى محمد بن إسماعيل وقالت ليس من حق الإمام جعفر نقل الإمامة إلى ولد آخر من أولاده ، فى حين صرف الإمام جعفر الإمامة بالفعل إلى ابنه الآخر موسى الكاظم . فكان ذلك هو عقد ميلاد فرقتى الشيعة الرئيسيتين : الإسماعيلية ، والاثنا عشرية . فالاثنى عشرية هى التى أيدت إمامة موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية بقيادة ميمون القداح فقد ساقت الإمامة إلى محمد بن إسماعيل[1] ولما مات ميمون حوالى ١٩٨ هـ ، خلفه ابنه عبد الله فى الدعوة إلى أبناء إسماعيل . وكانت الحركة بعد موت إسماعيل قد دخلت فى (دور الستر) ، وأخذت تنمو وتتوطد دعائمها الفكرية ، حيث عمل رجالها على تأليف المصنفات التى تنظّر لدعوتهم

(١) ينفي معارضو الإسماعيلية تسلسل أى من الأئمة المستورين من الإمام إسماعيل ويقولون : أنه لم يعقب ولداً وأن محمداً لم يكن ابنه وإنما هو (عبد الله) بن ميمون القداح الذى نسبه ميمون إلى إسماعيل وسماه محمداً . وهناك إدعاءات أخرى متعددة غير ذلك . والواقع أن حسم هذه المسألة من الصعوبة بمكان إن لم يكن مستحيلاً لأن دخول الحركة فى تلك الفترة الغامضة المعروفة بـ [دور الستر] يجعل كلّ الاحتمالات ممكنة لاسيما وأن المؤرخين قد اختلفوا اختلافاً واسع النطاق حول هذه المسألة . ولكل منهم أدلتهم وبراهينه .

وتدعو إليها ، وقد ظهرت فى هذه الفترة الغامضة التى امتدت من موت إسماعيل حتى ظهور عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية ، مجموعة رسائل إخوان الصفا التى أشرف على تأليفها الإمام أحمد أحد الأئمة المستورين.

وطوال فترة الستر التى تعاقب فيها ثلاثة من الأئمة المستورين ، لم تحقق الدعوة نجاحاً كبيراً إلا بظهور عبيد الله المهدى ، الذى يعتبر ظهوره أقصى ما وصلت إليه الدعوة الإسماعيلية من نجاح لا يقاس به إلا نجاح الدعوة الأولى فى تصدع الخلافة الأموية .

ويرجع قسط غير قليل من هذا النجاح إلى الجهود الشخصية التى بذلها كبير الدعاة أبو عبد الله الحسين الشيعى من أهل صنعاء اليمن . وهو الذى أعلن نفسه ـــ فى نهاية القرن الثالث الهجرى ـــ مبشراً بظهور المهدى ، وتمكن من غرس بذور الثورة بين قبائل البربر فى شمالى إفريقية ، وخاصة قبيلة كتامة . وترجع بداية معرفته بأفراد هذه القبيلة إلى موسم الحج فى مكة ، وكانت إفريقية فى ذلك الوقت تحت حكم الأغالبة .

ثم انتقل أبو عبد الله إلى تازَرُوت قرب بجاية فى المغرب الأوسط فى إقليم القبائل الحالى ، واتخذها حصناً ومعسكراً يعد فيه القوة العسكرية اللازمة للقضاء على الدولة الأغلبية فى إفريقية وإقامة دولة الفاطمية بمكانها .

وعندما سمع سعيد بهذا النجاح الباهر الذى حققه كبير دعاته فى تلك المنطقة البعيدة ، عزم على أن يترك المقر الأصلى للإسماعيلية فى سلمية ، وأن يسير متنكراً فى ثياب تاجر إلى الشمال الغربى من إفريقية .

وعند وصوله أمر زيادة الله الأغلبى بالقبض عليه وسجنه فى سجلماسة . ولكن أبا عبد الله الشيعى نجى سعيداً ، واستطاع فى سنة (٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م) أن يحطم دولة الأغالبة التى ظلت تحكم زهاء قرن وأن يطرد آخر سلالتها زيادة الله من البلاد . وقد كان الأغالبة آخر من يمثل الإسلام السنى فى شمالى إفريقية . ولقد أعلن سعيد نفسه حاكماً على تلك البلاد واتخذ لقب الإمام عبيد الله المهدى وقبله الناس على أساس أنه من سلالة فاطمة عن طريق الحسين ثم إسماعيل .

نسب الفاطميين :

ويشار غالباً إلى الأسرة الحاكمة التى أسسها سعيد باسم العبيدية ، لاسيما من أولئك الذين لا يؤمنون بصحة نسبه . فمن المعروف أن المؤرخين يختلفون حول صحة تسلسل الفاطميين من فاطمة ، ويوجد فى كتب التاريخ ما لا يقل عن ثمانى سلاسل نسب مختلفة يلحقه بها أنصاره وخصومه . ومما هو جدير بالذكر أن الخلاف على صحة نسب الفاطميين لم يقم إلا فى سنة (٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) عندما أصدر الخليفة العباسى القادر منشوراً غريباً أمضاه كثير من علماء أهل السنة وأعلن فيه أن « الحاكم » المنافس المصرى له لم يتسلسل من فاطمة وإنما تسلسل من ديصان الملحد . ومن بين المؤرخين الذين يتشككون فى صحة نسب الإمام سعيد أو ينكرونها : ابن عذارى ، وابن تغرى بردى ، وابن خلكان ، والسيوطى . أما الذين يؤيدون صحة نسبه فكثيرون ، منهم : ابن الأثير ، وابن خلدون ، والمقريزى .

عبيد الله كحاكم قوى :

ومهما يكن من أمر فقد أقام عبيد الله فى رقادة مقر الأغالبة وهى ضاحية من ضواحى القيروان ، وقد أثبت أنه من أقوى الحكام ، فلم تمض سنتان على تمتعه بالسلطة حتى قام بحملات كبيرة [illegible] ثم وجه جيوشه لفتح سائر بلاد المغرب ، على أمل الخروج من المجال الضيق الذى وجد نفسه فيه ، وقد ساعده على ذلك ما كان يتحلى به من [illegible] قبائل بربرية ضخمة

متطلعة إلى الغارات والمغانم وفرض السلطان ، فإلى شرق منازل كتامة ــ وكانت جذماً ضخماً يضم عدداً كبيراً من القبائل ــ كانت هناك قبائل صنهاجة المغرب الأوسط ، وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة ، فاصطنع عبيد الله المهدى واحداً من أكبر زعمائهم وهو مصالة بن حبوس ، وسلّطه على بقية المغرب الأوسط ، وكانت تسكنه قبائل زناتية أكبرها مغراوة وبنو يفرن ، فحمل الصنهاجيون عليها ودفعوها إلى الغرب ، واستعانت القبائل الزناتية فى محنتها ببنى أمية الأندلسيين ، ووصل مصالة بن حبوس تابع الفاطميين بمن معه من الصنهاجيين إلى المغرب الأوسط ، وغلبوا الأدارسة ودخلوا فاس ، وولى مصالة عليها رجلاً من أنصاره وهو موسى بن أبى العافية . وتقدمت أمداد الأمويين الأندلسيين لعون الأدارسة وبنى خزر الزناتيين ، واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة لتلك التوسعات الفاطمية .

من جهة أخرى ، فإنه فى سنة (٣٠٢هـ = ٩١٤م) استولت جيوش المهدى على الاسكندرية ، وبعد ذلك بعامين اكتسح كل الدلتا . ثم أرسل من قبيلة كتامة حاكماً جديداً إلى صقلية ، وكون علاقات صداقة مع الثائر ابن حفصون فى الأندلس . وقد شعرت جزائر مالطة وسردينية وقروسيقة وجزائر البليار وغيرها من الجزائر بقوة أسطوله الذى ورثه عن الأغالبة . وفى حوالى (٣٠٩هـ= ٩٢٠م) اتخذ مقامه فى عاصمته الجديدة « المهدية » التى أسسها على ساحل تونس على بعد ستة عشر ميلاً من الجنوب الشرقى للقيروان وأطلق عليها اسمه .

وخلال تلك الفترة أقامت الدولة الجديدة تنظيماً واسعاً للدعوة الشيعية الإسماعيلية ، فلم تجد دعوتهم صدى إيجابياً ؛ حيث نفر منهم أهل إفريقية نفوراً شديداً بسبب تمسكهم البالغ بالمذهب السنى المالكى يتزعمهم فى ذلك فقاؤهم . ومنذ البداية إتضح لعبيد الله المهدى أن إفريقية لن تكون أبداً مهداً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت فى أيامه المعركة الطويلة بين السنية المالكية والشيعية الإسماعيلية على أرض إفريقية ، وهى معركة طويلة وعنيفة ، استمر المغرب يعانى منها طوال الفترة الفاطمية فيه .

خلفاء عبيد الله :

وقد اتبع أخلاف عبيد الله سياسة التوسع التى بدأها هو . فأما ابنه أبو القاسم محمد القائم المتوفى سنة (٣٣٤ هـ=٩٤٦ م) فإنه أرسل أسطولاً يغزو السواحل الجنوبية لفرنسا ، واستولى على جنوة ، وسار على طول ساحل قلورية يغزو ويحمل معه الأسرى والغنائم ، ولكن هذه الحملات مع ذلك لم تؤد إلى غزو دائم .

وبعد أن تغلب الفاطميون فى أواخر خلافة ثالثهم أبى طاهر إسماعيل المنصور الذى حكم من وفاة القائم حتى سنة (٣٤١هـ=٩٥٣م) ، على ثورة الخارجى أبى يزيد مخلد بن كيداد التى كادت تودى بدولتهم ، بعد ذلك اتجهوا بأنظارهم إلى مصر ، وقد شجعهم على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية من ناحية ، والمتاعب والأزمات والتوترات التى كانت تواجههم فى دول المغرب من ناحية أخرى .

ولكن قبل أن يركزوا جهودهم فى السيطرة على مصر ، وفى عهد الخليفة أبى تميم معد المعز ، استطاع الأسطول الفاطمى أن يغزو سواحل الأندلس التى كان خليفتها آنئذ الناصر العظيم . وبعد ذلك بفترة وجيزة تقدم الجيش الفاطمى ناحية الغرب حتى وصل إلى المحيط الأطلنطى الذى أرسل قائد الجيوش بعض أسماكه الحية فى قدور للخليفة .

فتـح مصـر :

وبعد ذلك ركز الخليفة المعز لدين الله جهوده فى محاولة السيطرة على مصر حتى تم له ذلك على يد قائده جوهر الصقلى .

وكان جوهر الصقلى هذا ، ويلقب أيضاً الرومي ، مسيحى النشأة ولد فى مقاطعة بيزنطية لعلها صقلية ، وبيع بعد ذلك فى القيروان .

وفى الحال بعد أن دخل جوهر العاصمة « الفسطاط » منتصراً فى سنة ٣٥٨ هـ ابتدأ يضع أساس المدينة العظيمة « القاهرة » التى سُميت كذلك

نسبة إلى الكوكب السيار « قاهر الفلك » أى المريخ الذى كان إذ ذاك فى صعود . وقد أصبحت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية سنة (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) ، وبعد تأسيس القاهرة أسس جوهر الصقلى الجامع « الأزهر » نسبة إلى الزهراء أحد ألقاب السيدة فاطمة بنت النبى ﷺ . وبذلك أصبح جوهر الصقلى ــ بعد أبى عبد الله الحسين الشيعى ــ المؤسس الثانى للإمبراطورية الفاطمية التى صارت الآن تضم كل شمالى إفريقية .

وعندما رأى الخليفة المعز لدين الله أقدام جيوشه بقيادة جوهر تتوطد فى مصر عزم على نقل مقر خلافته إلى القاهرة . وقبل أن يغادر القيروان استخلف مكانه على المغرب بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أكبر زعماء صنهاجة المغرب الأوسط .

وقد بادر جوهر منذ دخوله مصر بإرسال أحد كبار قواده واسمه جعفر بن فلاح ، إلى بلاد الشام ، وقد وصل ذلك القائد فى سنة (٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م) إلى دمشق واحتلها احتلالاً مؤقتاً .

أما غربى شبه الجزيرة العربية فقد ورثه الفاطميون عن الأخاشدة الذين كانوا يتولون أمر حراسة مكة والمدينة .

وفى تلك الأثناء برز أمام الفاطميين عدو لدود هم القرامطة الذين كانوا يسيطرون على إقليم الأحساء وجزيرة البحرين ، وقد كانت علاقاتهم مع الفاطميين فى أول أمرهم علاقات صداقة ، فلما أصبح الفاطميون خلفاء مصر انقلب عليهم القرامطة بسبب التصارع على مناطق النفوذ وتعارض المطامع .

عهد أبى منصور نزار العزيز بالله :

ولم يطل عمر المعزي لدين الله فى مصر فقد توفى فى سنة (٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) ، وكانت فترة حكمه لمصر سنتين وتسعة شهور هجرية ، أثبت فيها أنه من أقدر الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر إن لم يكن أقدرهم على الإطلاق .

وتولى الحكم بعده أبو منصور نزار العزيز الذى وصلت الدولة الفاطمية فى

عهده إلى أوجها ، فكان اسم الخليفة يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد من المحيط الأطلنطى إلى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق ، بل فى الموصل ذات مرة . ويمكن القول إن حكمه الاسمى على الأقل كان يمتد فوق هذه المساحة . وقد وصلت الخلافة المصرية فى عهده إلى حد أنها أصبحت المنافس الخطير الأول للخلافة العباسية فى بغداد . وذهب به التفكير إلى حد أنه أنشأ مبنى ضخماً فى القاهرة كلفه ألفى ألف دينار ليأوى فيه منافسيه العباسيين الذين كان يأمل فى القبض عليهم بعد الاستيلاء على بغداد . ولقد حذا حذو سلفيه فألقى نظرة طمع على بلاد الأندلس البعيدة ولكنه لم يستطع ضمها .

ويتميز عهد العزيز بالاهتمام الشديد ببناء كثير من المساجد والقصور والترع والجسور ، كما لاقى المسيحيون فى ظل حكمه قسطاً من التسامح لم يظفروا بمثله من قبل . وذلك بتأثير وزيره المسيحى عيسى بن نسطور وزوجته أم ولده الحاكم التى كانت أخواها بطريقين ملكانيين .

ورغم إزدهار الخلافة الفاطمية فى عصره إلا أن أحد أسباب تدهورها فيما بعد كان هو المسؤول عنه ، ذلك لأنه كان أول خليفة فاطمية ابتدأ يتبع العادة العباسية التى كانت خطرة على سياسة الدولة ، تلك العادة المتمثلة فى استيراد الجند المرتزقة من الترك والسودان ، وكانت علاقة هؤلاء الجند ونزاعاتهم المستمرة بعضهم مع بعض أو مع الحرس البربرى من أكبر الأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة النهائى فيما بعد ، وكان الجند المراكسة والترك من جملة العبيد هم الذين اغتصبوا فى آخر الأمر السلطة العامة وأسسوا لهم دولة مستقلة .

عصر الأساطير والتناقضات : الحاكم بأمر الله :

وبعد وفاة العزيز سنة (٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) ، خلفه ابنه الحاكم بأمر الله وعمره إحدى عشرة سنة . وتشتمل فترة حكمه على متناقضات عجيبة : يأمر بالشيء ثم يعاقب عليه ، ويعلى مرتبة الوزير ثم يقتله ، ويبنى المدارس وينصب فيها الفقهاء ثم يهدمها ويقتل فقهائها .

وتتباين أقوال المقيمين له تبايناً عظيماً ، فمنهم من يتحدث عنه كعبقرى ، بل وكإله ! ومنهم من يعتبره مختل العقل مستهتراً سفاكاً للدماء .

وخلاصة الانطباع الذى يستطيع المرء أن يكونه بعد استقراء فترة حكمه والتأمل فى أحداثها تتمثل فى أن الحاكم كان لغز عصره ، وتعد شخصيته مثالاً نموذجياً للخفاء والغموض والتناقض ، ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تنتاب هذه الشخصية الغريبة فى كثير من المواطن ، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التى تتمتع بها فى أحيان كثيرة . بيد أن الخفاء والغموض يغمر هذه المظاهر جميعاً ، سواء فى فترات قوتها أو ضعفها . وكان هذا الخفاء والغموض المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة وفى تصرفاته العامة ، فى أقواله وفى أفعاله . وأى خفاء وغموض أشد من ذلك الذى تنفثه حولها ، شخصية ترتفع فى سماء التفكير حتى لتزعم السموفوق البشر وتهيم فى دعوى الألوهية ، ومع ذلك تنحط فى كثير من نزعاتها وتصرفاتها إلى نوع من الشذوذ بل الجنون الغامض ؟!

وقد انتهت فترة حكمه باختفائه فى إحدى الليالى سنة (٤١١ هـ = ١٠٢١ م) ، وتذكر بعض الروايات أنه وجد مقتولاً فوق سفح المقطم ، ويقال : إن رجلاً اغتاله غيرة لله وللإسلام بعد ادعائه للإلوهية وتنكيله بمصر وأهلها . لكن بعض المؤرخين يذكرون أنه اختفى نتيجة لمؤامرة دبرتها أخته ست الملوك التى اتهمها الحاكم فى عرضها ، فدست له رجلين اغتالاه وأخفيا أثره . وأعلن أحد دعاته ويدعى حمزة أنه « احتجب وسيعود لنشر الإيمان بعد الغيبة » !!

الظاهر لإعزاز دين الله :

بعد رحيل الحاكم بأمر الله تولى الخلافة ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة (٤١١ هـ) بعهد من أبيه الحاكم ، وكان فى السادسة عشرة من عمره ، وكانت عمته « ست النصر » أخت الحاكم هى القائمة بأمور الدولة لصغر سنه ، واستمرت إلى أن توفيت سنة (٤١٥ هـ) . وقد اضطربت أحوال الديار

المصرية والبلاد الشامية فى عصره ، وتغلب حسان بن مفرح الطائى شيخ عربان جبل نابلس على أكثر الشام . ودامت دولة الظاهر قرابة ستة عشر عاماً . وكان محباً للعدل ، فيه لين وسكون مع ميل إلى اللهو ؛ مما أعطى الفرصة لوزرائه أن تكون السلطة الحقيقية بأيديهم . وقد تمكن من إنشاء علاقات ودية مع قسطنطين الثامن ، واتفق معه على أن يذكر اسمه فى المساجد الواقعة فى ممتلكات الامبراطور وأن يصلح مسجد القسطنطينية فى نظير أن يسمح الظاهر بإعادة بناء كنيسة القيامة أو القبر المقدس .

عهد المستنصر :

وبوفاة الظاهر سنة (٤٢٧ هـ=١٠٣٦م) اعتلى ابنه المستنصر العرش ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ، ويعتبر حكمه البالغ زهاء ستين سنة أطول حكم حكمه خليفة فى التاريخ الإسلامى ، وهو الخليفة الفاطمى الذى قابل فيما بعد الحسن الصباح مؤسس حركة الحشاشين عند زيارته لمصر وأخذ عليه العهد والولاء له وكلفه بالدعاية الإسماعيلية فى بلاد فارس ، وعندما سأله الحسن : من إمامي بعدك ؟ قال له المستنصر : ابنى نزار .. إلى آخر تلك التفاصيل التى سنذكرها فى حينها عند الحديث عن نشأة حركة الحشاشين وتطورها .

وفى الشطر الأول من حكم المستنصر كان يقوم بأمره وزير أبيه أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى . ثم تغلبت أمه على الدولة ، وهى أمة سودانية اشتريت من يهودى ، فكانت تتمتع هى ومن باعها بأعظم النفوذ ، وكانت تصطنع الوزراء وتوليهم ، ومن استوحشت منه أوعزت بقتله ، فيقتل .

وفى عهده بدأت الممتلكات الفاطمية تتقلص ، وبعد سنة ١٠٤٣م ابتدأت الممتلكات الفاطمية التى كانت دائماً ضعيفة الارتباط بمصر تنفصل عن الدولة بسرعة ، وكانت فلسطين دائمة الثورات .

ثم ظهرت قوة كبيرة فى الشرق ، تلك هى قوة التركمان السلاجقة الذين أخذوا يتطلعون إلى آسيا الغربية وقتئذ . وفى نفس الوقت كانت المقاطعات

الافريقية التابعة للفاطميين تنفصل وتمتنع عن دفع الجزية ، وتعلن استقلالها أو تعترف بطاعتها القديمة للعباسيين .

أما القبائل العربية المشاغبة من بنى هلال وسليم ، التى كانت فى الأصل من نجد وأصبحت آمنة فى الصعيد ، فقد حرضت فى سنة ١٠٥٢ م على أن تتحرك إلى المغرب وتغزو لعدة سنوات متوالية طرابلس وتونس .

أما صقلية التى كانت خاضعة للأغالبة ثم اعترفت بعد القضاء عليهم بنفوذ الفاطميين وخضعت لهم ، فإنها فى سنة ١٠٧٦ م قد أخضعها النرمنديون الذين لم يكتفوا بالاستيلاء عليها بل اكتسحوا بعض الأجزاء من افريقية نفسها .

وبعد هذا التقلص السريع لنفوذ الفاطميين خارج مصر لم يبق مخلصاً لقضية الشيعة إلا بلاد العرب ، وحركة الموت (حركة الحشاشين) فى فارس بقيادة حسن الصباح .

ولم يلمع فى هذا الأفق المظلم إلا شعاع واحد من الضوء هو ذلك النجاح المؤقت الذى أصابه فى بغداد القائد التركى المتمرد البساسيرى الذى أجبر الخليفة العباسى القائم على التنازل عن حقوقه فى الخلافة لصالح الخليفة الفاطمى المستنصر ، وكان يذكر اسم المستنصر فى المساجد الواقعة فى منطقة نفوذه فى بغداد مدة أربعين جمعة متتابعة . ولنا وقفة أخرى مع هذه الحادثة لنبين كيف استطاع القائد السلجوقى طغرلبك أن يعيد الأمور إلى نصابها .

الحالة الداخلية لمصر فى عهد الفاطميين

هذا عن الحالة الخارجية للدولة الفاطمية ، أما الحالة الداخلية فى مصر نفسها ، فقد كانت المتاعب والقلاقل مستمرة بسبب النزاع بين فرق الأتراك والمغاربة والسودانيين مما أدى إلى شل سلطة الحكومة .

ثم كانت سبع سنوات عجاف ، فأرهقت الموارد الاقتصادية فى البلاد . وفى سنة ١٠٧٣ م أرسل الخليفة المستنصر المتردد القلق يستدعى بدراً الجمالى الأرمنى الذى كان من الموالى السابقين ، وكان فى ذلك الوقت الحاكم

العسكرى لمصر – ليكون وزيراً وقائداً أعلى . وتولى أمير الجيوش الجديد الإمرة بما أوتى من قوة حتى أنه حول تلك الفوضى الظاهرة إلى نظام ، ومنح الدولة الفاطمية أمداً جديداً للحياة . ولكن أصبح الخليفة الفاطمى نفسه كالمحجور عليه بسبب ما كان يتمتع به بدر من قوة ونفوذ وسيطرة ، حتى أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً عندما اضطهد الوزير الداعية حسن الصباح عند وجوده فى مصر .

ولكن هذا التجديد والإحياء لم يدم طويلاً ، ولم تفلح جهود بدر ولا جهود ابنه وخلفه الملك الأفضل فى إيقاف تيار التدهور الآخذ فى الازدياد ، وكان الأفضل يمارس سلطة كاملة بعد وفاة أبيه .

ولما مات المستنصر سنة (٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) وضع الملك الأفضل على العرش أصغر أبناء الخليفة وسماه المستعلى بدلاً من نزار الابن الأكبر الذى كان له الحق الشرعى فى الخلافة . ومن هنا انقسمت الاسماعيلية الفاطمية قسمان : الإسماعيلية المستعلية ، والإسماعيلية النزارية التى تنتمى إليها حركة ألموت .

وعند موت المستعلى نادى الأفضل بطفل للخليفة لا يتجاوز الخامسة من عمره ، ومنحه – كخليفة – ذلك اللقب الضخم « الآمر بأحكام الله » الذى تمكن فدائى ألموت من اغتياله .

ثم تولى الحافظ بعد الحكم من سنة ١١٣٠م إلى ١١٤٩م وكان سلطانه لا يعدو قصر الخلافة .

أما ابنه وخلفه الظافر الذى حكم من ١١٤٩ إلى ١١٥٤م فإنه كان فى ذلك الوقت شاباً مرحاً ، وانتقلت كل السلطة إلى يد الوزير الكردى ابن السلار الذى كان يلقب بالملك العادل . وتدل المذكرات التى تركها المؤرخ أسامة الذى عاش فيما بين سنتى ١١٤٤ و١١٥٤م فى البلاط الفاطمى – على أن المؤامرات والخصومات والتحاسد الذى كان قائماً لم يكن له نظير فى أى بلاط آخر .

وليس من شك أن مقتل ابن السلار سنة (٥٤٨ هـ = ١١٥٣م) على يد

حفيد زوجته نصر بن عباس الذى شجعه الخليفة فيما عبد على أن يقتل أباه عباس بن السلار الذى خلفه فى الوزارة ، وكذلك مقتل الظافر المصحوب بالغموض على يد ذلك المتآمر الصغير ــ كل ذلك يعرض أمامنا صفحة سوداء فى تاريخ مصر السياسى . وفى اليوم التالى لمقتل الخليفة الفاطمى الظافر نادى العباس بابنه الذى كان لا يتجاوز الرابعة من عمره خليفة وأعطاه لقب الفائز ، وقد مات هذا الخليفة الطفل وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وتلاه سنة (٥٥٦ هـ=١١٦٠م) ابن عم له عمره تسع سنوات وهو الخليفة العاضد الرابع عشر من خلفاء هذه الدولة التى حكمت أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

وكان مما يزيد فى تعاسة الشعب المصرى الذى كان يعتمد فى حياته وإقامة أوده على فيضان النيل ــ تلك المجاعات والأوبئة المتكررة التى كانت تصيب البلاد الفترة بعد الأخرى ، وكان نتيجة ذلك ازدياد الضرائب على الشعب وتعرضه للاغتصاب حتى يشبع جشع الخلفاء وجنودهم .

وقد زاد الأمور تعقيداً مجىء الصليبيين وهجمات أملريك ملك بيت المقدس الذى وصل إلى داخل البلاد حتى وقف سنة (٥٦٢ هـ=١١٦٧م) بجوار أبواب القاهرة نفسها .

إن كل تلك الأمور قد وضع لها صلاح الدين حداً نهائياً بعزله لآخر خليفة فاطمى فى (المحرم سنة ٥٦٧ هـ=سبتمبر ١١٧١م) ، وأسقط الخطبة على المنابر للخليفة الفاطمى وأقام الخطبة للخليفة العباسى على منبر الأزهر ثم بقية منابر مصر .

وبذلك انتهت الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وبمجرد سقوطها زال كل أثر شيعى من الساحة المصرية على المستوى الفكرى والاجتماعى والدينى .

هل حققت الدعوة الإسماعيلية انتصارات عقائدية فى عهد الفاطميين ؟

كان ذلك فى افريقية ومصر حيث نجحت الحركة فى تشييد دولتها ،

وأخفقت فى نشر فلسفتها وتعميم عقيدتها . ولاشك أن هذه مفارقة تلفت النظر وتدعو للتساؤل :

لماذا فشلت الدعوة الإسماعيلية فى تدعيم عقيدتها فى تلك البلاد رغم نجاحها السياسى الذى لم تستطع أن تحققه من قبل ، لدرجة أن كل أثر فكرى من آثارها زال معها عند زوالها السياسى ؟

لماذا كانت العقيدة الإسماعيلية غائبة ، وفى لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً ؟

لقد نجحت الحركة الإسماعيلية فى تأسيس دولتها سنة ٢٩٦هـ بافريقية (= تونس) فى مجتمع قبلى صحراوى وشبه صحراوى (سجلماسة ــ القيروان) سبق للإسلام أن « مسح الطاولة » فيه مسحاً ، مجتمع تبنى الإسلام السنى كما نشره « السلف » الفاتحون .

إذن كان من الطبيعى أن يقتصر الدعاة الإسماعيليون فى نشاطهم الفكرى الدينى بافريقية والمغرب على « الظاهر » وأن يركزوا على الجانب السياسى التنظيمى باستثمار سخط السكان على الولاة والاعتماد على التحالفات القبلية . وإذا وضع المرء فى اعتباره أن السلطة العباسية لم تكن مباشرة على هذه المنطقة ، إذ قامت هناك دولة الأغالبة ، وهى دولة صغيرة ضعيفة ــ تبين له أن نجاح الدعاة الاسماعيليين كان نجاحاً سياسياً بالدرجة الأولى ، وأن الدولة الإسماعيلية التى ستجسم هذا النجاح لم تختلف فى وضعيتها الاجتماعية والسياسية والقانونية عن وضعية الدول الأخرى التى شهدتها المنطقة من قبل ؛ وبالتالى فإن الايديولوجية الإسماعيلية بدت غائبة ، وفى لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً .

وهذا لم يحدث فقط فى افريقية (= تونس) مهد الدولة الإسماعيلية ، بل انه نفس ما حدث أيضاً فى مصر قاعدة حكمها ومركز حضارتها لمدة تزيد على قرنين من الزمان ..

إنها لم تستطع أن تحول انتصاراتها السياسية إلى انتصار عقائدي لا في القيروان ولا فى القاهرة .

ذلك رغم انتشار مدارس الدعوة التي أنشأها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة في عاصمته المهدية بتونس ، والتي انتقلت منها فيما بعد إلى المنصورية بتونس أيضاً ، ورغم انتشار مدارس الحكمة التي أنشأها الخلفاء الفاطميون في مصر ولا سيما في القاهرة قاعدة خلافتهم منذ الخليفة المعز لدين الله ، أى منذ سنة ٣٦٢هـ ، إلى أن سقطت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ وعودة الخلافة العباسية إليها ــ رغم انتشار هذه المدارس التي عكفت ترعاها الدولة وتحرص على جعلها مركز إشعاع فكري وتكوين إيديولوجي ــ فإن العقيدة الإسماعيلية في إفريقية وفي مصر لم تستطع أن تتجاوز حلقات كبار الدعاة الذين كانت مناقشاتهم في العقائد والمذاهب على المستوى الفلسفي تكاد لا تتعدى جدران مدارس الحكمة و دار العلم داخل قصر الخلافة .

وهكذا ظلت الساحة الثقافية في مصر والمغرب العربي تحت النفوذ السني الضمني أو الصريح . وبمجرد سقوط الدولة الفاطمية زال كل أثر شيعي من الساحة المصرية ، الاجتماعية والفكرية . أما في بلدان المغرب العربي فلقد كان الولاء للدولة الفاطمية ، بعد رحيلها إلى مصر سنة ٣٦٢هـ ، ولاء سياسياً لا غير ، وفي معظم الأحوال كان ولاء اسمياً فقط . ومعلوم أن الخضوع الفاطمي في المغرب العربي قد انتهى ، حتى في صورته الاسمية تلك ، في العقود الأولى من القرن الخامس الهجري ــ أي قبل سقوط الدولة الفاطمية بما يقرب من قرن ونصف قرن .

حـركة الحشـاشـين
النشأة والتطور

- الظروف الممهدة لظهور حركة الحشاشين .
- مع الحسن الصباح من الصفر .
- الرفاق الثلاثة : حقيقة أم خرافة ؟
- الحسن الصباح فى مصر .
- الإستيلاء على قلعة ألموت .
- الوضع الطبوغرافى لقلعة ألموت .
- تفنيد خرافة ماركو بولو .
- انتصارات الحسن الصباح .
- اغتيال نظام الملك .
- انشقاق داخلى فى التيار الإسماعيلى .
- الاستيلاء على قلعة كردكوه الشهيرة .
- ثورة الجماهير فى أصفهان .
- انتكاسة مفاجئة للحركة .
- وما زالت الاغتيالات مستمرة .
- هجوم واسع النطاق على معظم قلاع الحركة .
- انتقام الحسن من قائد الهجوم .

بلاد فارس

بحر الخزر
اردبيل
تبريز
الموصل
تكريت
بغداد
نهر دجلة
واسط
الكوفة
نهر الفرات
البصرة
العربية
خوزستان
اراجان
شيراز
فارس
الخليج العربي
قزوين
ساوا
الري
قم
اصفهان
مازندران
جبال البروز
دمغان
جردكوه
يزد
كيرمان
خوارزم
سمرقند
نهر اكسوس
مرو
بلخ
خراسان
نيسابور
طوس
قوجان
هرات
طبس
قوهستان
طابسة
بيرجاند
الفرا
سيستان
غزنة
هندوكوش
نهر الهندوس
السند

النشـأة والتطـور

الظروف التى مهدت لنشوء حركة الحشاشين

رأينا فى الفصل السابق كيف نجحت الحركة الإسماعيلية (وهى التى ستنبثق منها حركة الحشاشين) فى تشييد دولتها فى المغرب الإسلامى ، ولكن مع هذا النجاح السياسي الكبير فإنها أخفقت فى نشر فلسفتها وتعميم عقائدها ؛ للدرجة أن كل أثر فكرى لها زال بزوال نفوذها السياسى .

على النقيض من ذلك تماماً سنجد الحال فى المشرق الإسلامى ، ولاسيما فى إيران ؛ فلقد أخفقت الحركة الإسماعيلية هناك فعلاً فى تسلم السلطة السياسية ، بل لقد هادنت السلطة القائمة فى كثير من الأحيان قبل مجيء الحسن الصباح ، ولكنها نجحت بالمقابل فى فرض حضورها الفكرى على الساحة الثقافية ؛ فهيمنت على عقول دينية وفلسفية مرموقة ، وسيطرت على عدة مراكز علمية فى الرى وأصبهان وخراسان .

وهكذا ، فإن الحركة نجحت فكرياً حيث فشلت سياسياً ، بينما حققت نجاحاً سياسياً حيث توالى فشلها الفكرى .

وليس من ريب فى أن تلك المحصلة التى تدعو فى بادىء الأمر للدهشة ، كانت نتيجة للشكل الذى كانت تتفاعل به الحركة مع المعطيات الثقافية والسياسية والاجتماعية والتاريخية السائدة فى المناطق التى كانت تسعى للسيطرة عليها .

فكما أن متطلبات الحفاظ على السيطرة السياسية فى مصر وأفريقية قد جعلت الدعاة الإسماعليين يركزون نشاطهم هناك فى الميدان السياسى وفى حدود « الظاهر » مهتمين أكثر بضمان ولاء الناس للدولة لا للعقيدة ؛ فإن

متطلبات الهيمنة الثقافية والحفاظ عليها قد جعلت الدعاة فى إيران ينصرفون عن العمل السياسى المباشر إلى العمل الفكرى ويركزون بالتالى على نشر الفلسفة التى تؤسس أيديولوجيتهم السياسية الدينية ، مما كانت نتيجته قيام مدرسة فلسفية حرانية هرمسية ، فى خراسان خاصة ، تخدم الحركة الإسماعيلية فكرياً ولكن دون أن تتبنى أيديولوجيتها السياسية .

وتتمثل الدوافع التى فرضت على الحركة الإسماعيلية فى إيران ، هذا الاتجاه فى المعطيات المحلية : التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، التى كانت تتحدد بها الوضعية العامة هناك . فقد كانت إيران مسرحاً للعديد من الحركات الدينية والفلسفية مما جعل الولاء السياسى فيها مشروطاً إلى حد كبير بوجود ولاء فكرى سابق . كما كانت إيران تحت رقابة الدولة العباسية التي كانت تخشى على نفسها من أية حركة معارضة تتجذر هناك ولاسيما الحركة الإسماعيلية . من أجل هذا وذاك اضطر الدعاة الإسماعيليون إلى التركيز على العمل الفكرى بدل المغامرة بتنظيمات سياسية ستتعرض للمتابعة والملاحقة لا محالة : فاتجهوا إلى الأوساط العلمية ولم يترددوا فى الانخراط فى حاشية الأمراء المحليين ليتمكنوا من تسخير السلطة ورجالها ــ السنيين أو الشيعيين المعتدلين ــ فى نشر الفلسفة التى تؤسس عقيدتهم ، وهى الفلسفة الدينية الهرمسية كما كانوا يعرضونها ويوظفونها . وهكذا تم الترويج ــ على نطاق واسع ــ لفلسفة تضم أمشاجاً من الفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية المحدثة فى صيغتها المشرقية الحرانية والعلوم السرية الهرمسية بالاضافة إلى عناصر من الفكر الإيرانى الزرادشتى القديم .

وقد كان هذا الترويج على يد ثلاثة فلاسفة إسماعيليين كبار عاشوا أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين ، بالإضافة إلى تأثير رسائل إخوان الصفا التى كانت المرجع الفلسفى الأول للحركة الإسماعيلية .

وكان الفيلسوف الأول من هؤلاء الفلاسفة الثلاثة : أبو عبد الله بن أحمد النسفي تلميذاً لأحد كبار الدعاة الإسماعيليين الأوائل فى خراسان هو الأمير الحسين بن على المرروزى الذى كان له نفوذ كبير فى المنطقة فاستمال إلى المذهب الإسماعيلى كثيراً من الشخصيات السياسية والعلمية ، مما جعل نصر بن

أحمد رابع أمراء الدولة السامانية (حكم ما بين ٣٠١ ــ ٣٣١ هـ) يحبسه إلى أن مات في سجنه . وقد تولى الدعوة من بعده تلميذه النسفي الفيلسوف الذى استطاع أن يستميل الأمير السامانى نصر بن أحمد نفسه الذى اعترف بإمامة الخليفة الفاطمى أبى عبيد الله الشيعى وبعث له دية الحسين المروروزى المذكور بضغط من النسفى الذى أصبح له سلطة تسيير الأمور فى الدولة ؛ مما أثار على الأمير السامانى غضب قواده ورجال دولته فاضطر إلى التنازل لابنه نوح بن نصر الذى جمع الفقهاء السنيين لمحاكمة النسفى ، فناظروه وتغلبوا عليه ، ثم قُتل هو وكبار رجال الدعوة ومعتنقيها من قواد نصر ؛ فكانت محنة كبيرة نزلت بالحركة الإسماعيلية وأدت إلى وقف نشاطها فى بلاد ما وراء النهر منذ ذلك الوقت (حوالى سنة ٣٢١ هـ) حتى مجئ ناصر خسرو الذى أحيا نشاطها ثم تبعه الحسن الصباح . ولكن رغم هذه الانتكاسة التي لحقت بالحركة الإسماعيلية على المستوى السياسى ، إلا أنها تمكنت بالمقابل من فرض حضورها على الصعيد الفكرى وضمان استمرار هذا الحضور ، من خلال مؤلفات النسفى ولاسيما كتابه « المحصول » الذى كان أول كتاب عقائدى وضع للتداول والمناقشة فى الوسط الإسماعيلى . وإذا كان المرء لا يعرف من آراء النسفى الفلسفية إلا ما ذكره البغدادى من أنه « قال فى كتابه المعروف بالمحصول بأن المبدع الأول أبدع النفس ، ثم ان الأول والثانى مدبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع » ، فإن ما نشر من كتب معاصره وتلميذه الفيلسوف الإسماعيلى الشهير أبى يعقوب إسحاق بن أحمد السجستانى أو السجزى ــ والذى قتل هو الآخر بتركستان سنة ٣٣١ هـ بسبب آرائه ــ يعطينا صورة واضحة عن التقدم الذى حققته الحركة الإسماعيلية على صعيد البناء الفلسفى لعقيدتها ، وهو التقدم الذى مكن تلميذه الداعى الكرمانى (المتوفى سنة ٤١١ هـ) والمعاصر لابن سينا ، من صياغة الايديولوجيا الإسماعيلية صياغة فلسفية منظومة .

يبقى أبو حاتم الرازى الفيلسوف الإسماعيلى الثالث (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) والمعاصر للفيلسوفين الأولين النسفى والسجستانى . وهو من الأوائل الذين وضعوا الأسس النظرية للعقيدة الإسماعيلية ، وكان معظم نشاطه متمركزاً فى

الرى وأصبهان ، وقد تمكن من استمالة بعض الشخصيات الكبيرة إلى المذهب الإسماعيلى مثل « مرداويج » القائد الذى تمرد واستولى على أصبهان والرى وأعلن ولاءه للمهدى الخليفة الفاطمى فى افريقية .

ولأبى حاتم الرازى مؤلفات شهيرة ، منها « أعلام النبوة » الذى عرض فيه لعقائد الإسماعيلية فى الإلوهية والرسل والنفس والزمان والمكان ، وردّ فيه على سميه أبى بكر بن زكريا الرازى الطبيب (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) فى موضوع النبوة . ويرى بعض المحللين أن إنكار الرازى الطبيب للنبوة هو الموضوع الوحيد الذى كان يفصله عن الفلاسفة الإسماعيليين الذين سبق الإشارة إليهم ، أما فيما عدا هذه المسألة فلقد كان يصدر فى فلسفته الروحانية عن نفس الفلسفة الهرمسية الحرانية التى كانوا يصدرون عنها .

ولقد بلغ من نفوذ الحركة الإسماعيلية فى إيران آنئذ على المستوى الفكرى أنها خرجت من حيز السرية إلى حيز العلانية ؛ ولا أدل على ذلك من الحوار الجدلى الذى دار بين فلاسفتها بشأن بعض المسائل العقائدية ؛ حيث اعترض أبو حاتم الرازى فى كتابه « الإصلاح » على بعض ما جاء فى كتاب النسفى المسمى « المحصول » ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ فقام السجستانى بتأليف كتاب « النصرة » رداً على آراء أبى حاتم الرازى وتأييداً لآراء النسفى .

وهكذا نرى أن الحركة الإسماعيلية فى إيران قد استهدفت فى أول أمرها السيطرة الفكرية وصولاً إلى السيطرة السياسية ، ولكن رغم النجاح الذى كان يحققه دعاتها من آن إلى آخر على المستوى الفكرى ؛ فإن الحركة قد عانت فشلاً ذريعاً فى المجال السياسى ؛ فلقد فشلت محاولات دعاتها الرامية إلى ضم المدن الإيرانية إلى الخلافة الفاطمية بواسطة استمالة القواد والأمراء المحليين عقائدياً . وعندما تسلم البويهيون ـــ وهم من الشيعة المعتدلة ـــ زمام السلطة فى بغداد ، فإنهم فضلوا ممارسة السلطة الفعلية باسم الخليفة العباسى بدل التنازل عنها للخليفة الفاطمى . وإذا كان بعض الأمراء البويهيين قد سمحوا أحياناً للدعاة الإسماعيليين بممارسة نشاطهم علناً فى إيران والعراق ، فإن الأمراء الغزونيين والسلجوقيين المعتنقين للإسلام السنى ، قد اضطهدوا الدعاة



صورة الحسن الصباح كما تخيلها أحد الرسامين

الإسماعيليين اضطهاداً واسع النطاق ، فسجنوا البعض ، ونفوا البعض الآخر ، أما الأكثرية منهم فقد تعرضوا للقتل والتمثيل بجثثهم .

فى ضوء هذه الانتكاسات المتوالية ، وبعد أن استنفدت الدعوة الإسماعيلية فى إيران محتواها ، أصبح من الضرورى البحث عن أسلوب عمل جديد . لقد فشلت سياسة التفتح والعمل من أجل الهيمنة الفكرية ، فلم يبق إذن إلا العمل السرى المنظم . وهذا ما فعله الحسن الصباح مؤسس « الدعوة الإسماعيلية الجديدة » أو « حركة الحشاشين » .

مع الحسن الصباح من الصفر :

يختلف المؤرخون حول تحديد العام الذى وُلد فيه الحسن الصباح ، فقال بعضهم سنة ٤٣٢ هـ ، بينما يؤكد آخرون إن مولده سنة ٤٣٨ هـ ، ويؤكد فريق ثالث على أن مولده سنة ٤٤٥ هـ .

والأرجح أن عام مولده هو ٤٢٨ هـ الموافق ١٠٣٧ م ، وفق ما تشير أوثق المراجع .

وقد وُلد فى مدينة « قم » التى كانت آنذاك ــ ومازالت ــ مركزاً أساسياً للشيعة الاثنى عشرية .

غير أن بعض المظان التاريخية تشير إلى أنه وُلِد فى بلدة « معصوم » من مقاطعة الرى بالقرب من طهران ، وقيل مولده فى « مرو » .

ويرجع أصله إلى ملوك اليمن الحميريين ، وكان أبوه يقطن الكوفة بالعراق ، ثم انتقل إلى « قم » ، حيث مولد الحسن على الأرجح . وكما يشير الحسن فى شذرة من الشذرات التى ترجم فيها لقصة حياته وتطوره الروحى ، فإن أباه كان من الشيعة الاثنى عشرية . ومن هنا يتبين خطأ من ظن أنه كان إسماعيلياً .

وقد سافرت أسرته إلى مدينة « الرى » التى كانت من محاور اهتمام الدعاة الإسماعيليين ، حيث كان لهم نشاط بارز بها .

ومنذ فترة مبكرة من حياة الحسن كان أبوه يهتم بتعليمه عقائد الشيعة الاثنى

عشرية بالإضافة إلى تشجيعه له على الاطلاع على مختلف العلوم فى عصره ؛ لاسيما تلك العلوم ذات الصبغة الفلسفية . وظل على هذا الحال وهذه العقيدة حتى بلغ سن السابعة عشرة . يقول الحسن فى شذرة ذكرها المؤرخ الفارسى علاء الدين الجوينى فى كتابه (جهان كشاى) : « منذ طفولتى ، بل منذ السابعة من عمرى ، كان جل اهتمامى تلقى العلوم والمعارف والتزود بكل ما أستطيعه منها فى سبيل توسيع مداركى ، وكنت كآبائى قد نشأت على المذهب الاثنى عشرى فى التشيع ، ولم أكن أرى فى غيره طريقاً للخلاص من آفات العالم » .

صداقة الحسن فى طفولته لعمر الخيام ونظام الملك : حقيقة أم خرافة ؟

ويشير بعض المؤرخين إلى أن الحسن قد كان زميل دراسة للشاعر عمر الخيام والوزير نظام الملك ، وقد درس ثلاثتهم على الموفق لدين الله النيسابورى فى مدينة نيسابور . وبلغت صداقتهم مبلغاً عظيماً من الترابط والود ، حتى تعاهدوا على أنه إذا حقق أحدهم نجاحاً قبل صديقيه فإن عليه أن يأخذ بيد الآخرين حتى يحققا مثلما حقق من النجاح . ومرت السنون وتمكن نظام الملك من الوصول إلى رتبة وزير الدولة السلجوقية ، ومن ثمَّ فقد طالبه زميلاه بالوفاء بما سبق أن تعاهدوا عليه إبان طلبهم للعلم ، وبالفعل وفَّى نظام الملك ، فعرض على كل منهما أن يتولى إحدى الإمارات ، ولكن كلاهما رفض لسبب مختلف عن الآخر ، أما عمر الخيام فكان يريد الحصول على راتب سنوى يمكنه من حياة الفكر والتأمل والتمتع بعيداً عن مسؤوليات الحكم وهمومه ، وأما الحسن فكان يتطلع إلى منصب فى بلاط الملك ، حتى يستطيع أن يثبت جدارته للملك فيكون قاب قوسين أو أدنى من الوزارة .

وعند إخضاع هذه القصة للتحليل التاريخى نجد دلائل كثيرة على بطلانها ، فمن الممتنع أن يكون الحسن صديق دراسة لنظام الملك حيث أن مولد الحسن على الأرجح سنة ٤٢٨ هـ بينما مولد نظام الملك سنة ٤٠٨ هـ ففرق العشرين سنة بينهما يجعل من غير المحتمل أن يكون أحدهما زميل دراسة للآخر . فضلاً

عن أن المصادر التاريخية الأكثر حجة تنص على ان الحسن قد تلقى تعليمه بمدينة « الرى » لا مدينة « نيسابور » . وبالنسبة لعمر الخيام فإن تاريخ مولده مجهول مما يجعل من الصعب أن نصدر حكماً إيجاباً أو سلباً بشأن زمالته للحسن إبان طلب العلم ، غير أنه ليس من الممتنع أن يكون ذلك حدث ؛ لأن وفاة عمر سنة ٥١٥ هـ ، ووفاة الحسن سنة ٥١٨ هـ ؛ مما يدل على أن عمرهما متقارب ، وبالتالى لا يمتنع أن يكون الاثنان زميلا دراسة ، لاسيما وأن مشربهما العلمى واحد ، فكلاهما درس الرياضيات والفلك وعلوم الدين والفلسفة .

بداية التحول :

مهما يكن من أمر ، فإن الحسن ظل على مذهب الشيعة الاثنى عشرية حتى بلغ سن السابعة عشرة ، وفى تلك الأثناء تعرف على أحد دعاة الإسماعيلية الفاطمية ، ودار بينهما جدلاً متواصلاً محاولاً كل منهما أن يقنع الآخر بصحة مذهبه . وكان هذا التقليد الجدلى منتشراً فى أرجاء فارس ، حيث كانت مرتعاً خصباً لمختلف التيارات الدينية والعقائدية ، وكان أنشط تلك التيارات : تيار الدعوة الإسماعيلية .

وكان الحسن حتى هذه اللحظة ـــ كما سبق القول ـــ يؤمن بالله والإسلام كما يفهمه الاثنى عشرية بوجه خاص ، وكان تصوره عن الإسماعيلية أنها من قبيل المذاهب الفلسفية . ولكن لقاءه مع الداعية الإسماعيلى الكبير كان له أبلغ الأثر فى تطوره الروحى ، حيث جعله على مفترق طرق محورى فى حياته ، ثم وجهه وجهة نظرية وعملية لم تكن تخطر بباله يوماً من الأيام .

يروى الحسن فى شذرة متبقية تفاصيل ذلك المنعطف الجوهرى فى أيديولوجيته فيقول ماتعريبه :

« حدث أن تعرفت فى شبابى إلى أحد دعاة الإسماعيلية الفاطميين ، فكنت أجادله جدالاً عنيفاً ، وأخذ كل واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية .. ولم يكن لدى أى شك أو زعزعة فى إيمانى بالإسلام ، وفى

اعتقادى بوجود إله حى ، باق ، قدير ، سميع ، بصير ، وفى وجود نبى وإمام ، وفى وجود مباحات ومحظورات ، وجنة ونار ، وأوامر ونواهى ، وكنت أفترض أن الدين والشريعة هما ما يؤمن به الناس بوجه عام والشيعة بوجه خاص ، ولم يدر بخلدى أن الحقيقة يمكن البحث عنها خارج الإسلام ، وكنت أعتقد أن آراء الإسماعيلية من قبيل الفلسفة وأن حاكم مصر فيلسوف . وكان عميرة زاراب [يقصد الداعى الإسماعيلى] ذا شخصية قوية ، وعندما ناقشنى لأول مرة قال :

إن الإسماعيلية يقولون كذا وكذا .

فقلت له : لا ، يا صديقى لا تردد كلماتهم لأنهم كفرة وما يقولونه ضد الدين .

وكانت هناك خصومات ومناقشات بيننا تمكن خلالها من تدمير عقيدتى وإثبات بطلانها . ولم أشأ أن أعترف له بذلك ، ولكن فى أعماق كانت لكلماته أكبر الأثر ..

وكان عميرة يقول لى : عندما تخلو إلى التأمل فى سريرك أثناء الليل سوف تعرف أن ما أقوله لك مقنع .

ثم افترقت عن الداعى قبل أن أعتنق مذهبه ، وبعد قليل أصابنى مرض ألزمنى الفراش ، فخشيت أن تختطفنى يد المنون قبل أن أتطهر باعتناق المذهب الإسماعيلى ، إذ اعتزمت اعتناقه بعد مناقشاتى مع الداعى » .

اعتناق الحسن لعقيدة الشيعة الإسماعيلية :

ولما قام الحسن من مرضه قرر البحث عن داع من دعاة الإسماعيلية ، فتعرف إلى أبى نجم السراج ، وطلب منه أن يقدم له المزيد من المعلومات عن عقائد الإسماعيلية ، وبالفعل حدثه الداعى عما أراد ، ثم أخذ الحسن يتأمل تلك العقائد ويقارنها بسائر العقائد والايديولوجيات الأخرى ؛ مما تمخض عن اعتناقه الفعلى للمذهب الإسماعيلى .

يقول الحسن : « ولما عوفيت ، وتعرفت إلى أبى نجم السراج ، رغبت إليه

أن يزيدنى حديثاً عن مذهبه ، وأخذت أفكر تفكيراً عميقاً فى تعاليم هذا المذهب » .

مع نظام الملك فى بلاط السلاجقة :

وعندما وصل الحسن سن الشباب ونضجت قدراته العلمية ، التحق بالعمل فى بلاط السلاجقة كموظف ومستشار إدارى عند السلطان ملكشاه ، فقد كان الرجل ذا علم بالحساب والهندسة ومطلعاً على مختلف علوم عصره النظرية والعملية . وقد استطاع الحسن بقدراته الفريدة ومثابرته فى العمل أن يلفت نظر ملكشاه . ويبدو أنه كانت تظهر عليه سمات المنافسة للوزير الشهير نظام الملك ؛ مما أوغر صدر الوزير عليه ، لاسيما وأن نظام الملك كان سنياً فى حين أن الحسن الصباح كان شيعياً . ومن هنا بدأ الصدام بين نظام الملك وابن الصباح الذى استمر بعد ذلك أمداً طويلاً وكانت له عواقب بالغة الأثر . وقد قال بعض مؤرخى الشيعة أن الوزير تآمر على الحسن وأخرجه من العمل فى بلاط السلاجقة ، ويروون فى هذا الصدد أن ملكشاه رغب فى عمل سجل متكامل لكل ما يتعلق بأمور الدولة المالية ، وعندما طلب ذلك من وزيره نظام الملك ، قال له الوزير بأن ذلك يتطلب حوالى سنتين ، فاعتبر ملكشاه هذا الوقت أكثر مما ينبغى ، ولذا فقد استدعى ابن الصباح وعرض عليه رغبته ، فأجابه إليها وقال له أن هذا العمل يكفيه أربعين يوماً حتى يتم ، فتعجب الملك من الفرق الشاسع بين المدتين ، وظن أن الحسن يبالغ فى الأمر ، ولكن الحسن أكد له أنه قادر على إنهائه فى هذه المدة . فعهد الملك إليه بالمهمة وكلف موظفى ديوانه أن يقدموا للحسن كل ما يحتاج إليه من معلومات . وبالفعل شرع فى تنفيذ المهمة المنوطة به ؛ مما جعل الدوائر تدور برأس نظام الملك ، خشية أن يستطيع الحسن النجاح فى مهمته ؛ فتظهر كفاءة الحسن ، وتتزعزع ثقة ملكشاه فى قدرة الوزير . وبناء عليه فإن الوزير شرع فى التآمر على الحسن بغية أن يجهض محاولته ، فكلف غلاماً من غلمانه أن يتقرب من غلام الحسن ويصادقه حتى يثق فيه الثقة اللازمة ، وعندما ينجح فى ذلك يخبر الوزير . فاستطاع الغلام أن يكسب ثقة غلام الحسن وأصبح ملازماً له معظم الوقت ، حتى علم أن الحسن

على وشك الانتهاء من عمل السجل المالى للدولة ، فأخبر الغلام نظام الملك . وعندما جاء وقت تقديم السجل لملكشاه ، أمر الوزير غلامه أن يعبث بمحتويات السجل فى غفلة من الحسن وغلامه . وتمكن الغلام من تنفيذ ما طُلب منه. ولما انتهت المدة المقررة طلب الملك من الحسن أن يأتى إليه بالسجل، فأتى إليه به ولم يكن يعلم ما آلت إليه محتوياته . وعندما اطلع الملك عليه وجد مالم يكن يخطر بباله ، فقد ضاع نظام السجل واختلطت محتوياته بشكل يصعب معه تمييز الأمور . فاستاء الملك استياء بالغاً وخاب رجاؤه ، وهنا انتهز الفرصة الوزير نظام الملك ، فوبخ الحسن توبيخاً شديداً ، وانتقده انتقاداً لاذعاً أمام ملكشاه ؛ مما جعل الأخير يتخذ منه موقفاً حاداً ؛ ولكنه استطاع الهرب .

فهذه رواية يذكرها بعض مؤرخى الشيعة مفسرين بها أسباب الصدام بين نظام الملك والحسن بن الصباح ، ويعللون بها دوافع هروب الحسن . ولكن ابن الأثير يذكر فى « الكامل » ما يفيد أنه لم يكن يوجد مثل هذا الصدام فى تلك الفترة بين نظام الملك والحسن ، بل كان نظام الملك يكرم الحسن . ويعلل ابن الأثير هروب الحسن بأنه جاء نتيجة انزعاج رئيس الرى « أبى مسلم » من نشاط الحسن ، حيث حاول أبو مسلم معاقبته ففر منه ، يقول ابن الأثير : « كان الحسن بن الصباح رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك ، وكان رئيس الرى إنسان يقال له أبو مسلم ، وهو صهر نظام الملك ، فاتهم الحسن بن الصباح بدخول جماعة من دعاة المصريين عليه ، فخافه ابن الصباح ، وكان نظام الملك يكرمه ، وقال له يوماً من طريق الفراسة : عن قريب يضل هذا الرجل ضعفاء العوام ! فلما هرب الحسن من أبى مسلم طلبه فلم يدركه ... »[الكامل ٨ : ٢٠١] .

ومعظم المؤرخين يؤيدون ابن الأثير فى هذا التعليل ، حيث يرجحون أن سبب خروج الحسن وفراره من الرى هو نشاطه الذى كان يمارسه فى الدعوة وإيوائه لمجموعة من الدعاة الفاطميين المصريين .

خروج الحسن إلى مصر :

وتقدم لنا الشذرات المتبقية من قصة حياته التى كتبها بنفسه تفسيراً يفيد أن

بسبب خروجه إلى مصر هو تنفيذ التوجيه الذى وجهه إليه الداعى الكبير « عبد الملك بن غطاش » : بضرورة الوفود على القاهرة . وكما هو واضح فإن هذا التفسير لا ينفى أن السبب الرئيسى لخروج الحسن من الرى هو تضييق السلطات عليه نظراً لنشاطه الملموس فى الدعوة إلى الإسماعيلية . وعندما رأى الداعى المحنك ذلك نصح تلميذه ــ خوفا عليه من بطش السلطات ــ بالتوجه إلى مصر حتى يحضر دروس العلوم الباطنية التى كان يلقيها أكبر الدعاة فى مصر ، ويقابل الإمام المستنصر معلناً له ولاءه بشكل مباشر .

يقول الحسن فى إحدى الشذرات : « .... ثم قدر لى أن أتعرف بالداعى مؤمن ، وكان موفداً إلى مدينة الرى من قِبَل عبد الملك بن عطاش داعى الدعاة فى العراقين (أى فى العراق العجمى والعراق العربى) ، فتوسلت إليه أن يقبل منى البيعة للخليفة الفاطمى بمصر ، وأن يأخذ علىَّ العهود والمواثيق ، فتردد الداعى ، ثم أجابنى إلى طلبى . وبذلك دخلت الدعوة الإسماعيلية وصرت واحداً من أتباع الإمام الفاطمى بمصر . ولما وفد عبد الملك بن عطاش داعى الدعاة إلى الرى مثلت بين يديه ، ولما وقف على آرائى واختبر استعدادى عهد إلىّ ببث الدعوة ، وبذلك أصبحت داعياً إسماعيلياً . ثم وجهنى بقوله : (عليك بالوفود على القاهرة لتنعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر) . ولما غادر عبد الملك بن عطاش الرى فى طريقه إلى أصبهان ، كنت أنا أيضاً فى طريقى إلى القاهرة » .

وبعد أن خرج الحسن من الرى سنة (٤٦٧ هـ=١٠٧٦م) توجه إلى أصفهان حيث قضى بها فترة يدعو إلى المذهب الإسماعيلى الفاطمى ، ثم توجه إلى أذربيجان ، ومنها إلى ميافارقين التى طرده منها قاضيها السُنى لأنه ينفى سلطة علماء أهل السُّنَّة والجماعة فى تفسير نصوص الإسلام ، ويقول بأن صاحب السلطة الوحيد فى التفسير هو الإمام الشيعى . فتوجه الحسن إثر ذلك إلى الموصل ، ثم إلى سنجار ، ثم الرجبة ، فدمشق ، فصيدا ، فصور ، فعكا .. ونظراً لأن الطريق البرى كان حينئذ غير مأمون لما فيه من مناوشات حربيه ، فإنه سلك طريق البحر من عكا حتى شاطئ مصر ، ثم توجه إلى القاهرة

فوصلها فى سنة (٤٧١ هـ=١٠٧٨م) وعلى وجه التحديد كان يوم وصوله ٣٠ أغسطس ، وكان فى استقباله أبو داؤود داعى الدعاة وجمع من كبار رجال الدولة ، ثم استقبله بحفاوة الإمام المستنصر فى قصره ، وتحدثا فى شئون الدعوة وكيفية إقامتها ببلاد العجم ، وقال الحسن للمستنصر : من إمامى بعدك ؟ فقال : ابنى نزار . وقد أكرمه المستنصر ، وأعطاه مالاً ، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته .

وقبل قدوم الحسن إلى مصر كان يتطلع أشد التطلع لأخذ العلوم الباطنية عن هبة الله الشيرازى[1] حجة الإمام وداعى الدعاة ، وعندما وصل الحسن مصر كان هبة الله قد مات ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين التلمذة عليه بشكل غير مباشر ، عن طريق الاطلاع على مصنفاته التى خلفها ، والنقاش المتواصل مع تلاميذه ، وقد أظهر الحسن أثناء تلك المناقشات علماً واسعاً بالمذهب ، فلفت الأنظار إليه .

الصدام مع بدر الجمالى :

وكان شيئاً محتملاً جداً أن يحدث صدام بين الحسن الايديولوجى الثورى وبين بدر الجمالى[2] القابض على شئون الحكم والمدبر لأمور الدولة . وكما سبق

---

(١) هبة الله بن موسى الشيرازى ، المؤيد فى الدين : (...ــ ٤٧٠ هـ=...ــ ١٠٧٨م) صار إليه أمر لدعوة الفاطمية سنة (٤٥٠ هـ) ولقب بداعى الدعاة وباب الأبواب . ثم نحى وأبعد إلى الشام . وعاد إلى مصر فتوفى بها عن نحو ثمانين عاماً . وله تصانيف منها «المجالس المؤيدية» و «المرشد إلى أدب الإسماعيلية» . الأعلام ٨ : ٧٥ــ٧٦ ، و Brock S.I: 326 .

(٢) بدر بن عبد الله الجمالى ، أبو النجم : (٤٠٥ــ٤٨٧ هـ=١٠١٤ــ١٠٩٤م) أمير الجيوش المصرية ، ووالد الملك الأفضل شاهنشاه . أصله من أرمينية اشتراه جمال الدولة بن عمار غلاماً ، فتربى عنده ، ونسب إليه ، وتقدم فى الخدمة حتى ولى إمارة دمشق للمستنصر صاحب مصر (سنة ٤٥٥ هـ) ثم استدعاه إلى مصر واستعان به على إطفاء فتنة نشبت ، فوطد له أركان الدولة ، فقلده «وزارة السيف والقلم» ، وأصبح الحاكم فى دولة المستنصر والمرجوع إليه . وكان حازماً شديداً على المتمردين ، وافر الحرمة . توفى بالقاهرة . الأعلام ٢ : ٤٥ ، وابن الأثير ١٠ : ٨١ ، والنجوم الزاهرة ٥ : ١٤١ وماقبلها ، وفى شذرات الذهب وفاته سنة ٤٨٨ هـ ، وجعله «العظيمى» فيمن توفوا سنة ٤٧٧ هـ خطأ . وانظر رفع الإصر ١ : ١٣٠ــ١٣٧ وفيه : «كان له ولد كبير ، فعصى عليه واستولى على الإسكندرية ، فحاصره حتى أخذه ، فلما قبض عليه قتله بيده» .

أن أشرنا فإن الحسن سأل المستنصر : من إمامى بعدك ؟ فقال : ابنى نزار .. فكان الحسن لذلك من مؤيدى نزار .. فى حين أن بدر الجمالى كان مناهضاً له ومؤيداً لأخيه الأصغر أحمد المستعلى كخليفة للمستنصر . وكان سبب مناهضة الجمالى لنزار : أنه ركب مرة فرسه أيام المستنصر ، ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً ، ونزار خارج ، والمجاز مظلم ، فلم يره الجمالى ، فصاح نزار : أنزل يا أرمنى كلب عن الفرس ، ما أقل أدبك ! فحقدها عليه الجمالى . ومن هنا توترت العلاقة بينهما ، وخشى الجمالى أن يعزله نزار عندما يتولى الحكم ، فكان يحبذ ولاية المستعلى بدلاً من نزار ، فى حين كان الحسن ابن الصباح يحبذ ولاية نزار ؛ فكان هذا هو السبب المباشر فى عدم الوفاق بين الحسن والجمالى ، فضلاً عن أن الأخير كان يضيق ذرعاً بما يظهره المستنصر من احترام وتقدير للحسن . وقد ذكر هذا أكثر من مؤرخ ، منهم التنوخى فى كتابه : (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) ، حيث قال : « .. حدث فى ذلك الوقت تعيين ولى العهد فى مصر ، فاختار المستنصر ابنه نزار ، وكان بدر الجمالى يحبذ تعيين المستعلى ، وناصر الحسن بن الصباح التعيين الأول ، فغضب بدر الجمالى ، ولم يرض بما كان يبديه المستنصر للحسن من احترام ، فعمل على سجنه ، ثم طرده من مصر » .

وكانت الفترة التى قضاها الحسن فى مصر ثلاث سنوات تقريباً ، ولكن بعض المؤرخين يذكر أن مدة بقائه بمصر حوالى ثمانية عشر شهراً .

طرد الحسن من مصر وعودته إلى إيران :

وقد أمر الجمالى بنفيه من مصر إلى المغرب العربى عن طريق البحر ، وقد تعرضت السفينة التى كان يركبها إلى الخطر أثناء إبحارها ، حتى كادت تغرق أكثر من مرة ؛ وفى الوقت الذى كان يظهر معظم الركاب انزعاجاً وخوفاً شديدين لما يحدث للسفينة فإن الحسن أظهر قوة وجلداً وتماسكاً عجيبين ؛ وقد ساقت الرياح والأمواج السفينة إلى عكا ، ومنها اتجه إلى حلب ، ثم بغداد ، وبطبيعة الحال كان يمارس نشاطه فى الدعوة إلى الإسماعيلية الفاطمية أثناء تنقلاته من مدينة إلى أخرى بشكل سرى ، وقد حقق بعض النجاح فى

هذا الصدد. وواصل رحلته إلى بلاد فارس، فبلغ أصفهان فى سنة (٤٧٣ هـ = ١٠٨١ م) فى العاشر من يونيو. وبعد أن مكث بأصفهان بعض الوقت سافر إلى كرمان ويزد، يقول الحسن فى شذرة: «ومن تلك المنطقة — من أصفهان — سافرت إلى كرمان ويزد، ومكثت فيها أدعو فترة من الزمن». وبعد ذلك رجع الحسن مرة أخرى إلى أصفهان، ثم إلى خوزستان فى الجنوب.

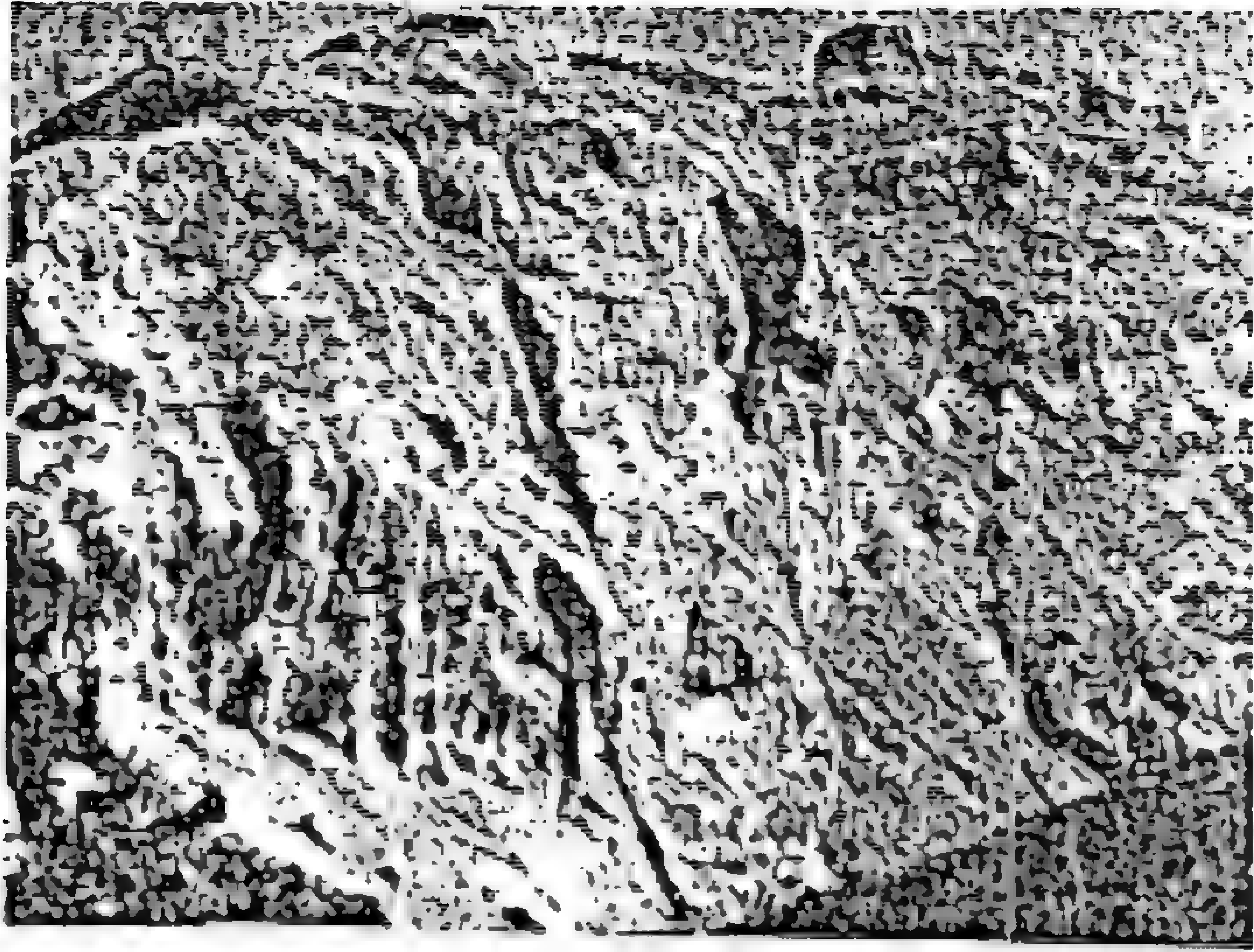
أول عمليات الاغتيال :

وقد ظل الحسن حوالى تسع سنوات متواصلة بعد رحيله من مصر يمارس الدعوة، ويكتسب أنصاراً جدداً، وينتقل من مكان إلى مكان، طبعاً بشكل سرى جداً وأسلوب حذر إلى أبعد الحدود، وكان هو وأنصاره لديهم الاستعداد لفعل أى شيء فى سبيل تأمين أنفسهم، وكانت أول عمليات الاغتيال التى قاموا بها، قتل مؤذن من أهل ساوة كان مقيماً بأصفهان؛ ذلك أنهم دعوه إلى مذهبهم، فلم يستجب لهم، فخشوا أن يكشف أمرهم، فقتلوه. فلما بلغ خبره إلى نظام الملك الوزير السلجوقى أصدر أوامره بالقبض على من تدل القرائن على أنه هو القاتل، فحامت الشبهات حول نجار اسمه «طاهر»، فحُكم عليه بالإعدام، ومثلوا به وجروه من رجله سائرين به فى الأسواق.

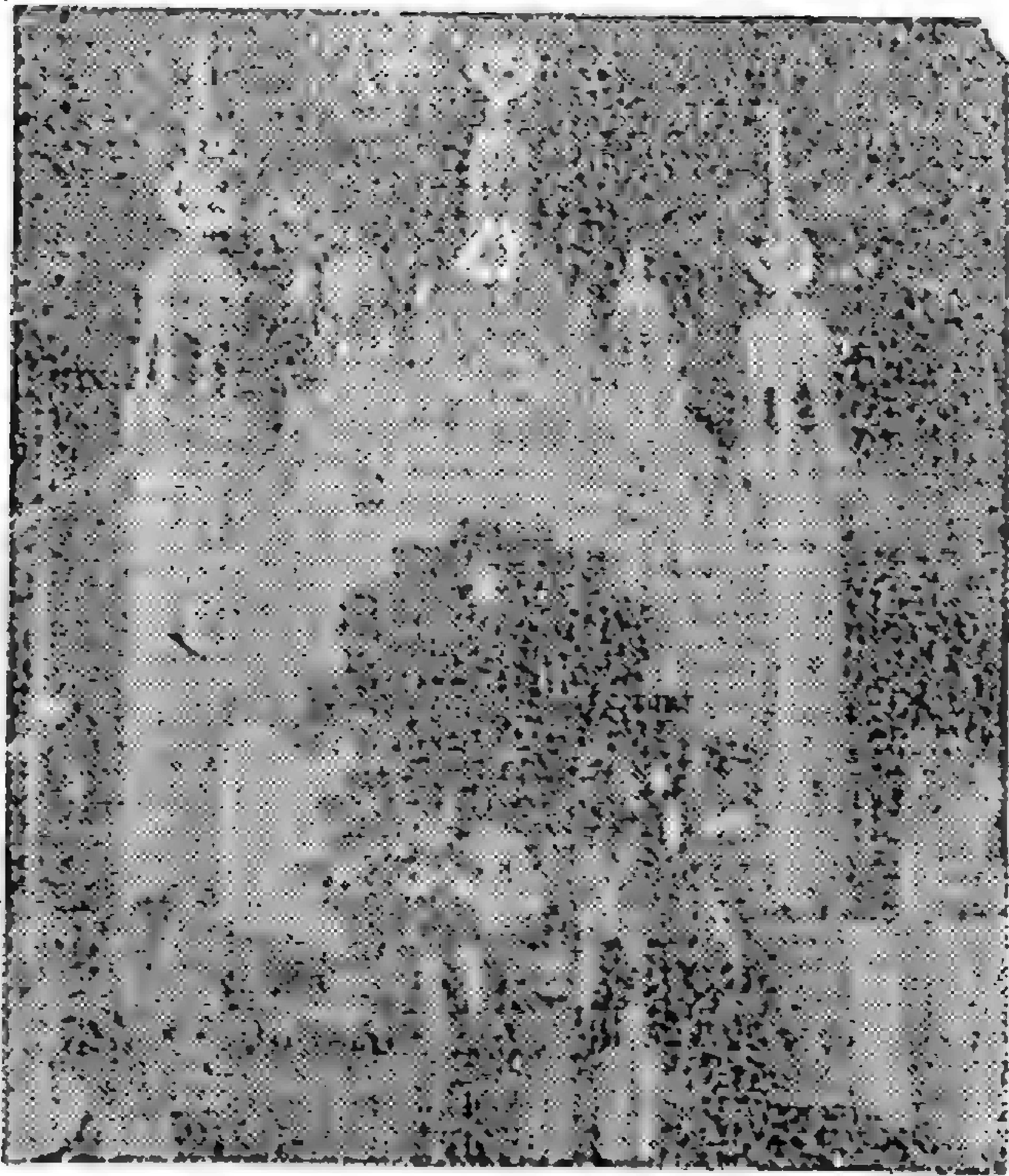
أعين الحسن تتوجه نحو الشمال :

وكان شيئاً منطقياً بعد ذلك أن تتنبه السلطات السلجوقية إلى خطرهم، وتوقن أنهم ليسوا مجرد جماعة عقائدية فقط، وإنما لهم توجهات توسيعة ذات خطر على استقرار وأمن السلطة. وبناء عليه صدرت الأوامر بتعقبهم؛ مما دفع الحسن بن الصباح للتفكير الجدى فى ضرورة الحصول على حصن منيع يحميه هو وأتباعه، ويعطى لهم الفرصة فى نشر الدعوة. وهنا اتجهت أعين الحسن نحو الشمال، حيث هضبة الديلم، ويرجع اختياره لهذه المنطقة إلى سببين، هما:

أولاً : أن سكان تلك المنطقة التى يغلب عليها الطابع الجبلى، كانوا يميلون إلى التشيع؛ بل أكثرهم شيعة. ولذا فإنهم أكثر استعداداً من غيرهم لاعتناق



صخرة الموت



قلعة الموت

المذهب الإسماعيلى . وفضلاً عن ذلك فهم ذو بأس شديد ، ولديهم نفرة من السلطات السُّنّية التى كانت فى صدام مستمر معهم .

ثانياً : طبيعة تلك المنطقة الجغرافية تختلف تماماً عن سائر المناطق الفارسية ، فهى تقع فى الناحية الشمالية من الجبال المحيطة بهضبة فارس الرئيسية . وتشتمل تلك المنطقة على هضاب وعرة وطرق عسيرة المسالك ؛ ويوجد بها كثير من القلاع والحصون التى يصعب على الأعداء والمهاجمين اقتحامها .

لهذين السببين عقد الحسن بن الصباح العزم على التوجه نحو الشمال : نحو مازندران ، والديلم ، وجيلان ، وقزوين . فخرج من خوزستان الجنوبية متجهاً إل مازندران عبر الصحارى والجبال متلاشياً المدن وأماكن تجمع السكان خشية أن يقبض عليه ، وبعد ذلك سافر إلى دمغان التى مكث بها ما يقرب من ثلاث سنوات واتخذها كمركز للدعوة ، حيث كان يبعث رجاله المدربين إلى الجبال لمحاولة جذب سكانها . وعندما ضيق نظام الملك الخناق عليه ذهب ناحية الغرب إلى قزوين التى كانت قريبة من هضبة الديلم التى تمثل بدورها — كما قلنا — الهدف الأساسى الذى كان يتطلع إلى السيطرة عليه .

الاستيلاء على قلعة ألموت :

بعد دراسة متأنية للمنطقة وحصونها وقلاعها ووديانها وجبالها ، قرر الحسن ضرورة الحصول على قلعة « ألموت » التى تعتبر أحصن القلاع فى المنطقة وأقدرها على تحقيق الحماية لحسن وأتباعه . ويروى المؤرخون أن الذى بناها ملك من ملوك الديلم ، إذ كان مغرماً بالصيد ، فأرسل ذات يوم عقاباً ، وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة ، فوجده موضعاً استراتيجياً حصيناً ، فأمر ببناء قلعة عليه ، سماها « أله موت » ومعناه باللغة الديلمية « تعليم العقاب » ، وتسمى هذه المنطقة وما يجاورها « طالقان » ، وفيها عدة قلاع حصينة أخرى ، غير أن أشهرها « ألموت » ، وكانت تلك النواحى تحت رعاية وضمان « شرفشاه الجعفرى » ، وقد استناب فيها رجلاً علوياً حسن النية ويتميز بسلامة الصدر .

وكان الأسلوب الذى اتبعه الحسن فى الاستيلاء على القلعة هو بث رجاله فى المنطقة المحيطة بالقلعة ، بل فى داخل القلعة ذاتها ، واستطاع هو ورجاله جذب مزيد من الأنصار ، بل استطاعوا التأثير على صاحب القلعة نفسه . يؤكد ذلك ما يرويه الحسن فى إحدى الشذرات قائلاً : « وقد أرسلت من قزوين مرة أخرى الدعاة إلى قلعة ألموت ، واستطاع الدعاة ضم بعض رجال القلعة إلى العقيدة الإسماعيلية ، وقد حاول أولئك تحويل صاحب القلعة العلوى إلى الإسماعيلية ، الذى تظاهر بالانضمام إليهم . ولكنه عمل على إخراج جميع المنضمين إل خارج القلعة ، ثم أغلق أبوابها ، ورفض دخولهم قائلاً أنها ملك السلطان ، ولكنهم استطاعوا التأثير عليه بعد مناقشات طويلة ، فسمح لهم بالدخول » .

وعندما قدم الحسن بن الصباح إلى المنطقة تمكن من استمالة أهلها إليه بقدرته الكبيرة على الإقناع وإظهاره الزهد والتقوى ، حتى أن العلوى صاحب القلعة أعجب به وأحسن الظن فيه ، لدرجة أنه كان يجلس إليه يتبرك به . ولما أحكم الحسن أمره دخل يوماً على العلوى بالقلعة ، فقال له ابن الصباح : أخرج من هذه القلعة . فتبسم العلوى وظنه يمزح ، فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج العلوى ، فأخرجوه إلى دمغان ، بعد أن أعطاه ثمن القلعة وسمح له بأخذ متعلقاته منها .

وقد كان الاستيلاء على هذا الحصن أول عمل تاريخى فى حياة هذا الحزب الجديد .

الوضع الطبوغرافى لقلعة ألموت :

هنا نجد من الضرورى أن نوقف القارىء على الوضع الجغرافى والطبوغرافى لقلعة ألموت ؛ لأن معرفة ذلك سيساعدنا بلا شك على التحقق من بطلان أوصحة ما يقوله بعض المؤرخين عن الحدائق الغنَّاء التى تحيط بالعرائش الرشيقة والقصور المنيفة التى يزعمون أن الحسن بن الصباح قد بناها للتأثير على رجاله والتحكم فيهم .

تقع قلعة ألموت على صخرة مرتفعة من صخور سلسلة جبال البرز التى ترتفع ١٠٢٠٠ قدم عن سطح البحر فى أقصر وأوعر طريق بين شواطىء بحر قزوين ومرتفعات فارس . ومناخ هذه المنطقة شديد البرودة ويتساقط عليه الجليد أكثر من ستة أشهر فى السنة .

تفنيد خرافة ماركو بولو :

بهذا يتضح لنا بشكل حاسم بطلان ما يزعمه بعض المؤرخين الذين وصفوا هذه القلعة كفردوس أرضية فى عبارات خلابة ؛ إذ كيف يُعقل أن توجد مثل تلك الفردوس المزعومة فى إقليم وعر شديد البرودة أكثر من نصف العام ، لدرجة أن مؤرخين آخرين يذكرون أن السكان كان يعزلون الحيوانات فى مناطق جنوبية خوفاً عليها من البرد الشديد الذى لا يمكن أن تتحمله . مما يدل دلالة قاطعة على عدم صحة الوصف الذى ذكره « ماركو بولو » الرحالة الشهير ، والذى تبعه فيه كثير من المؤرخين دون تحقق أو تثبت . فلقد جاء فى نص صريح من عصر متأخر منقول عن نص أصلى كتبه « ماركو بولو » وصف فيه ــ كاذباً ــ قلعة ألموت وأسلوب الحياة فيها ، وكان ماركو قد مر فى هذه الناحية فى سنة ١٢٧١ أو ١٢٧٢م ، يقول فى وصفه :

« إن شيخ الجبل ــ الذين يطلقون عليه فى لغتهم (علاء الدين) قد عزل وادى بين جبلين ثم حوله إلى حديقة غناء ، وهذه الحديقة أجمل وأكبر ما يمكن أن تراه العين من حدائق ، وقد زرع فيها كل ألوان الفواكه ، وبنى فيها أبدع ما يمكن تخيله من مقصورات وقصور مرسوم عليها بالذهب رسوماً رائعة ، وتوجد بها أنهار من خمر ولبن وعسل مصفى ، فضلاً عن أنهار الماء ، وقد جعل شيخ الجبل نساء فاتنات يقمن بخدمة مَنْ بالحديقة والتسرية عنهم؛ حيث يتقن العزف الموسيقى ، ويغنين بأصوات رائعة ، ويرقصن رقصات تذهب العقول ؛ فقد كان يريد شيخ الجبل من وراء ذلك أن يقنع أنصاره بأن هذه هى الفردوس الحقيقية ، حيث حاول تصميمها وفقاً للوصف الذى ذكره محمد للفردوس بوصفها حديقة جميلة تجرى فيها أنهار من خمر ولبن وعسل وماء ومكتظة بالحور العين . وبالتأكيد فإن المسلمين فى تلك النواحى يظنون أنها

الفردوس الحقيقية . والآن ، فإنه لا يسمح لأى إنسان أن يدخل الحديقة إلا أولئك الذين قصد بهم أن يكونوا من (الحشاشين) . وكان على مدخل الحديقة حصن من القوة بحيث لا يمكن أن يقتحمه إنسان فى الدنيا . ولم يكن هناك سبيل إلى الدخول إلى القصر إلا من طريق هذا الحصن . وكان لدى داعى الدعاة فى بلاطه عدد من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ممن كان لهم ميل إلى العسكرية ، وقد اعتاد أن يروى لهم روايات عن الجنة مثلما كان يفعل محمد ، ويعتقد هؤلاء الشبان فيه مثلما كان يعتقد المسلمون فى النبى . وكان يدخلهم إلى حديقته على مرات فى كل مرة أربعة أو ستة أو عشرة ، بعد أن يأمر بتجريعهم نوعاً من الشراب يقعون بعده فى نوم عميق ، ثم يرفعون بعد ذلك وينقلون إلى الداخل ، فإذا استيقظوا وجدوا أنفسهم فى الجنة . وعلى ذلك فإنهم كانوا إذا استيقظوا وجدوا أنفسهم فى مكان مملوء بالبهجة والملذات حتى ليخيل إليهم أنهم فى الفردوس حقاً . وكانت النساء والكواعب يدللنهم ويرضين شهوات قلوبهم ، ولذا فإنهم كانوا يتمنون أن لا يتركوا هذا المكان بأى حال من الأحوال . والآن ، فإن هذا الأمير الذى يسمونه « الشيخ » كان قد أعد لنفسه بلاطاً بالغ الروعة والجمال ، وقد استطاع أن يجعل أهل الجبال البسطاء يؤمنون إيماناً قوياً بأنه نبى عظيم ، وإذا أراد أن يكلف أحد أولئك الحشاشين بمهمة ، فإنه يأمر بإعطائه المخدر الذى سبق الحديث عنه ، ثم يحملوه إلى القصر ، حتى إذا أفاق فإنه يجد نفسه فى القلعة وليس فى الفردوس ، ثم يحضرونه إلى مقام « شيخ الجبل » فينحنى أمامه فى احترام شديد معتقداً أنه فى حضرة رسول حقيقى . ثم يسأله الأمير من أين جاء ، فيرد عليه الشاب مجيباً أنه أتى من الفردوس ، التى هى مثل الفردوس التى وصفها محمد فى القرآن . وعندما يسمع ذلك الحاضرون الذين لم يؤذن لهم بعد فى الدخول ، فإنهم يرغبون رغبة شديدة فى دخولها . فإذا ما أراد شيخ الجبل أن يقتل أى أمير فإنه يقول لأحد الشبان : اذهب واقتل الأمير الفلانى . فإذا ما عدت فإن ملائكتى سينقلونك إلى الفردوس ، وإذا مت فلا تكترث فإنى سأرسل ملائكتى ليعودوا بك إلى الفردوس . وقد كانوا يؤمنون بما يقول ، ولذلك فإنهم كانوا ينفذون جميع أوامره مهما كانت مهلكة أو مليئة

بالمخاطر ، حتى يمكنهم الرجوع إلى الفردوس . وبهذا الأسلوب استطاع الشيخ أن يبث الفزع فى نفوس الأمراء ، وأجبرهم على دفع الجزية له حتى يمكنهم الحياة فى سلام ووئام » . (The Book of Ser Marco Polo, the Venetian, Tr, Henery Yule, 2nd ed. Vol. I. P. 146-9, London, 1875).

هكذا يحدثنا ماركو بولو عن قلعة « ألموت » ، فهل يتسق هذا الحديث أدنى اتساق مع الطبيعة الطبوغرافية للقلعة ؟

فى الحقيقة إن أبسط تحليل لوصف ماركو بولو فى ضوء الطبيعة الطبوغرافية لقلعة ألموت يوقفنا منذ الوهلة الأولى على أن حديثه أدخل فى الأساطير منه فى الواقع الفعلى ، فهو لا يعدو أن يكون حديث خرافة .

ملكشاه يفاوض الحسن الصباح :

مهما يكن من أمر ، فإن خبر استيلاء الحسن بن الصباح وأتباعه على قلعة « ألموت » عندما وصل إلى مسمع السلطان السلجوقى ملكشاه ووزيره ذائع الصيت نظام الملك ، فإنهما أدركا مدى الخطورة التى سيتعرض لها النظام السلجوقى من جراء ذلك ؛ إذ أن تلك القلعة بلا شك تتمتع بقيمة استراتيجية تؤهل من يستولى عليها لأن يكون ذراعاً قوياً طويلاً فى قلب الدولة السلجوقية .

فقرر ملكشاه أولاً أن يجرى مفاوضات سلمية مع الحسن حتى يتخلى عن القلعة ، فإن لم يجد هذا الأسلوب ، فإنها الحرب بلا هوادة .

فبعث رسالة إلى الحسن فى نفس العام الذى استولى فيه على القلعة سنة (٤٨٣ هـ=١٠٩٠م) نصها :

« أنت ياحسن بن الصباح قد أظهرت ديناً جديداً ، تخدع به الناس ، وتغريهم على الخروج على والى الزمان ، وجمعت نفراً من جُهال الجبال تكلمهم على مقتضى طبعهم ، فيذهبون ويغتالون الأبرياء ، وتطعن فى الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام ، وقوام الملك والملة ، وبهم يوثق نظام الدين والدولة ، فهلا خرجت عن هذه الضلالة وتركت هذه الغواية ، وانضويت

تحت راية الإسلام . إن جيوشى متوقفة على مجيئك ، أو مجىء جوابك . وعليك أن ترحم نفسك ونفوس أتباعك ، ولا تلق نفسك ونفوسهم إلى التهلكة ، ولا يغرنك منعة قلاعك ، وعليك أن تعلم أنه لو كانت قلعتك ألموت برجاً من بروج السماء لهدمنا أركانها بعون الله سبحانه وتعالى » .

فلما قرأ الحسن بن الصباح الرسالة ردَّ عليه ردًّا مستفيضاً محاولاً إقناع ملكشاه بموقفه السياسى ، بل وبعقيدته الدينية ، فقال الحسن :

« عندما وصل الصدر الكبير ضياء الدين خاقان إلى زاويتنا ، وبلّغ مقالة السلطان إلىّ ، وضعتها على الرأس والعين ، ورفعت رأسى زهـواً من الفخر والشرف ، لقد فسح لى المجال لإظهار اعتقادى ، وإنى لأرجو من السلطان أن يصغى إلى كلامى ، ولا يشاور فى أمرى الذين يعلم أنهم من أعدائى ، سيما نظام الملك ، وعليه أن يتحقق ما أنا عليه من الصدق الذى ليس عليه مزيد ، وإن رجعت أنا عن ذلك كنت كمن رجع عن الإسلام وعصى الله ورسوله ، وإن خشيت من شئ فهو خشيتى من أن يكون السلطان قد سمع كلام الأعداء ، وكيف لى بمقاومة خصم عنيد يستطيع أن يضع الحق مكان الباطل والباطل مكان الحق ؟!

ولابدّ لى الآن من وصف حالى :

كان أبى رجلاً مسلماً على مذهب الشيعة الاثنى عشرية . ولما بلغت أربع سنين أرسلنى إلى المدرسة لتحصيل العلوم والمعارف ، وحين مضى أربع عشرة سنة من عمرى حذقت فى علمى القرآن والحديث . ثم لاح لى مرض الدين ، فوجدت فى كتب الشافعى روايات عديدة فى فضائل آل النبى صلوات الله عليه وعليهم ، فوجهت خاطرى نحوهم ، وعنيت فى طلب إمام الوقت ، حتى جرتنى تكاليف حكام الزمن إلى أمور الدنيا التى يعظمونها الناس . ومن أجل هذا نسيت جدى الأول وشوق الأمثل وجعلت جُلَّ همى فى أمر الدنيا وخدمة الناس ، وألقيت وراء ظهرى أمر الخالق .

ولما كانت هذه الحالة لا ترضى الله سلّط علىّ الأعداء ، فأخرجونى مضطراً

من ذلك الأمر ؛ فكنت أفر من مدينة إلى مدينة ومن مهمة إلى مهمة ، حتى تعبت كثيراً كما لا يخفى على السلطان ونظام الملك .

ولما نجانى الله تعالى من هذه الورطة سالماً ، وعلمت أن التوجه إلى الخلق والتنكب عن الحق لا يثمر غير هذا ، قمت فى أمر الدين وطلب الآخرة ، وسافرت من الرى إلى بغداد ، حيث أقمت مدة فيها درست خلالها أحوالها ، وتفحصت عن حال الخلفاء وأئمة الإسلام ، فوجدت الخلفاء العباسيين عارين من كل مروءة وخالين من مرتبة الفتوة ، وعلمت أن الإسلام والدين لو كانوا مبنيين على إمامتهم وخلافتهم ، إذن فالزندقة والكفر أولى .

ثم ذهبت من بغداد إلى مصر ، وفيها خليفة الحق الإمام المستنصر ، فدرست حاله ، وقابلت بين خلافته وخلافة العباسيين ، وإمامته وإمامتهم ، فوجدته أحق بالخلافة منهم ؛ فأقررت به وبرئت بكل الوجوه منهم ومن خلافتهم :

ولما علم الخلفاء العباسيون بما أنا عليه ، أرسلوا نفراً ليأخذونى فى الطريق ، ثم نجانى الله منهم ، ووصلت سالماً إلى مصر .

ثم أرسلوا مقدار حمل ثلاثة بغال ذهباً إلى أمير الجيوش بمصر ، ووعدوه بأموال كثيرة أخرى إذا تمكن من الحسن أو من رأسه . ولما كانت عناية خليفة الحق والإمام المستقر المستنصر بالله شاملة بى ، نجوت من هذه المكيدة أيضاً .

ولما ألب العباسيون أمير الجيوش علىَّ رشحونى للذهاب إلى الروم ودعوة كفار الإفرنج ، وبلغ هذا الخبر إلى سمع الإمام ، فجعلنى فى كنفه ووكل إلىَّ أمر دعوة الناس إلى الصراط المستقيم ، وإعلامهم بإمامة خلفاء مصر وحقيقتهم ..

فما هو رأى السلطان بالآية : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ ؟ [النساء : ٥٩] .

وهل يحمل على سماع كلامى وقام على دفع شرهم عن المسلمين كما قام السلطان محمود غازى سبكتكين على دفع شرهم وأذاهم ؟

وأما ما قلتم من أننى أظهرت ديناً جديداً .. فنعوذ بالله من أن أظهر ديناً

جديداً ، أنا أدين بدين أصحاب رسول الله ، ذلك هو الدين القيم إلى يوم القيامة ، دينى دين الإسلام والمسلمين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأن أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس .

إنك بعد أن أرسلت جيوشك من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن محاذاة قطب الشمال إلى الهند ، سلمت لك كل هذه الممالك ؛ فهل تجوّز بعدها أن تخرج من يد أبنائك لغيرهم ؟

إذا كنت تقبل بهذا فخلافتهم أيضاً جائزة .. على أن أبناء العباس عاثوا فى الأرض فساداً ، ولئن كان بعض الناس يعتقدون فيهم ويعتمدون عليهم لجهلهم بفسادهم ، فكيف يعتمد عليهم من يعلم بفسادهم ؟!

وإننى لا أدرى كيف يجيب السلطان الله يوم القيامة ؟ وكيف تكون نجاته من النار إذا لم يدفع شرهم وينجى المسلمين منهم ؟

إننى لا أنكر الخلفاء الأربعة ومحبتهم فى قلبى ، وإننى لم أظهر ديناً ، ولا ابتدعت مذهباً ، مذهبى مذهب الصحابة فى زمن الرسول صلى الله عليه وآله ، وهذا صراطى المستقيم إلى يوم القيامة .

وأما ما قلتم من أننى أطعن فى بنى العباس .. فأقول : كيف لا يطعن ولا يشنع بقوم كانت بدايتهم ونهايتهم على التزوير ، والتلبيس ، والفسق ، والفجور ، والفساد ؟

وها أنا أشير إلى نبذة من أحوالهم وأفعالهم لتكون لى على السلطان حجة :

أولاً : أبو مسلم الذى جد واجتهد ، واختار التعب ؛ حتى قصر أيدى ظالمى بنى مروان عن إراقة دماء المسلمين ، وأخذ أموالهم ، وأزال الظلم ، وزين الدنيا بالعدل — غدروا به ، وأراقوا دمه !

ثم قتلوا آلافاً من أولاد الرسول فى أطراف العالم ، حتى انزوى جمع غفير منهم فى زوايا الخفاء ، وخلعوا شعار السيادة لينجوا بأنفسهم من جور الظالمين .

ومازال أولئك الخلفاء يشتغلون بشرب الخمر ، وارتكاب الزنا ، وقد بلغ

الفساد فى زمانهم لدرجة أن هارون ـــ الذى كان أعلمهم وأفضلهم ـــ كان يحضر إحدى شقيقاته فى مجلس شرابه ومدامه . ومن أعماله التى لا يقرها وجدان ولا ضمير : أنه أمر بجلد أبى حنيفة الكوفى مائة سوط ، مع أنه كان ركناً من أركان الإسلام ، وأيضاً صلب منصور الحلاج الذى كان قدوة الأنام .

هؤلاء هم خلفاء العباسيين الذين تسميهم « أركان الإسلام وقوام الملك والملة » ، وتقول « إن بهم يوثق نظام الدين والدولة » ، فإن طعنت بهم أنا أو غيرى بعد هذا ، فهل أكون على حق أم على باطل ؟

وأما ما قلتم من « أننى أخدع الجُهال ، وأدفعهم لضرب الناس وقتلهم » . .

فأقول : إن انحراف موظفى السلطان ، ووكلاء نظام الملك ، وأرباب المعاملات فى حدود خراسان ـــ عن جادة الصواب ، وتجاوزهم على عورات الناس وحرم العباد ، وقتلهم النساء أمام أزواجهن وارتكاب الفحشاء معهن ، فضلاً عن عدم الاهتمام بالمعاملات الديوانية ، وكلما استغاث الناس بأركان الدولة لا يلتفت أحد إليهم ، بل ينزل البلاء والجور على المستغيث .

هذا نظام الملك الذى هو اليوم وزير ورئيس للملك ، اتهم أبا نصر الكندرى بالتصرف فى مال السلطان وملكه ثم قتله ، مع أن أبا نصر كان فى حياته وأثناء وزارته يأخذ من الناس عشرة دراهم فيرسلها إلى خزانة الملك ، واليوم يأخذ نظام الملك خمسين درهماً بالجور والظلم ، ولا يرسل إلى خزانة الملك حتى نصف درهم ، بل يدفع قليلاً منها للصوص والقتلة ، ويصرف الباقى على بناته وأبنائه وأصهاره ، وإن ما أنفقه من أموال الناس على أبنيته ودوره أظهر من الشمس فى رابعة النهار . أين أبو نصر من الابن والبنت ؟ إنه لم يصرف أموال الناس فى أبنيته ودوره .

وليس للمظلومين فى هذا الزمان ملجأ يفزعون إليه ، فإن قام أحد للاضطرار ، وأثار النار على العار ، وهانت عليه المنية تخلصاً من الذل والدنية ، ودفع واحداً أو اثنين من هؤلاء الظلمة ـــ فما ظلم ، وإن قتلهم لمعذور .

ما للحسن الصباح وهذه الأمور؟ وهل يحتاج إلى أن يخدع الناس بعد هذا؟

وأى أمر يقع فى الدنيا بلا تقدير سماوى ؟

وأما ما هددتم بحشد جيشكم لتدمير مستقرى ، فمعاذ الله أن أفعل شيئاً يكون فيه خلافاً لرأى السلطان . لقد اخترت زاويتى وجعلتها مأوى لى ؛ لأن أعدائى يحتالون فى طلبى ، ويسعون لسفك دمى . فإذا فرغ السلطان من أمر الأعداء أنا أقبل إليه ، وأتشرف بحضرته ، وانخرط فى سلك سائر عباده ، وحينئذ أشير إليه ما استطعت لإصلاح أمر دنياه وتدارك أمر آخرته ، ولئن صدر عنى عمل بخلاف هذا ، أو خالفت أمر السلطان ، فأنا جدير بالسب واللعن من القريب والبعيد ، وبأن يقال فىَّ : إنه خالف القول المأثور : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ [النساء : ٥٩] ، وأن تقول فى حقى ما شئت إذا أنا أغمضت عينى عن خصمى نظام الملك الذى ظلمنى ويظلمنى .

وأما قولكم : « لو أن مستقرى برجاً من بروج السماء لهدمته » .

فأقول : إن لمقيمى فى هذا المستقر ثقة بقول ولى الدهر من أن هذه القلعة ستبقى ثابتة فى أيدينا مدة طويلة حتى يحل قضاء الله بها .

وإننى الآن أعمل بالفرائض والسنن ، وأرجو من الله ورسوله أن يهدى السلطان وأركان دولته إلى الصراط المستقيم ، ويرزقهم دين الحق ؛ ليزهق فساد العباسيين وفسقهم من بين الخلق .

ولو أن السلطان يبغى سعادة الدين والدنيا لعمل كما عمل سلطان الإسلام محمود غازى رحمه الله ؛ حيث جاء بسيد علاء الملك خداوند زاده من ترمذ وجعله خليفة للناس ، وبذلك تخلص من شرهم .

فعلى السلطان واجب دفع شرهم وإنقاذ عباد الله تبارك وتعالى منهم . وسيأتى زمان يظهر فيه سلطان عادل يخلص المسلمين من الظلم والضيم .

والسلام على من اتبع الهدى ..

خادم أعتاب آل محمد وعلى
الحسن بن الصباح

* * *

بهذا الردّ الدبلوماسى استطاع الحسن أن يهدأ من روع ملكشاه بعض الوقت ، فهاهو ذا مازال يعلن طاعته له ويطمئنه على أنه لن يخرج من هذه الطاعة .



الحسن يواصل انتصاراته :

ولكن الحسن أخذ يواصل جهوده لنشر الدعوة فى المناطق المجاورة وللسيطرة على أكبر عدد ممكن من القلاع والحصون ، مستخدماً فى ذلك مختلف الوسائل المتاحة له بدءًا من استخدام الإقناع العقائدى والتحاور الفكرى حتى استخدام أسلوب القوة والصدام المسلحين . وقد استطاع السيطرة على إقليم « رود بار » واكتساب ولاء سكانه إلى الدعوة الإسماعيلية الجديدة .

ولم تتوقف محاولاته عند هذه المنطقة القريبة ، بل كان يتطلع إلى بعض المناطق البعيدة ، مثل « قهستان » التى كانت تقع فى جنوب شرق فارس ، وهى عبارة عن مجموعة من الواحات المتباعدة تحيط بها صحارى مالحة . وقد أرسل الحسن إليها سنة (٤٨٤ هـ=١٠٩١م) مجموعة من الدعاة الأكفاء بقيادة « حسين القائى » الذى كان من أهل قهستان . وقد قامت المجموعة بدور كبير فى ذلك الإقليم ، وتمكنت ببراعة من استثمار سخط الأهالى على الحاكم السلجوقى « كلسارغ » الذى كان يحكمهم حكماً استبدادياً ويسىء معاملتهم . ويذكر المؤرخون أن قهستان كان قد بقى فيها بقايا من « بنى سيمجور » أمراء خراسان فى عصر الدولة « السامانية » وقد بقى من نسل هؤلاء رجل اسمه « المنور » وكان ذا مكانة مرموقة عند الخاصة والعامة ، ولما تولى « كلسارغ » قهستان لم يقف ظلمه وتعديه عند حدود العامة ، بل تجاوز ذلك إلى الخاصة ، وحاول أن ينال أختاً للمنور بدون زواج ؛ فحمل ذلك المنور على الانضمام إلى الدعوة الإسماعيلية الجديدة ، وأصبح واحداً منهم ، مما قوى مركزهم شيئاً فشيئاً ، حتى عظمت مكانتهم فى المنطقة واستطاعوا السيطرة عليها .

وقد امتدت جهود دعاة الحسن أيضا إلى جنوب غرب إيران فى منطقة جبلية بين فارس وخوزستان ، وقد كان كبير الدعاة بتلك المنطقة هو أبو حمزة الإسكافى ، وهو من أهل « أرّجان » كان قد سافر إلى مصر حيث أُجيز هناك كداعية إسماعيلى ثم عاد . ومن القلاع التى استولى عليها هناك قلعة « خلادخان » ، وقد كان ملكشاه قد أقطع هذه القلعة للأمير « أنز » ، فجعل بها « دزداراً » ، وعندما قرر الإسماعيليون بأرّجان الاستيلاء عليها بعثوا أولاً إلى « دزدار » يطلبون منه بيعها لهم ، فرفض ، فقالوا له : « نحن نرسل إليك من يناظرك حتى يظهر لك الحق » ، فأجابهم إلى ذلك ، فأرسلوا إليه داعياً ديلمياً يناظره ، وكان للدزدار مملوك قد رباه وسلم إليه مفاتيح القلعة ، فاستماله الداعى الإسماعيلى ، ولما طلب منه القبض على صاحبه وتسليم القلعة إليهم ، استجاب المملوك فقبض عليه وسلم القلعة إليهم ، ثم أطلقه بعد ذلك . وعقب استيلائهم على قلعة « خلادخان » استولوا على عدة قلاع أخرى ، منها قلعة « الناظر » بخوزستان ، وقلعة « الطنبور » التى بينها وبين أرّجان فرسخان .

بداية الحملات السلجوقية ضد قلاع الحشاشين :

فى ضوء هذا الانتشار السريع والانتصارات المتوالية لحركة الحشاشين فى أطراف إيران الجبلية والصحراوية ، وجد ملكشاه السلطان السلجوقى — بإيعاذ من نظام الملك — أنه ما من بدّ من اللجوء إلى استخدام القوة العسكرية فى القضاء على النفوذ الألموتى المتزايد .

فوجه السلطان حملتين فى بداية سنة (٤٨٥ هـ=١٠٩٢ م) إلى كلٍ من « ألموت » و « قهستان » ، أما الحملة الأولى فقد كانت بقيادة الأمير « أرسلان تاش » ، الذى توجه بجيشه إلى « ألموت » التى حاصرها ، وكان رجال الحسن الذين معه فى القلعة لا يتجاوزون سبعين رجلاً على الأكثر ، وإن كان الحسن قد أعدَّ العدة لمواجهة هذا الحصار ، فكان لديه من المؤن ما يكفى رجاله طوال فترة الحصار ، وكان يوزعها عليهم توزيعاً مقنناً حتى يضمن الاستمرار فى المواجهة أكبر فترة ممكنة . وفى البداية طلب أرسلان تاش من الحسن ورجاله الاستسلام الفورى وتسليم القلعة ، وإن لم يفعل فستكون عاقبته

هو ورجاله الإبادة ، حيث سيضرب على القلعة حصاراً مستمراً . ولكن رغم هذا التحذير الشديد فإن الحسن لم يرضخ وردَّ على « أرسلان تاش » بخطاب شديد اللهجة فقال :

« أيها الغزاة ، مالكم والتدخل فى شؤوننا الداخلية ؟ نحن قوم لا هدف لنا إلا العمل على إصلاح المجتمع .. هذا المجتمع الفاسد ، ونشر بذور المحبة والإخاء بين المواطنين ، ورفع الحيف والظلم عن الطبقات الفقيرة العاملة المنتجة . ارجع بجنودك عنا ؛ فلو بقيت إلى الأبد لن تنال منا قيد أنملة ، وحسن ابن الصباح الذى عجمت[1] عوده لن يخشاك . والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى » .

وبالفعل ، نفذ أرسلان تاش تهديده فحاصر القلعة ، ولم يكتف بذلك ، بل ضيق الخناق أيضاً على القرى والمناطق المجاورة . واستمر هذا الحصار حوالى أربعة أشهر ، كان الحسن فى أثنائها قد أرسل يستنجد بالداعى « ديدار أبو على » الذى كان له نفوذه وتأثيره فى قزوين والرى وطلقان وكوهى بارا . فسارع الداعى بإرسال الرجال ومعدات الحرب إلى منطقة الحصار . وفى ليلة حالكة الظلام قامت هذه المجموعة مع فدائيى ألموت بمساعدة بعض أهالى رودبار بهجوم سريع ومفاجىء على جيش أرسلان تاش ، فاستطاعوا هزيمته وإجلائه عن المنطقة .

أما الحملة الأخرى التى كان ملكشاه قد وجهها فى نفس الوقت إلى قهستان بقيادة « قزل مارق » ، فإنها قامت بحصار منطقة النفوذ الإسماعيلى . واستمر هذا الحصار دون أى تسليم من حسين القائى ورجاله ، حتى جاء خبر موت السلطان ملكشاه ، فقرر قائد الحملة فك الحصار والعودة من حيث جاء .

اغتيال نظام الملك :

وقبل موت السلطان ملكشاه بقليل استطاع أحد فدائيى حسن الصباح أن يقتل نظام الملك الوزير السلجوقى والعدو الأول للحركة الألموتية ، وكان قتل نظام الملك أول عمل اغتيالى للحركة على مستوى كبير ؛ وقد بدأت معه

(١) يقال : عَجَمَ فلاناً ، وعَجَمَ عُودَهُ : امتحنه واختبره .

سلسلة من الاغتيالات المتوالية لكبار الشخصيات التى تعارض دعوتهم ، من وزراء وقواد وأمراء بل وملوك ، وحتى رجال الدين الذين كانوا ينتقدوا الحركة لم يفلتوا من أيديهم .

ففى سنة (٤٨٥ هـ=١٠٩٢م) ، فى العاشر من رمضان ، كان الوزير والسلطان بالقرب من نهاوند ، وبعد أن فرغ الوزير من طعام إفطاره خرج فى محفته إلى خيمة حرمه ، فأتاه صبى ديلمى من الحشاشين ، فى صورة مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه ، فقتله ، ثم هرب ، فتبعه الحراس فأدركوه فقتلوه .

ومع أن مسؤولية الحسن بن الصباح عن مقتل نظام الملك ثابتة فى مراجع الشيعة أنفسهم ، كما أن اسم نظام الملك محفوظ فى « قائمة شرف » للاغتيالات بقلعة ألموت ، كانت تسجل بها أسماء الفدائيين وأسماء من قتلوهم ، مع ذلك إلا أن هناك مَنْ يحاول أن يلصق تهمة قتل نظام الملك بالسلطان ملكشاه ، ويروون فى هذا الصدد الرواية التالية : « كان سبب قتله (= نظام الملك) أن عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك ، كان قد ولاه جده نظام الملك رياسة مرو ، وأرسل السلطان إليها شحنة يقال له قودن ، وهو من أكبر مماليكه ومن أعظم الأمراء فى دولته ، فجرى بينه وبين عثمان منازعة فى شئ ، فحملت عثمان حداثة سنه وتمكنه وطمعه بجده ، على أن قبض عليه ، وأخرق به ، ثم أطلقه ؛ فقصد السلطان مستغيثاً شاكياً ، فأرسل السلطان إلى نظام الملك رسالة مع تاج الدولة ومجد الملك البلاسانى وغيرهما من أرباب دولته يقول له : (إن كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة ؛ فلذلك حكم .. وإن كنت نائبى وبحكمى ؛ فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة ، وولى ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة ، وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا) ، وأطال القول ، وأرسل معهم الأمير « يلبرد » ، وكان من خواصه وثقاته ، وقال له : (تعرفنى ما يقول ، فربما كتم هؤلاء شيئاً) . فحضروا عند نظام الملك ، وأوردوا عليه الرسالة ، فقال لهم : (قولوا للسلطان : إن كنت ما علمت أنى



صورة كلية لأعمال نظام الملك

شريكك فى الملك فاعلم ، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأيى ؛ أما يذكر حين قُتل أبوه فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم ــ منهم فلان وفلان وذكر جماعة من خرج عليه ــ وهو ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ولا يخالفنى . فلما قدت الأمور إليه ، وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعه القاصى والدانى ، أقبل ينحنى لى الذنوب ، ويسمع فىّ السعايات ؟! قولوا له عنى : إن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وإن اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك . فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه) ، وأطال فيما هذا سبيله ، ثم قال لهم : (قولوا للسلطان عنى مهما أردتم فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه وفت فى عضدى) . فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان ، وأن يقولوا له ما مضمونه العبودية والتنصل ، ومضوا إلى منازلهم ، وكان الليل قد انتصف ، ومضى « يلبرد » إلى السلطان فأعلمه ما جرى ، وبكر الجماعة إلى السلطان وهو ينتظرهم ، فقالوا له من الاعتذار والعبودية ما كانوا اتفقوا عليه ، فقال لهم السلطان : إنه لم يقل هذا وإنما قال كيت وكيت ، فأشاروا حينئذ بكتمان ذلك رعاية لحق نظام الملك وسابقته ، فوقع التدبير عليه حتى تم عليه من القتل ما تم ، ومات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً وانحلت الدولة ووقع السيف وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له وأكثر الشعراء مراثيه » [الكامل ٨ : ١٦١ ــ ١٦٢] .

ويؤكد أكثر من مؤرخ أن نظام الملك قتل بتدبير من ملكشاه ، وكان الذى سعى بنظام الملك عند السلطان هو الوزير تاج الملك الذى تمخضت سعاياته عن الصدام السابق ذكره . غير أن الذى عليه معظم المؤرخين هو أن المسؤول مسؤولية مباشرة عن مقتل نظام الملك هو حسن الصباح . ويبقى هذا الرأى هو الأقوى والأوكد ، لاسيما وأن مؤرخى الشيعة أنفسهم يعتبرون أن مقتل نظام الملك من مفاخر حركة ألموت ، وأن بمقتله أرسى الحسن الصباح أسس الفدائية . غير أن الدليل الحاسم على ذلك يتمثل ــ كما سبق أن ذكرنا ــ فى

كون اسم نظام الملك محفوظاً فى السجلات التى بقت فى قلعة ألموت والتى بها قائمة شرف بكل عمليات الاغتيال .

وبموت الوزير نظام الملك ثم السلطان ملكشاه انتهت فترة المجد التى شملت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأولين : طغرل ، وألب أرسلان ، وملكشاه . فبعد موت ملكشاه أخذت الحروب الداخلية يستعر أوارها بين أبنائه ، وتلت ذلك عدة اضطرابات أضعفت السلطة المركزية السلجوقية . كل ذلك أعطى الفرصة للحسن الصباح لكى يكتسب مزيداً من النفوذ والقلاع وينشر الدعوة فى أنحاء إيران .

انشقاق داخلى فى التيار الإسماعيلى :

غير أنه فى سنة (٤٨٧ هـ=١٠٩٤م) وقعت مشكلة كبرى عندما توفى الإمام المستنصر ؛ إذ أنه كما سبق أن أشرنا كان قد عهد إلى ابنه نزار بولاية العهد ، ولكن استطاع الوزير الفاطمى بدر الجمالى أن يقصى نزاراً الذى كان يناهضه ، وبايع أخاه الأصغر أحمد المستعلى ، وبهذا حدث انشقاق داخلى فى التيار الإسماعيلى ، حيث أيدت طائفة إمامة نزار ولذلك سميت بـ « النزارية » ، بينما أيدت طائفة أخرى إمامة أحمد المستعلى ، وهؤلاء سموا بـ « المستعلية » .

وقد كانت حركة الحشاشين بزعامة الحسن الصباح أكبر المؤيدين لإمامة نزار ، فالحسن عندما زار مصر وقابل المستنصر سأله : « من إمامى بعدك ؟ فقال : ابنى نزار » .

وقد تمكن المستعلى بمساعدة بدر الجمالى من تولى الخلافة الفاطمية ، ولذلك ترك نزار القاهرة متوجهاً إلى الاسكندرية بصاحبة مجموعة من مؤيديه ؛ حيث رحب به أميرها ناصر الدولة افتكين والقاضى جلال الدين بن عمار ، وقد أخذ البيعة من أهل الاسكندرية ، وجاءه التأييد من إسماعيلية إيران وسوريا . غير أن الوزير بدر الجمالى اتجه إليه بجيوشه واستطاع إلحاق الهزيمة به وبأتباعه ، وهنا تتباين روايات المؤرخين حول مصير الإمام نزار ، فمنهم من يذكر أنه قُتل هو

وأبناؤه فى الاسكندرية ، ومنهم من يقول بأنه أخذ إلى القاهرة هو وأبناؤه أيضاً حيث قُتلوا فيها ، وهؤلاء وأولئك قالوا بأن الإمامة انتقلت منه إلى حفيد له هُرّب سراً بواسطة أتباعه إلى ألموت ، ولكنهم أحياناً يذكرون أن ابن نزار كانت له زوجة حاملاً فاستطاع الأتباع تهريبها إلى ألموت ، وهناك وضعت الخليفة الشرعى ولكن أكثر دعاة الإسماعيلية النزارية يؤكدون على أن الإمام نزار قد تمكن من الهرب أثناء حصار الاسكندرية ، وتوجه إلى ألموت ؛ فيقول أبو المكارم أحد الدعاة الإسماعيليين فى كتابه « الأخبار والآثار » : « عندما اشتد الحصار على الاسكندرية من قبل الجاحد المارق الزنديق الأرمنى الأفضل غادرها مولانا الإمام نزار عليه السلام مع أهل بيته متخفياً بزى التجار نحو سجلماسة ، حيث مكث عند عمته هناك بضعة أشهر ، حتى عادت إليه الرسل التى أوفدها لإبلاغ الحسن بن الصباح عن محل إقامته ، فسار إلى جبال الطالقان مع أهل بيته ومن بقى معه من دعاته وخدمه ، حيث استقر بقلعة ألموت بين رجال دعوته المخلصين ، وعمل مع الحسن بن الصباح على تأسيس الدولة النزارية » .

الاستيلاء على قلعة كردكوه الشهيرة :

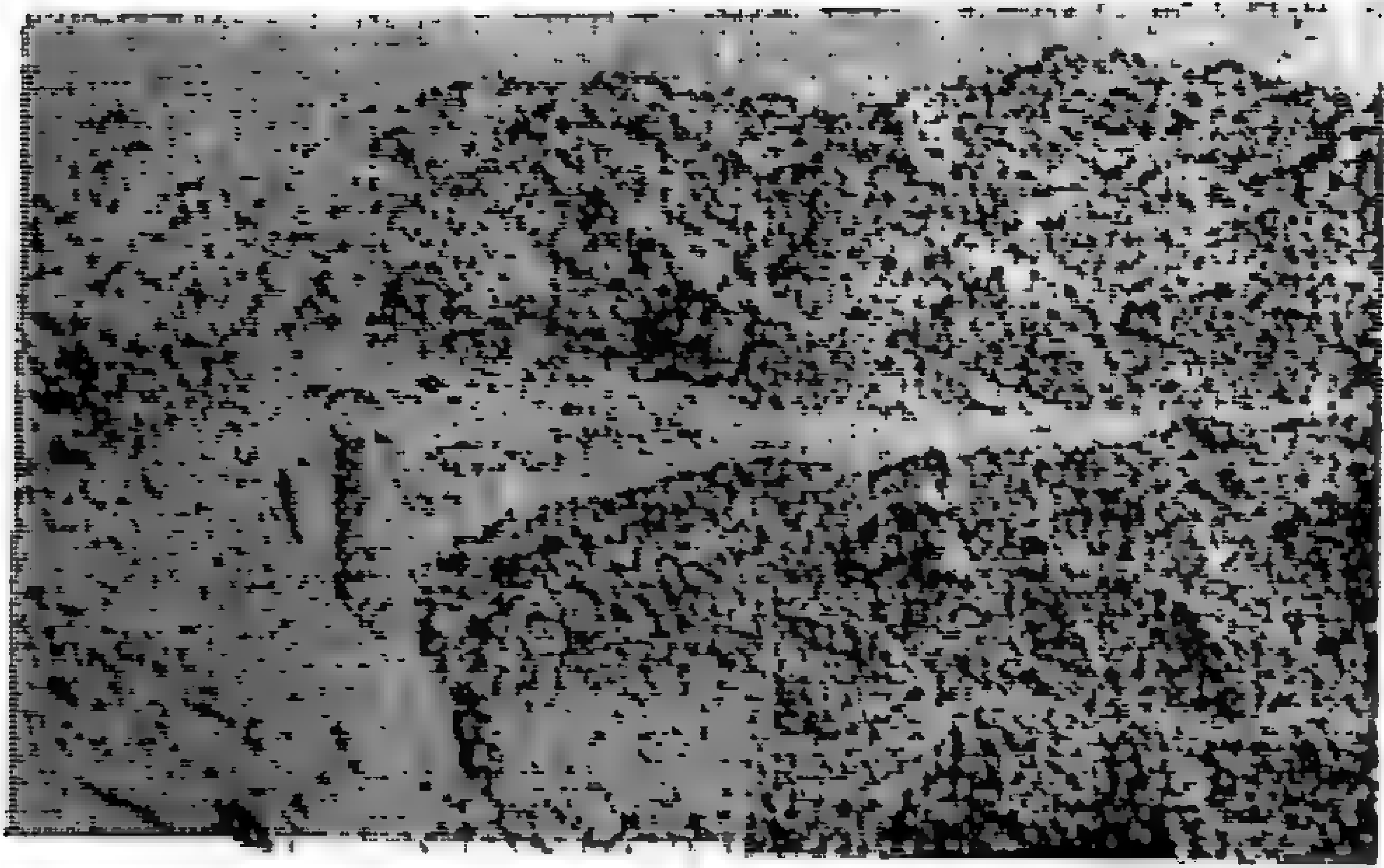
ورغم حدوث هذا الاضطراب والقلق فى تيار الدعوة الإسماعيلية ، التى انشقت إلى إسماعيلية نزارية وإسماعيلية مستعلية ، فإن هذا لم يحل دون استمرار نشاط حركة الحشاشين التوسعى فى أرجاء إيران ، حيث تمكنت من الاستيلاء على قلعة « كردكوه » الشهيرة جنوب دمغان سنة (٤٨٩ هـ=١٠٩٦م) ، وقد تم الاستيلاء عليها بمساعدة ضابط سلجوقى اسمه « مظفر » كان قد اعتنق سراً عقيدة الإسماعيلية منذ فترة على يد الداعى عبد الملك بن عطاش ، حيث استطاع مظفر أن يقنع رئيسه الأمير السلجوقى أن يعينه قائداً للقلعة ، فطلب الأمير ذلك من السلطان ، فوافق بدوره . وكانت الخطوة التالية التى قام بها مظفر هى تحصين القلعة وإمدادها بقدر كاف من العدة والعتاد بمساعدة الأمير السلجوقى . وفى الوقت الذى انتهى فيه من ذلك صرح بانتمائه إلى الحركة الألموتية (= حركة الحشاشين) . ولاشك أن الاستيلاء على هذه القلعة واكتساب هذا الضابط فى صفوف الحركة كان يعنى زيادة ذات شأن فى قوة

الألموتيين . ولعل أهمية القلعة الاستراتيجية تظهر لنا بوضوح أكثر إذا قرأنا ما يقدمه المستشرق المدقق « ايفانوف » W. Ivanow من وصف لها فى دراسته "Some Ismaili Strongholds in Persia"

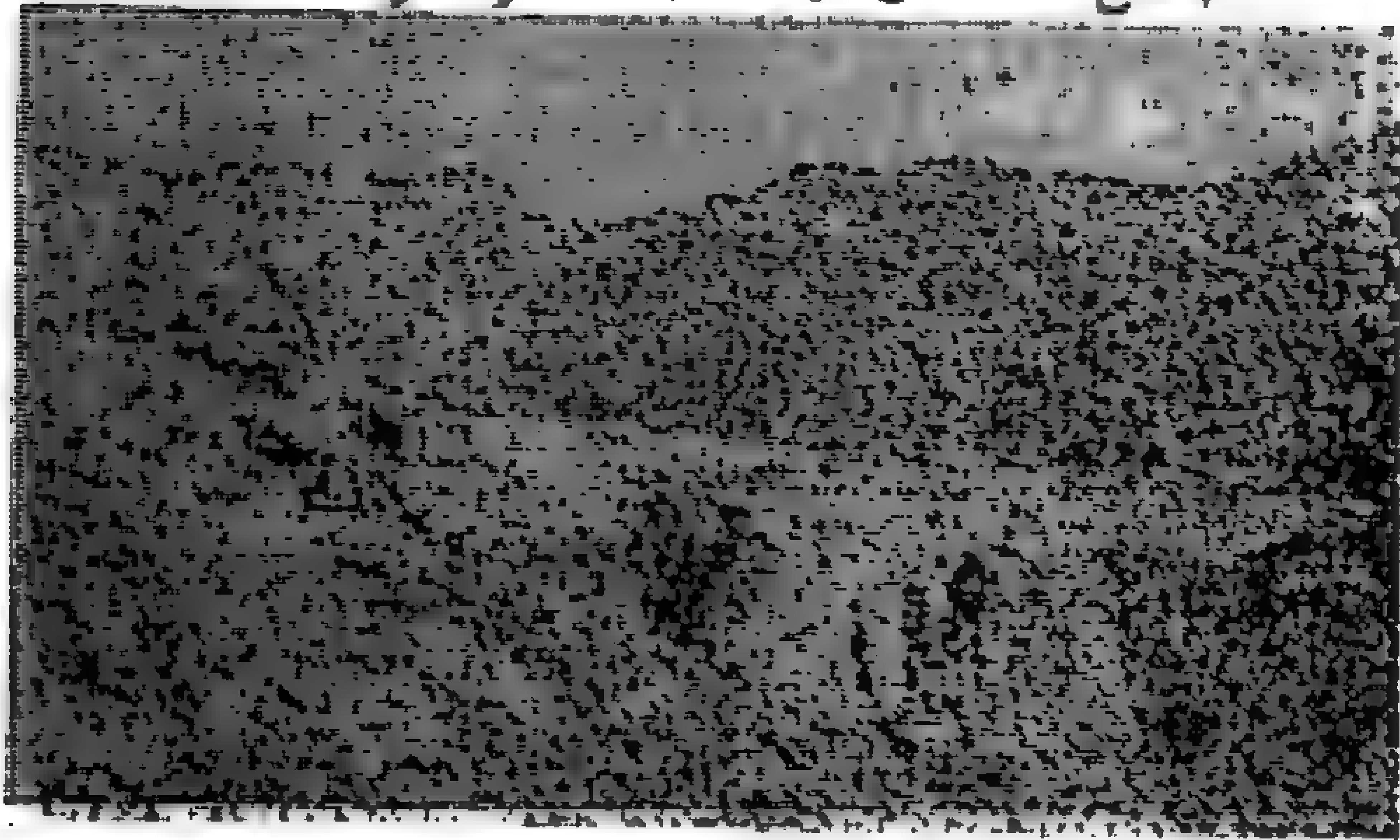
حيث يشير إلى أن قلعة « كردكوه » بالقرب من دمغان لها قيمة كبيرة بالنسبة لمعاصرى الأئمة الإسماعيليين ، وقد نشأت أهمية القلعة من سيطرتها على طريق خراسان ، وكذلك من حمايتها لطريق الهضبات الواصلة بين داخل إيران وبحر قزوين الذى يوازى طريق بسطام بنفس الطريقة التى يوازى فيها لطريق ألموت طريق مينجيل . ومن الصعوبة أن ندرك — كما يقول أيفانوف — مدى اهتمام الإسماعيلية ببحر قزوين . ولقد زار كردكوه كثير من علماء الآثار ، وصورت من الجو بطائرات البعثات الأمريكية . ولقد أطلعنى رئيس مصلحة الآثار الإيرانية على هذه الصور ، وهى لم تنشر حتى الآن . ولم يصل إلى علمى حتى الآن أى وصف لكردكوه قد قام به أى باحث . وفيما يلى بعض التفاصيل :

يحدثنا عنها ياقوت الحموى الجغرافى الشهير أثناء وصفه لدمغان ذاكراً أن قلعة كردكوه تبعد مسافة يوم عن مدينة دمغان ، ويمكن أن تُرى من هناك . ولقد ذكر المستوفى القزوينى فى كتابه « نزهة القلوب » ص١٦١ ، القلعة وسماها "Dizi Gunbadan" أى « ذات القبب » ، وقال بأنها تبعد ثلاثة فراسخ عن دمغان . وكان يوجد بالقرب منها قرى وكثير من الأراضى الزراعية وحاضرتهم « منصور آباد » .

وكما يشاهد الآن فإن القلعة أقيمت على هضبة تشبه الكعكة داخلة فى سهل مائل يخرج عن خط الهضاب المماثلة مجانبة لقاعدة الهضاب ، وترتفع ألف قدم أو أكثر عن قاعدتها . وعندما ننظر إليها من السهول مثلاً من الجنوب تظهر مستديرة ، ولهذا سميت كردكوه ، أى الهضبة المستديرة ؛ إذ تظهر مثل كعكة عيد عظيمة تقع غرب دمغان ، وتقع فى مكان مميز عما يحيط به . ويشاهد ذو النظر الحاد من قمتها لمسافة خمسين ميلاً شرقاً وجنوباً وغرباً ، أما من الشمال فيبرز جدار مانع من السلسلة الرئيسية . ويمكن أن يصل الخيّال من دمغان إليها



بعض الأطلال فى هضبة «كردكوه»



جدران على الجانب الشمالى الشرقى لكردكوه



هضبة «كردكوه» من الجنوب الشرقى

فى يوم واحد . ولأنه لا يوجد سكان هناك فمن الأسهل أن تأخذ سيارة من طهران حتى دولة آباد التى تبعد عشرين كيلومتر عن دمغان ، وهناك توجد عدة أماكن مسكونة يمكن أن يستعان بأدلة منها . والمسافة من دولة آباد حتى الهضبة عشر كيلومترات . وليس هناك طريق ملائم ، ومع هذا توجد سيارات قوية لاجتياز المكان . وعندما كانت القلعة فى يد الإسماعيلية كان طريق خراسان أعلى منه الآن ، وكانت تنتشر الواحات فى الجنوب والجنوب الشرقى منها عبر الصحراء .

ويوجد عدد من القرى ــ كما يقول القزوينى ــ تقع الآن على أرض أخفض منها بالأمس ، وأطلال منصور آباد يبدو أنها كانت عالية وذات أبنية أضخم وحجم أوسع وتحصينات قوية تحتل مكاناً فسيحاً . وتقع الأطلال على مسافة خمسة أو ستة كيلومترات عن كردكوه إلى الجنوب والجنوب الغربى . والمكان الآن قاحل فيه بعض بقاع مزروعة . ويوجد هنا وهناك بعض قرى صغيرة دارسة ، ويقال أن سبب خلوها هو جدب البلاد . وتسقى الأراضى الزراعية هنا بواسطة الأقنية التى تجتاز الهضاب وتسقى لمسافات بعيدة .

ومع أنه لم يتح لى ــ الكلام لإيفانوف ــ أن أرى شخصياً الطرق ، فقد وصف لى السكان أن كثيراً من الطرق القديمة كانت تجتاز قاعدات الهضبات وتسيطر عليها قلعة كردكوه ، وقد تغيرت الآن هى والقرى المارة بها . وكما ذكرنا فإن القلعة تحرس الممر إلى شاطىء قزوين . ومبدأ هذه الآثار تشكل من وادى نهر دمغان التى تميل إلى الشرق نحو المدينة ولا تبعد كثيراً عن مكان كردكوه .

ولم أشاهد أى سكان على الطريق الذى اتبعته إلى بلدة « آيانو » وفى وادى دمغان . وسمعت أن ثمة طريقاً آخر تحف به القرى الأثرية التى يظهر أنها كانت تخص الإسماعيلية سابقاً كما يستدل من تحصيناتها . ويقود هذا الممر من كردكوه إلى ميرنيجار التى كانت صورة طبق الأصل عن كردكوه نفسها .

وقد تركت أكثر جهات الهضبة المقام عليها كردكوه بدون تحصين ؛ لأن

جوانب الهضبة قائمة على قاعدتها . أما الحصون والجدران فقد بنيت على ظهر التاج فوق الهضبة وخاصة فى الشرق والشرق الجنوبى .

وينتشر على الهضبة كثير من الآثار المبعثرة هنا وهناك ، ومن الصعب أن نعرف سبب بنائها اليوم ، ومن المحتمل أنها كانت مغلقة ومتصلة ببعضها البعض بممرات سرية فى أيام الإسماعيلية . واليوم وبعد سبعمائة سنة زالت الآثار تحت أكوام الحجارة حيث تظهر كميات كبيرة من الملاط . وعند اقتراب الهضبة من دولة آباد يمر المرء بين حقول فيها عدة قرى صغيرة تقع بقرب تلال طينية واطئة .

وعندما تبدأ المنحدرات تظهر الأمكنة المجدبة المغطاة بحجارة جرفتها السيول من علٍ . وقبل الكل يشاهد المرء عند منحدر الهضاب آثار البناء كبابين مفتوحين ، ويسميها أهل تلك البلاد « السجن » ، ويصعب اكتشاف ما إذا كان هذا نوعاً من التحصينات أو بوابة لمدخل يقود إلى القمة .

ويظهر أن عدداً من الأماكن التى نستطيع أن نصعد منها الهضبة قد اندثرت ولم يبق إلا مصعد وحيد فى الجانب الشمالى ، والهضبة لا تزار الآن حتى ولا من الرعاة . وليس هناك أية ممرات عند قاعدتها ، والقاعدة مغطاة بأكوام من الحجارة الممزوجة بالملاط قد جرفتها السيول من القلاع المجاورة . ولقد استعملت الحجارة على الأكثر فى بناء الجدران والمنازل ، وتدل قطع الملاط والقرميد على درجة من القرميد فى بناء البيوت .

ومن الصعب اليوم الارتقاء إلى قمة المدخل نظراً لما أحدثته الطبيعة من مجارٍ وأخاديد . والمسؤول الوحيد عن اختفاء آثار الممرات أو المصاعد هو اختلاف الطقس وقسوة الطبيعة . ومما لا شك فيه أن الآثار كانت موجودة سابقاً إلا أن السيول جرفتها مع الزمن ، والدليل على ذلك وجود الآثار القريبة من القمة ، وهى فى حالة بائسة ..

وتبدو قمة الجبل كحرف ملتوٍ ضيق وصخرى ، وتوجد على كلا الجانبين بقايا أخاديد مختلفة . ومن المحتمل تماماً أن القمة كانت مستوية أكثر منذ

سبعمائة سنة وأن هذه الأخاديد سببتها الأمطار وعاديات الأيام . والقمة مغطاة بأكوام من الحجارة ، وتوجد بقايا جدران كانت قد بنيت بالحجارة والملاط . ومن الواضح أن أهم قسم من القلعة بنى هنا .

ولاتزال كثير من الأوانى الفخارية التى ربما صنعت لخزن المياه أو الحبوب . وشاهدت أكثر من حجر مقطوع وبعض الدرجات محفورة فى الصخر ، ولا توجد آثار للنحت .

وقد بنيت الجدران والبروج من القرميد المشوى ، وخاصة بعض المنشآت فى بعض الأمكنة . ومن الصعب فحص الأماكن بدقة لوجودها فوق هوة سحيقة . ولا يمكن التسلق بدون حبال وخاصة تخلخل الحجارة تحت الأقدام قد يودى بالمرء إلى أسفل . كذلك من الصعب أن يرى الإنسان التحصينات حيث تغيب الجدران فى أكثر الأماكن . وبمقدورنا أن نعرف شيئاً عن القلعة وخاصة عن زمن بناء المكان إذا قمنا بالتنقيب والحفر .

وتدل كل المظاهر على أن هذه القلعة عبارة عن صورة طبق الأصل عن قلعة ألموت وقلعة شيركوه وبعض القلاع الإسماعيلية لاسيما التى فى خرائب خراسان قرب « كائن » وفى وادى «بيرجاند » .

ومن المؤكد أن الجميع شيِّدوا بنفس الوقت تقريباً ، ولا يمكن بغير التمحيص والتدقيق معرفة ما إذا كانت هذه القلاع بنيت قبل الإسلام . ومن الواضح أن البناء صمم لحماية السكان ، ولا يبدو أن مزيداً من المواطنين سكنوا هناك . وبدون النار لا يمكن احتلال تلك القلاع ، مع العلم أن مخازنها كانت كافية للتموين بالماء والطعام لفترة طويلة .

ومن هنا تتضح أهمية هذه القلاع الواقعة على نقطة التقاء شرق إيران بغربه واهتمام الإسماعيلية بها .

وإذا رجعنا لوصف قلعة كردكوه نجد أن لها من الشمال عنقاً تصل الهضبة بعدة قمم أخرى ، وتحت هذه العنق توجد مساحة خالية من الحجارة الترابية . ويجد المرء هناك بعض الحجارة الصناعية المنحوتة . ومن الواضح أن سكان

القلاع رموها فوق رؤوس المحاصرين أثناء الحصار ، وأكثرها يزيد قطرها على المترين وثقيلة للغاية ، ومنظرها يوحى بطريقة رميها واجتماعها بهذه البقعة القريبة من القمة . مما يجعلنا نستدل أن المدخل كان فى عصر المغول بهذا الجانب .

ويوجد عدد آخر من القذائف الحجرية فى جهات أخرى ، إلا أنها ضاعت بين غيرها من أكوام الحجارة . ويستدل من أكوام الحجارة وقطع الملاط الموجودة فوق مكان القذائف على أن قرية كانت مقامة هناك . ومن المحتمل أن لا يكون أهلها من المدافعين عن القلعة ، وإنما من المتصلين بالعالم الخارجى للقلعة بدلالة حوانيتهم ومرافقهم العامة . ويشاهد هذا البناء على قاعدة ألموت ومثله على قاعدة قلعة مصياف فى سوريا . وهناك من يقول أن أهل القرية كانوا لا يلجأون إلى القلعة إلى فى حالة الحصار والقتال .

وليس بالإمكان معرفة وجود اتصال تام بين كردكوه وقلعة كوهى ميرنيجار الكائنة بوادى دمغان ، كما يصعب التأكد مما إذا كانت من بناء الإسماعيلية ، إلا أن شكل التحصينات ومقارنتها بغيرها يجزم بأن أيد إسماعيلية قد بنتها .

وبالنسبة لكردكوه ، فلقد عمرت بالسكان فور خروج المغول منها ، ومازالت قصص الماضى عالقة بأذهان السكان .

وينهى إيفانوف كلامه عن قلعة كردكوه وغيرها من القلاع مؤكداً على الأهمية الاستراتيجية لموقعها وتصميمها فى مواجهة الغزاة ؛ مما يدل دلالة قاطعة على عظم المكسب الذى اكتسبته الحركة الألموتية باستيلاءها على هذه القلعة .

الاستيلاء على قلعة شاه ديز :

ومن ضمن القلاع التى كانت تخطط الحركة للسيطرة عليها قلعة شاه ديز المقامة على أحد التلال القريبة من أصفهان ، وكان الذى تولى العمل للسيطرة عليها هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، الذى تمكن من أن يكتسب ثقة قائد

حامية القلعة حتى جعله ذراعه اليمين ، ومن هنا تولى قيادة القلعة بعد موت القائد .

وقد كان استيلاء الحركة على شاه ديز عملاً جسوراً بكل المقاييس نظراً لقربها من مدينة أصفهان عاصمة الدولة السلجوقية فى هذه الفترة .

الحركة تعاود نشاطها فى أصفهان :

ولم تكتف الحركة بالاستيلاء على شاه ديز القريبة من أصفهان ، بل عاودت نشاطها فى مدينة أصفهان نفسها ، وقد كانت أصفهان مركزاً حيوياً للدعوة قبل ذلك ومن وقت غير قصير ؛ حيث كان داعى الدعاة بالمنطقة عبد الملك بن عطاش يتخذها مقراً ثابتاً له ، ولكن عندما اشتمت السلطات رائحة نشاطه فر منها هارباً . وأصبحت أصفهان منذ هروبه منطقة حظر لا يستطيع التحرك فيها الدعاة الإسماعيليون ، بيد أنهم استطاعوا أن يعودوا لممارسة نشاطهم فيها بعد مقتل نظام الملك وموت السلطان ملكشاه ؛ حيث اشتد الصراع بين خليفة ملكشاه السلطان بركيارق وبين زوجة أبيه خاتون وأخيه غير الشقيق محمد . فانتهز دعاة حركة الحشاشين هذه الفرصة وعملوا على توسيع نشاطهم فيها ، وقد نشروا حالة من الرعب والفزع بين مخالفيهم فى المدينة من جراء الأساليب التى كانوا يلجأون إليها فى قمعهم ؛ من قتل وتدمير واستيلاء على ثروات ، وقد بلغت حالة الفزع والرعب بين الأهالى أن الرجل كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقنوا قتله وقعدوا للعزاء فيه ، ولذا كان لا يسير أحد بمفرده مطلقاً . ويروى المؤرخون أنهم أخذوا ذات مرة أحد المؤذنين ، فلما تأخر عن العودة إلى بيته قام أهله للنياحة عليه ، فصعد الحشاشون به إلى سطح داره ، وأروه منظر أهله وهم يلطمون ويبكون ، وهو لا يستطيع أن يتكلم خوفاً منهم .

انتقام أهالى أصفهان من أعضاء الحركة :

وقد تمخضت حالة الرعب هذه التى كان يعيش فيها أهل أصفهان عن

ثورتهم ضد أعضاء الحركة ، فقتلوهم ومثلوا بهم أبشع تمثيل ، وكان الذى أدى إلى كشف أمرهم أن رجلاً دخل دار صديق له فرأى فيها ثياباً ومداسات وملابس لم يعهدها ، فخرج من عنده وتحدث بما كان ، فكشف الناس عنها ، فعلموا أنه من المقتولين ، فثارت الجماهير كافة ، وأخذت تبحث عنهم وتستكشف أمرهم ، حتى توصلوا إلى الدروب التى يقطنونها وينفذون فيها عملياتهم ، فإنهم كانوا إذا اجتاز بهم إنسان ممن يعارضونهم أخذوه إلى دار من دورهم وقتلوه ، ثم يلقونه فى بئر فى نفس الدار قد صنعت لهذا الهدف . وكان على باب درب منها رجل ضرير فإذا مر به إنسان يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب ، فيفعل ذلك ، فإذا دخل الدرب أُخذ وقُتل .

وعندما توصلت جماهير أصفهان إلى معاقلهم هذه ، تجردوا للانتقام منهم بقيادة أبى القاسم مسعود بن محمد الخجندى الفقيه الشافعى ، فقام بتنظيم ثورة الجماهير ضدهم ، وجمع الأسلحة ، وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران ، وأمر الجماهير بأن يأتوا بأعضاء الحركة أفواجاً ومنفردين ، ثم يلقونهم فى النار ، فاستطاعوا أن يقتلوا منهم عدداً كبيراً .

السبب الحقيقى وراء ازدياد نشاط الحركة :

وكان السبب الأساسى الذى أعطى الفرصة القوية لحركة الحشاشين أن توسع نشاطها ــ كما سبق أن أشرنا ــ هو انشغال بركيارق منذ توليه السلطنة بالانقسام الواقع بينه وبين أخوته ، لاسيما أن بركيارق قد سمح للحركة بممارسة نشاطها ؛ إذ كانت تقوم باغتيال كبار الشخصيات المنتمية للجبهة المعارضة له بزعامة أخيه محمد ، وتضم قائمة الاغتيالات التى قاموا بها آنئذ شحنة أصفهان « سرمز » و « أرغش » و « كمش » النظاميين وغيرهم . وتوجد بعض القرائن على أنه كانت توجد اتصالات سرية بين بركيارق والحشاشين ، حتى اتهمه أعداؤه بالميل إليهم والتعاون معهم .

وبعد انتصار بركيارق على أخيه محمد سنة (٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م) ، وقتل وزيره مؤيد الملك ، زاد نشاط الحركة ، حتى أن أعضاءها كانوا يدعون الجنود

إلى مذهبهم ، وبالفعل استطاعوا اكتساب عدد كبير منهم إلى صفوفهم ، فزادوا قوة إلى قوتهم وامتلأوا ثقة بأنفسهم ، وكانوا يهددون مخالفيهم بالاغتيال ، فكان يخشاهم الناس خشية عظيمة ، حتى لم يكن يتجاسر أحد من الجماهير بل والأمراء على الخروج من منزله حاسراً ، بل كان يلبس تحت ثيابه درعاً ، حتى أن الوزير الأعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه ، بل لقد استأذن كبار رجال الدولة وخواص بركيارق منه أن يسمح لهم بالدخول عليه مسلحين خوفاً من هجمات أعضاء الحركة ؛ فأجابهم بركيارق إلى ذلك .

انتكاسة مفاجئة لحركة الحشاشين :

وقد أدى هذا النفوذ المتزايد لحركة الحشاشين إلى شعور بركيارق بالخطر يقترب من سلطته ، سواء منها أو من غيرها ، أما منها فالأمر غير خاف ، وأما من غيرها فقد ازداد السخط على بركيارق من التيارات المعارضة لحركة الحشاشين لما كان يبديه من تسامح تجاه نشاط أعضائها .

فعقد بركيارق اتفاقاً مع سنجر حاكم خراسان ، وغيره من حكام الولايات الإيرانية بما فيهم مناوئه السلطان محمد ، على ضرورة القضاء على حركة الحشاشين فى جميع أرجاء إيران . فأمر بركيارق بقتل جميع أعضاء الحركة ، وقاد حملة القتل بنفسه ، وقد كان يتعرض للقتل كل من تحوم حوله الشبهات ، حتى قتل كثير من الأبرياء الذين سعى بهم أعداؤهم ظلماً وعدواناً ، وكان ممن اتهم باعتناق العقيدة الإسماعيلية وهى العقيدة الرسمية لحركة الحشاشين : الفقيه الشهير الكيا الهراس الذى كان يدرس بالمدرسة النظامية ، وعندما نقل هذا الاتهام إلى السلطان محمد أمر بالقبض عليه ، ولكن أرسل المستظهر بالله من يستخلصه ، فشهد الرسول له بصحة الاعتقاد وعلوّ الدرجة فى العلم ، فأطلق سراحه .

وقد شملت عملية القضاء على معتنقى العقيدة الإسماعيلية رجال السلطان نفسه ، وممن أمر بقتله منهم أحد رجاله البارزين أبى إبراهيم الأسد اباذى ، وقد كان بركيارق أرسله إلى بغداد ليأخذ مال مؤيد الملك ، فأرسل بركيارق خلفه

أمراً بالقبض عليه وقتله ، وعندما قبضوا عليه وأرادوا قتله قال لهم : « هبوا أنكم قتلتمونى أتقدرون على قتل من بالقلاع والمدن ؟ » ، فقتلوه .

وممن شملهم القتل أيضاً الأمير محمد بن دشمنزيار بن علاء الدولة أبى جعفر بن كاكويه صاحب يزد ، وقد كان استطاع الهرب فى بداية حملة القتل فسار يوماً وليلة ، وعندما طلع اليوم الثانى ضل الطريق دون أن يشعر فلم يدر إلا وهو فى وسط عسكر بركيارق ، فقتلوه .

ومن الأمراء الذين نشطوا للقضاء على أعضاء الحركة الأمير جاولى سقاووا الذى كان يحكم المناطق التى بين رامهرمز وأرّجان . وكان قد ضاق ذرعاً بعمليات الاغتيال وأخذ الأموال التى كان يقوم بها الحشاشون المستقرون فى القلاع الموجودة بخوزستان وفارس . فدبر لهم تدبيراً خفياً ؛ حيث اتفق مع جماعة من أصحابه أن يتظاهروا بالخروج عن طاعته ، فاختلقوا خلافاً بينهم وبينه وأظهروا الشغب عليه ، ثم فارقوه وقصدوا قلاع الحشاشين ، وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسماعيلية ، وأقاموا معهم فترة حتى وثقوا بهم ، ثم تظاهر جاولى بأن أمراء بنى برسق عازمون على خلعه والسيطرة على ولايته ، وأنه غير قادر على مقاومتهم ، ولذلك فإنه عازم على ترك بلاده والتوجه إلى همذان ، فلما أظهر ذلك وتوجه إلى همذان ، اقترح أصحابه المدسوسون على الحشاشين أن يخرجوا إلى طريقه ويأخذوه وما معه من أموال ، فوافقوا فساروا إليه فى ثلاثمائة من كبار رجالهم وزعمائهم ، فلما التقوا صار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ، وأخذوا يقتلونهم ، حتى لم يفلت منهم سوى ثلاثة رجال صعدوا إلى الجبل هاربين ، وغنم جاولى وأصحابه ما معهم من دواب وسلاح وغير ذلك .

وقد أرسل كذلك السلطان سنجر حاكم خراسان حملة بقيادة الأمير بزغش أكبر أمرائه إلى قهستان وطبس ، فاستطاع تدمير المنطقة والاستيلاء على خيراتها ، ثم ضرب الحصار على مركز الحشاشين الأساسى بالمنطقة ، قلعة طبس ، وضيق عليها الخناق وصدع الكثير من أسوارها ، ولم يبق له إلا

دخولها ، ولكنهم تمكنوا من رشوته برشاوٍ كبيرة ، فرفع الحصار عنهم وعاد من حيث جاء . وما إن رحل عنهم الأمير بجيوشه حتى بذلوا قصارى جهدهم فى إصلاح القلعة وتحصينها وتجهيزها بالعدة والعتاد .

ومازالت الاغتيالات مستمرة :

ولكن رغم هذه الانتكاسة التى تعرض لها الحشاشون فى أنحاء إيران ، إلا أن معقلهم الأساسى فى الشمال : قلعة ألموت ، لم يستطع أحد أن يمسها بسوء فى هذه الفترة . ومنها استطاع الحسن الصباح أن يواصل نشاطه فكان يرسل الدعاة إلى مختلف المناطق الإيرانية ، بل أرسل مبعوثيه إلى سوريا ، وكان يكلف فدائييه باغتيال الشخصيات التى كانت تجاهر بمعارضة الحركة . وممن استطاعوا اغتياله فى الفترة من ٤٩٤ حتى ٤٩٦ هـ الوزير الأعز أبو المحاسن عبد الجليل ابن محمد الدهستانى وزير السلطان بركيارق على أصفهان ، وقتلوا أيضاً أبا المظفر بن الخجندى بالرى وكان واعظاً مجيداً وصديقاً لنظام الملك ، وكان الأخير يتردد إليه ويزوره . كما اغتالوا والى بيهق ، ومفتى أصفهان ، وزعيم فرقة الكرّامية بنيسابور .

حملة جديدة على قهستان وطبس :

وفى سنة (٤٩٧ هـ = ١١٠٤ م) قاد الأمير بزغش مرة أخرى حملة جديدة إلى قهستان ، وقد التحق بهذه الحملة كثير من المتطوعين بالإضافة إلى الجنود النظاميين ، وتمكن بزغش من هزيمة الحشاشين بتلك المناطق ، واستطاع تدمير قلاعهم ، واستولى على ثرواتهم ، وسبى كثيراً من نسائهم . وقد استطاعوا عقد معاهدة أمان مع سنجر الذى استجاب لهم بناء على مشاورة أصحابه ، على أساس أن لا يحصنوا قلاعهم مرة أخرى ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم . وقد تعرض سنجر لانتقاد عنيف لعقده هذه المعاهدة معهم ؛ حيث كانت تتطلع الجماهير إلى إبادتهم تماماً .

الحركة تعاود نشاطها على نطاق واسع :

وبهذا ظن السلاجقة أنهم قد تمكنوا من ردع حركة الحشاشين ، ولكن فى الحقيقة لم يكن هذا الردع ردعاً نهائياً ، وإنما كان مجرد احتواء لنفوذها ونشاطها ، بعض الوقت ؛ حيث عاود أعضاء الحركة تقوية أنفسهم مرة أخرى وممارسة نشاطهم على نطاق واسع ؛ إذ كانوا يقومون بغارات مستمرة (سنة ٤٩٨ هـ) على عديد من المدن الإيرانية ، ولاسيما خراسان ؛ فكانوا يغيرون على أهلها ويقتلون من استطاعوا منهم ويستولون على أموالهم ويسبون نسائهم . وقد بلغ الأمر ذروته عندما أغاروا على تجمع بقرب الرى لقوافل الحج الآتية مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد ، فهجموا عليهم وقت السحر وقتلوهم تقتيلاً واستولوا على دوابهم وأموالهم ولم يتركوا وراءهم شيئاً .

وفى نفس هذا العام اغتالوا أبا جعفر بن المشاط وهو فقيه شافعى كان تلميذاً للخجندى الذى سبق لهم اغتياله ، حيث جاءه أحد الفدائيين وهو يدرس بالرى ويعظ الناس ، فقتله عند نزوله من كرسيه .

وقد تمكن الحشاشون فى بداية سنة (٥٠٠ هـ=١١٠٧م) من اغتيال فخر الملك أبى المظفر على بن نظام الملك ، وكان أكبر أولاده ، وقد تولى الوزارة سنة ٤٨٨ هـ عند السلطان بركيارق ، وعندما ترك وزارته توجه إلى نيسابور ، وأقام عند الملك سنجر بن ملكشاه ، فولاه الوزارة . ويذكر المؤرخون أنه أصبح يوم عاشوراء من هذا العام صائماً ، وقال لأصحابه : « رأيت الليلة فى المنام الحسين بن علىّ عليه السلام وهو يقول : عَجِّل إلينا وليكن إفطارك عندنا . وقد اشتغل فكرى به ، ولا محيد عن قضاء الله وقدره » . فقال له أصحابه : يحييك الله ، والصواب أن لا تخرج اليوم والليلة من دارك . فأقام يوم يصلى ، ويقرأ القرآن ، وتصدق بشيء كثير . فلما حان وقت العصر خرج من داره قاصداً دار النساء ، فسمع صياح متظلم شديد الحرقة يقول : « ذهب المسلمون فلم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف » ، فأحضره فخر

الملك عنده رحمة له ، فقال له : « ما حالك ؟ » ، فدفع إليه رقعة ، فبينما فخر الملك يتأملها إذ ضربه بسكين فقتله .

وقد علا فى هذه الفترة كعب الجناح الألموتى بأصفهان بقيادة أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، إذ كانوا يسيطرون على قلعة شاه ديز — التى سبق الإشارة إليها — فكانوا يقومون بعملياتهم المشهورين بها من قتل واستيلاء على أموال ، وغير ذلك ، وقد بلغوا من القوة مبلغاً جعلهم يفرضون الضرائب على ممتلكات الأهالى فى جميع القرى المحيطة بهم ، فكان الناس يؤدون إليهم هذه الضرائب خوفاً من بطشهم . وكان السبب الذى شغل السلطات السلجوقية عنهم آنئذ — كما سبق الإشارة غير مرة — هو الصراع والصدام المستمرين بين السلطان بركيارق والسلطان محمد.

هجوم السلطان محمد على قلعة شاه ديز :

ويعد موت بركيارق وهو فى سن مبكرة خلت الساحة أمام السلطان محمد من كل خطر إلا الخطر الإسماعيلى المتمثل فى حركة الحشاشين ؛ فقرر القيام بحملة عسكرية للقضاء عليهم أو على الأقل لاحتوائهم والحد من خطرهم . فأول معاقلهم التى رأى البداية بمهاجمتها قلعة شاه ديز القريبة من أصفهان مقر ملكه ، فعزم على الخروج إليها فى أول رجب ٥٠٠ هـ ، ولكن تأخرت الحملة بعض الوقت نتيجة لبعض الخدع التى قام بها مؤيدو الحركة المنبثون داخل جيشه ، فزعموا أن قلج أرسلان بن سليمان قد أتى بغداد واستولى عليها ، واختلقوا بعض المراسلات لتأكيد هذا الخبر . كما زعموا حدوث بعض الاضطرابات فى خراسان . فأجّل السلطان محمد خروج الحملة حتى يتبين حقيقة الأمر ، فلما أدرك أنه لا يعدو أن يكون مناورة من أجل تثبيطه عن الخروج إلى شاه ديز ، خرج بجيشه فى السادس من شهر شعبان ، فصعد جبلاً يقابل القلعة من غربها ، وقد لحق به جمع كبير من المتطوعين من أهل أصفهان ، فحاصر جبل القلعة ، ونسق بين أمرائه بحيث كان يقاتلهم كل يوم أمير ؛ فطال الحصار وشحت المؤن داخل القلعة حتى ضاق الأمر بأهلها وبلغت القلوب الحناجر ، هنا قام أحمد بن عبد الملك بن عطاش بمناورة ذكية ؛

إذ استطاع أن يشغل خصومه بخلاف عقائدى لفترة من الوقت تمكن خلالها من التقاط أنفاسه ، فأرسل إلى السلطان وفقهائه رسالة نصها : « ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين فى قوم يؤمنون بالله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق ، وإنما يخالفون فى الإمام — هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم ، وأن يقبل طاعتهم ، ويحرسهم من كل أذى ؟ » ، فاستشار السلطان فقهاءه الذين تباينت فتاويهم ، ولكن كان أكثرهم على جواز ذلك ، واتخذت فئة قليلة منهم موقف الرفض ، بينما توقف فريق ثالث ؛ فجمعهم السلطان للتناظر فى المسألة ، وكان فيهم فقيه من فقهاء الشافعية يبدو أنه كان رجلاً داهية وهو أبو الحسن على بن عبد الرحمن السمنجانى ، فقال : « يجب قتالهم ، ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ، ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين ؛ فإنهم يقال لهم : أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع ، أو حظر عليكم ما أباحه الشرع ، أتقبلون أمره ؟ فإنهم يقولون : نعم . وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع » .

ولما لم تنته المناظرة إلى موقف محدد إزاءهم ، استمر الحصار ، ونجح أحمد ابن عطاش مرة أخرى فى إطالة أمد المناقشات ، حيث طلب من السلطان أن يرسل إليه فى القلعة مجموعة من الفقهاء حددهم بأسمائهم للتناظر ، وكان من هؤلاء الفقهاء القاضى أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصفهان وقاضيها ، وبالفعل صعدوا إلى القلعة وتناظروا معهم ، ولكن المناظرة لم تنته إلى شئ وعاد الفقهاء من حيث جاءوا ؛ فاستمر الحصار . وحاول أحمد بن عطاش أن يخوض جولة ثالثة من المفاوضات مع السلطان ، فاقترح تسليم قلعة شاه ديز على أن يأخذوا بدلاً منها قلعة خالنجان التى تبعد سبعة فراسخ من أصفهان ، وعلل أحمد طلبه هذا بقوله : « إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلابد من مكان نحتمى به منهم » ، فاستشار السلطان رجاله فأشاروا عليه بالموافقة ، وقد اشترط ابن عطاش أن لا يستمع السلطان إلى رأى أعدائهم ، وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم ، وأن من أتاه منهم رده إليهم وأن يمدهم بالغذاء يوماً بيوم ، فوافق السلطان على كل ذلك .

ولكن ابن عطاش لم يكن يقصد بكل هذه المفاوضات إلا أن يفتح ثغرة يستطيع معها أن يرسل رجاله لكى يشتروا كل ما تحتاج القلعة إليه من طعام ومؤن حتى يمكنهم أن يواصلوا الصمود أمام الحصار أكبر فترة ممكنة عسى أن تأتيهم الإمدادات من باقى أجنحة الحركة فى إيران أو يحدث من الأمور ما يجعل السلطان يتراجع عن الحصار . وأثناء هذا كلف ابن عطاش أحد فدائييه بقتل أكبر أمراء السلطان عداوة وقتالاً لهم ، فاستطاع الفدائى أن يطعنه ، ولكنه جُرِح فقط ونجا من موت محقق .

بهذه العملية الفدائية انتهت هذه المرحلة من المفاوضات ، حيث جدد السلطان حصارهم وتضييق الخناق عليهم ، هنا لم يجد ابن عطاش غير المفاوضة على التسليم ، فطلب من السلطان أن تذهب مجموعة منهم فى حماية السلطان إلى قلعة الناظر وهى إحدى قلاعهم ، وتذهب مجموعة أخرى إلى قلعة طبس وهى من قلاعهم أيضاً ، على أن تظل الطائفة المتبقية فى جناح من أجنحة القلعة حتى يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم إلى قلعتى الناظر وطبس وهنا يرسل السلطان مع الطائفة المتبقية من يحميها حتى تصل قلعة ألموت المركز الرئيسى للحركة والذى إليه نسبتها . فوافق السلطان على هذا الاقتراح ، وبالفعل تم التنفيذ ، فوصلت المجموعتان إلى حيث أرادتا ، ووصل خبر ذلك إلى ابن عطاش ، ولم يبق إلا أن ينفذ هو المرحلة الأخيرة من الاتفاق ، ولكنه لم يفعل ؛ وكان قد قام بتحصين الجناح الذى يقطنه هو ورجاله البالغ عددهم ثمانين رجلاً ، وأعدَّ العدة للمقاومة والصمود . فتوجهت إليهم حملة كبيرة للهجوم عليهم فى ثانى ذى القعدة ، وتم الهجوم ولكنهم استبسلوا وصمدوا صموداً عظيماً . بيد أن أحد زعمائهم كان قد انحاز إلى السلطان فخانهم ودل على موطن الضعف فيهم ، حيث أرشدهم إلى سور لم يكن يخطر على بال قواد الهجوم أن يهجموا من جهته ، وقال لهم : « اصعدوا من ههنا » ، فقالوا له : « إنهم قد ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال » ، فقال : « إن الذى ترون أسلحة وكزاغندات قد جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم » ، فهجموا من هذا الموضع ، واستطاعوا السيطرة على الموقع ، وقتلوا معظمهم ، أما القلة التى نجت فقد اختلطت مع من دخل ثم خرجوا معهم . وقد ألقت زوجة ابن

عطاش بنفسها من أعلى القلعة وهى متحلية بجواهرها الثمينة فماتت على الفور . أما ابن عطاش فقد أخذوه أسيراً ، وسجنوه لمدة أسبوع ، ثم شهروا به في أرجاء المدينة ، وسلخوا جلده ، وحشوه تبناً ، كما قتلوا ابنه أيضاً وحُملت رأسا الاثنين إلى بغداد .

هجوم واسع النطاق على معظم قلاع الحركة :

ولم يتوقف الحملات السلجوقية عند هذا الحد ، بل شملت معظم قلاع الحركة في شرق وغرب وشمال إيران ، فتمكن سنجر من احتواء جناح الحركة بقهستان ، وسقطت قلعة أرجان ومعظم القلاع المتمركزة بين فارس وخوزستان .

كذلك فقد عمل السلطان محمد على تطهير جيشه ودواوينه من الذين تحوم حولهم شبهة الانتماء إلى الحركة ، حتى أنه قتل في نفس العام (٥٠٠ هـ) أربعة من كبار الشخصيات العامة ؛ حيث اتهمهم باعتناق العقيدة الإسماعيلية .

فشل الهجوم على قلعة ألموت :

أما الجهد الأكبر فقد ادخره السلطان محمد لمهاجمة المعقل الأساسي ونقطة الانطلاق الأولى للحركة ، أعنى قلعة ألموت التى يستقر فيها مؤسس الحركة وزعيمها حسن بن الصباح . ففى عام ٥٠٣ هـ وفى شهر المحرم وجه إليها السلطان حملة بقيادة وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك ، وأظن أنه ليس يخاف على القارئ حجم الكراهية والرغبة فى الانتقام التى كانت تملأ قلب الوزير إزاء حركة ألموت ، فقد سقط أبوه نظام الملك وأخوه فخر الملك ضحايا لخناجر فدائى الحركة . فشن الوزير على القلعة وما يجاورها من مناطق تابعة لها هجوماً ضارياً ، ودمر المحاصيل ، ومنع عنهم الإمدادات ، حتى ضاق الأمر بمن في القلاع حتى كانوا يعيشون على أكل الحشائش ، ولم تستطع النساء والأطفال الصمود إزاء هذا الحصار فقام الحسن بنقلهم إلى مناطق أخرى ، كما نقل زوجته وبناته إلى قلعة كردكوه ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز .

ولكن عندما أتى الشتاء بجليده وزمهريره لم تستطع قوات الوزير أحمد البقاء ، فعادت دون أن تحقق غرضها بشكل نهائى .

انتقام حسن الصباح من قائد الهجوم :

وبطبيعة الحال لم يكن الحسن بن الصباح ليقف مكتوف الأيدى تجاه ما يحدث لأنصار دعوته وقلاعه ، فأمر أحد فدائييه الأكفاء باغتيال الوزير ، وبالفعل قام الفدائى فى شهر شعبان من نفس العام (٥٠٣ هـ) بطعن الوزير بالخنجر أثناء توجهه إلى الجامع ، فجرح الوزير فى رقبته ، وظل فترة طريح الفراش ، ثم قام سالماً ، وقد أخذ الفدائى الذى طعنه فسقاه خمراً حتى سكر ، ثم سأله عن رفقائه ، فدل على مجموعة منهم بمسجد المأمونية ، فقبضوا عليهم وقتلوهم .

اغتيال قاضى أصفهان ونيسابور :

وقبل ذلك بقليل كان قد استطاع أحد الفدائيين قتل الخصم اللدود للحركة عبيد الله الخطيب قاضى أصفهان رغم أنه كان يرتدى درعاً تحت ثيابه ، وكان له حارس خاص ، وكان حذراً أشد الحذر فى كل تحركاته ، بيد أن الفدائى استطاع أن يطعنه طعنة قاتلة أثناء أدائه لصلاة الجمعة بجامع همذان . كما تمكن فدائى آخر فى شهر رمضان من اغتيال قاضى نيسابور . وتضمنت قائمة الاغتيال فى هذه الفترة عدداً آخر من كبار الشخصيات المدنية والدينية .

محاولة إسقاط قلعة ألموت وغيرها :

وقد عاود السلطان إرسال حملاته إلى قلعة ألموت وغيرها من قلاع الحشاشين ، وعمل على إثارة أهل المناطق المجاورة ضد الحشاشين ، وحاول إقناعهم بالاشتراك فى الهجوم على القلعة ، مما أوقع هؤلاء فى حيرة لا مخرج منها ، فقد كانوا بين نارين ، يخشون بطش السلاجقة فى نفس الوقت الذى يرتعبون فيه من مؤامرات الحشاشين .

وقد كانت ترجع كل حملة من الحملات التى يرسلها السلطان دون أن

تستطيع الاستيلاء على القلاع ، وكان كل ما يمكنها فعله هو تدمير المحاصيل واستنزاف ما يمكن استنزافه من عدة وعتاد .

فلما وجد السلطان محمد مناعة قلاع الحشاشين ، قرر إرسال جيش حوالى سنة ٥٠٥ هـ بقيادة الأمير أنوشتكين شيركير أمير آبة وساوة وغيرهما ، وأمره بمحاصرة القلاع بشكل دائم ، فاستطاع الاستيلاء على عدة قلاع ، منها قلعة كلام فى جمادى الأولى فى نفس العام ٥٠٥ هـ ، وكان زعيمها يعرف بعلى بن موسى ، فأعطاه أنوشتكين الأمان هو ورجاله وسمح لهم بالتوجه إلى ألموت . ثم استولى الأمير على قلعة بيرة ، وهى تبعد عن قزوين حوالى سبعة فراسخ ، وقد أعطى الأمير الأمان لسكانها أيضاً وسمح لهم بالتوجه إلى ألموت .

وفى سنة ٥١١ هـ توجه أنوشتكين بجيشه إلى المعقل المركزى ألموت ، وقد أمده السلطان بعدد من الأمراء ، فقام ببناء مساكن له ولجنوده فى المناطق المجاورة للقلعة ، وناوب بين الأمراء ، فكان يجعل كل مجموعة تقيم فترة ثم ترحل للاستجمام وتعود ، أما هو فكان ملازماً للحصار بنفسه طوال الوقت . وكان السلطان محمد يمده باستمرار بما يحتاج إليه من جنود وتموين وأسلحة .

واستمر هذا الحصار فترة طويلة ، حتى ضاق الأمر على الحسن الصباح وأتباعه ، وكاد ينعدم عندهم الطعام والشراب ، وكان الحسن يوزع عليهم الطعام توزيعاً مقنناً حتى يضمن الصمود أكبر مدة ممكنة ، فكان يعطى لكل فرد رغيفاً وثلاث جوزات فى اليوم ، فلما اشتد بهم الأمر كانوا يأكلون الحشيش وأنزلوا نساءهم وأبناءهم ليطلبوا الأمان والسماح لهم ولرجالهم بالخروج ، فلم يستجب أنوشتكين لمطلبهم وأعادهم إلى القلعة بهدف أن يموت الجميع جوعاً .

وكان سير الأحداث يدل على دنو استيلائهم على القلعة لولا أن خبر وفاة السلطان محمد وصل إليهم فاستبشر الحسن وأتباعه ، وقرر الأمراء المحاصرون العودة وفك الحصار ، ولكن أنوشتكين كان أبعد نظراً فقال : « إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر ،

والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها ، وإن لم يكن المقام فلابد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددناه ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو » ، فلما استمع الأمراء إلى رأيه تبين لهم صوابه ، فوافقوا عليه ، ولكن عندما أتى المساء نقضوا ما اتفقوا عليه ، فرحلوا دون استشارة أنوشتكين ، ولم يبق إلا هو وجنوده ، فنزل إليه الحسن وأتباعه فهاجموه ، فصدهم حتى أمّن جنوده ورحل عن المنطقة ، فاستولى الألموتيون على ما خلفه الجيش وراءه من مؤن وذخائر .

وتشير بعض القرائن إلى أن هناك دوراً خفياً قام به الوزير قوام الدين نصير ابن على الدرجازينى فى انسحاب جيش أنوشتكين ، فقد كان هذا الرجل يعتنق سراً العقيدة الإسماعيلية ، واستطاع أن يؤثر على السلطان محمود خليفة السلطان محمد ، كما سعى بأنوشتكين عنده ، فسجنه ثم أمر بإعدامه .

الحسن يعيد تنظيم صفوف الحركة :

وبعد هذه الانتكاسات المتعاقبة التى تعرضت لها حركة الحشاشين ، أمكنها أن تلتقط أنفاسها بعد وفاة السلطان محمد ؛ حيث اشتعلت المنافسات وازدادت حدة بين أمراء وحكام السلاجقة ، مما أدى إلى انشغالهم بأنفسهم بعض الوقت الأمر الذى أتاح للحسن الصباح أن يعيد تنظيم صفوفه ، لا فى ألموت فقط وإنما فى سائر قلاع الحركة فى قهستان وطبس وكردكوه وأرجان وغيرها . وأمكن للحسن أن يواصل عملياته التى اشتهر بها فى اغتيال الشخصيات المناوئة للحركة على يد فدائييه المدربين .

استمالة السلطان سنجر :

وقد نجح الحسن فى استمالة السلطان سنجر الذى كان دائب التعقب للإسماعيليين ، فحاول أولاً أن يستميله بإرسال الرسائل والسفراء ، فلم يستجب ، لأنه كان يشك فى صدق رغبة حسن الصباح فى طلب السلام ، ولذلك لجأ الحسن إلى عملية بالغة الدهاء اقتنع معها السلطان بجدية الحسن فى

إرساء جسور السلام بينهما ، حيث كلف الحسن أحد غلمان السلطان بعد أن أعطاه مبلغاً كبيراً من المال ، أن يغمد خنجراً فى وسادة السلطان ، وبالفعل نفذ الغلام ذلك أثناء نوم السلطان وهو سكران ، ووضع بجانب الخنجر رسالة من الحسن الصباح إلى السلطان نصها كما جاء فى كتاب (البستان) الإسماعيلى : « أيها السلطان المغرور ، لا تفكر إذا كان الحسن بن الصباح بعيداً عنك يعيش فوق صخرة ألموت ، غير قادر على الوصول إليك ، ثق أن من تمكن من أن يضع هذا الخنجر فى وسادتك ، لقادر على غمسه فى فؤادك ، إلا أننى رأيت الرجل الطيب الصالح متجسداً فيك ، فأحببت أن أستبقي عليك لفرصة أخرى ؛ فقد أعذر من أنذر ، والسلام على من اتبع الهدى ، وخشى عواقب الردى » .

بعد أن وجد السلطان الحال هكذا وقرأ الرسالة ، تأكدت لديه رغبة الحسن الحقيقية فى السلام ، فأوقف حملاته ، وكف عن إيذائهم ؛ مما أعطاهم فرصة ممتازة لتدعيم قلاعهم والأقاليم التى يسيطرون عليها ، وقد ركزوا جل اهتمامهم على هذا الهدف ، وخففوا من عملياتهم الفدائية والتخريبية ضد مخالفيهم . ولذا فقد عاشوا فى هدوء نسبى فى هذه الفترة من الحكم السلجوقى ، حتى استطاعوا تكوين إمارات مستقلة .

مدى مسؤولية الحركة عن مقتل أمير الجيوش بمصر :

وفى سنة (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) حدثت بعض الأحداث الخارجية التى كان لها تأثير على حركة الحشاشين فى إيران ، إذ قُتل فى الثالث والعشرين من رمضان أمير الجيوش بمصر الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان مشهوراً بالعدل بين الناس والتسامح إزاء المخالفين فى العقائد ، حتى أنه كان يأذن فى إجراء المناظرات العقائدية والحوارات الفكرية ، مما شجع كثيراً من أهل البلاد الأخرى أن يأتوا إلى مصر .

وتختلف المصادر التاريخية فى تحديد المسؤول عن اغتياله ، فمنها من يشير إلى فدائيى ألموت وعملائهم ، ومنها من يشير إلى الخليفة الفاطمى بمصر الآمر

بأحكام الله ، وهذه الرواية الأخيرة يؤكدها جمهرة المؤرخين ؛ لأنه كان هناك صدام بينهما ؛ إذ كان أمير الجيوش الأفضل صاحب نفوذ كبير وشخصية قوية حتى أنه كان يفرض وصايته على الخليفة الآمر بأحكام الله ، مما كان ينغص عليه حياته ؛ فقرر التخلص منه بمساعدة أبى عبد الله بن البطائحى كاتم أسرار الأفضل ، الذى تولى بعده الأمر ولقب بـ « المأمون » .

وقد ابتهج الحشاشون الممثلون لجناح الإسماعيلية النزارية ابتهاجاً كبيراً لمقتل الأفضل ، كما لم يستطع الخليفة الفاطمى الآمر الممثل لجناح الإسماعيلية المستعلية أن يخفى سروره تجاه الحدث . وحاول الخليفة ووزيره الجديد المأمون أن ينتهزا الفرصة لاستمالة حركة الحشاشين إليهما وإقناعها بالعدول عن تأييد إمامة نزار ولكن جاءت الأخبار بأن زعامة ألموت قد عقدت العزم على اغتيال الآمر والمأمون ، وأن الحركة شرعت فى الإعداد للمؤامرة والعمل على تنفيذها . فاتخذ المأمون إجراءات أمن داخلية وخارجية لم تشهد البلاد لها مثيل ، وبث جواسيسه فى كل مكان ، حتى قيل أنه لا يخفى عليه شئ مما يجرى فى الدولة .

حرق جامع أصفهان الشهير :

هنا نعود مرة أخرى إلى إيران ، حيث عاود الحسن بن الصباح تكليف فدائييه بعمليات الاغتيال والتخريب للانتقام من معارضيه وإرهاب من يجرؤ على مهاجمته . ففى سنة (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) قامت مجموعة من الفدائيين بحرق جامع أصفهان البالغ العظمة والذى كان مركزاً للتيار السنى .

اغتيال الوزير السميرمى :

وفى سنة (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) قامت مجموعة أخرى من الفدائيين باغتيال الوزير الكمال أبى طالب السميرمى وزير السلطان محمود . وكان ذلك عندما خرج مع السلطان إلى همذان ، وفى أثناء سيره فى موكب عظيم ، وعندما أتى الموكب عند طريق ضيق فيه حظائر من الشوك ، اضطر مرافقوه للتقدم بسبب ضيق الموضع ، فوثب عليه فدائى فضربه بسكين فوقعت فى البغلة التى يركبها ،

وهرب الفدائى فتبعه الحراس ، فخلا المكان فظهر فدائى آخر فطعنه بسكين فى خاصرته ، ثم جذبه عن البغلة ، وطعنه عدة طعنات . وعندما عاد رجال الوزير هاجمهم فدائيان فاستطاعا ردهم ، ثم عادوا وقد وجدوا الوزير مذبوحاً . وتمكنت السلطات من القبض على قاتليه الذين قُتلوا بدورهم .

نهايــة المطــاف :

كان الحسن الصباح أثناء تلك الفترة ، وعلى مدى خمسة وثلاثين عاماً ، ممتنعاً فى قلعة «ألموت» معقله الحصين ومركز سلطانه ، وقد استطاع منها أن يدير ببراعة دفة دولة صغيرة منشقة على الحكم السنى ، وهى دولة من نوع خاص ، يتمتع فيها زعيمها قبل كل شيء بصفة القائد الروحى ، الذى يستند فى سلطانه إلى قوة خفية جبارة قوامها جيش من الدعاة المحنكين والفدائيين المتعصبين ، الذى يتشحون بأثواب من الزهد والورع ، ويهدفون إلى غزو الأذهان والعقول ، ويعتمدون على سلاح المؤامرة والغيلة ، ويفتحون الطرق أمام تعاليمهم الباطنية بالخناجر المستورة .

وقد عاش الحسن فى ألموت فى عزلة تامة ، ويذكر بعض المؤرخين أنه لم يخرج منها طيلة حكمه سوى مرتين اثنين . وكان يقضى وقته فى التفكير والتأمل والقراءة ، وتدوين ما انتهى إليه فكره فى مصنفات عديدة تنظِّر وتدعم العقيدة الإسماعيلية ، أو ترد وتفند آراء الفرق المخالفة له .

وللأسف الشديد كان مصير هذه المؤلفات الدمار عندما اقتحم التتار القلعة فيما بعد . ولكن كان للشهرستانى عالم الأديان والفلسفات القدير ، والذى كان معاصراً للحسن الصباح منذ صعوده إلى ألموت حتى وفاته ، أقول كان له الفضل فى حفظ خلاصة لتعاليمه المسماة بـ « الفصول الأربعة » ، كما حفظ لنا مؤرخو أهل السنة شذرات من سيرته الذاتية ، بالإضافة لما ظل محتفظاً به كمقتطفات فى الكتب الإسماعيلية التى اقتبست بعضاً من آرائه . ولا شك أن تلك « الفصول الأربعة » التى ترجمها الشهر ستانى عن الفارسية ، تدل على قدرة الحسن الجدلية وتعمقه المتميز فى فهم أصول مذهبه .

ولقد كان الحسن يحرص جد الحرص على إحاطة زعامته الدينية بجميع مظاهر القداسة والتبجيل ؛ ولذا فإنه كان يبدو زاهداً قانعاً لا يعرف البذخ والترف ، ويشتد فى تطبيق أحكام الشريعة ، أما الخمر والموسيقى وسائر ألوان الملاهى والملاذ المحرمة فكان لا يجرؤ أحد من أتباعه على اقتراف شىء منها نتيجة للحظر الشديد الذى فرضه الحسن على تلك الأشياء .

وكانت إدارة الحسن لشؤون حركته إدارة حازمة أشد مايكون الحزم ، حتى أن أولاده كانوا لا يملكون إلا الأخذ بسيرته ، واقتداء طريقه ، والامتثال لأوامره .

وكان يضع مصلحة الحركة العامة فوق كل شىء وقبل أى شىء ، ولم يكن يتوانى لحظة فى تنفيذ تعاليم الدستور التى كانت الحركة تعمل من خلاله ، وفى سبيل هذه التعاليم لم تحل عاطفة الأبوة بينه وبين قتل ابنه الحسين لاتهامه بالاشتراك فى قتل أحد دعاته المقربين ؛ ذلك أن الحسين فكر حيناً من الزمن فى أن يخلف أباه فى مركزه ، وحاول أن يقنع أباه بأن يعلنه كخليفة له ، ولكن الحسن لم يتقبل هذا الأمر ، وزجر ابنه زجراً شديداً .

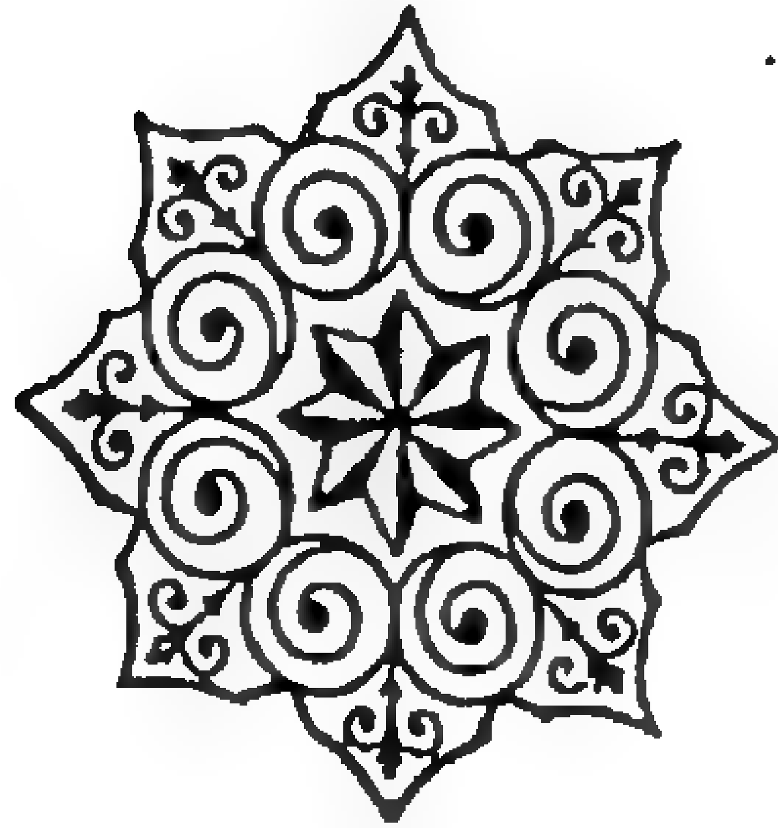
فاهتمّ ابنه لذلك اهتماماً بالغاً ، حتى أنه تحدث بالأمر إلى أحد الدعاة الذين كان يصادقهم ، وهو زيد الحسينى ، فأخذ هذا الأخير للدعوة له كخليفة بين الفدائيين ، وفى أثناء ذلك قَدِم أحد الدعاة الكبار إلى القلعة لكى يقدم تقريره السنوى إلى الحسن الصباح ، فقيل إن الحسين وزيداً تآمرا على هذا الداعية لخلافات كانت بينهما وبينه ، فقتلوه . وعندما أجرى الحسن تحقيقاً فى الحادث فظهرت له المؤامرة ، فأعدم ابنه الحسين وزيداً فى الحال . وكان لهذا العمل الحازم تأثير كبير على أتباعه ؛ حيث زاد إيمانهم بمصدقية الحسن الصباح ؛ فهاهو يعدم ابنه الأكبر فى سبيل مبادىء الحركة .

ولم يكن قتله لابنه الأكبر هو الدليل الوحيد على حزمه فى تطبيق مبادىء الحركة ؛ فقد أعدم ابنه الثانى ؛ لأنه وجده يشرب الخمر . وطرد أحد دعاته من القلعة لأنه كان يتسلى بالعزف على الناى .

وفى الأيام الأخيرة لحسن الصباح كان معظم أكابر دعاته صرعى ؛ فقد كان القدر يأخذهم واحداً بعد الآخر ، مما يكن يزيد فى عزلته ؛ مما زاد فى طبعه قسوة وصرامة فوق ما كان عليه من قبل .

وفى ربيع أول سنة ٥١٨ هـ مرض الحسن مرض الموت ، ولمّا أحس أنه على أعتاب الرحيل اختار لخلافته رجلاً من كبار دعاته كان يثق به ويقدره لإخلاصه فى نشر الدعوة وتفانيه فى الالتزام بتعاليمها فضلاً عما كان يتمتع به من علم بأصول المذهب الدقيقة تمتعاً يؤهله لخلافة الصباح ، وهذا الرجل كان « برزك آميد » مندوبه فى قلعة « لاماسار » ، فاستدعاه وعهد إليه بخلافته فى تسيير سياسات الحركة ، وحث جميع أتباعه على طاعته والامتثال لأوامره .

وبالفعل صدق حدْس الحسن فى توقعه لموته؛ ففى ٦ ربيع ثان سنة ٥١٨ هـ وافته المنية بعد حياة مديدة وعميقة ومؤثرة ، شق خلالها إلى الرئاسة والزعامة طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر ، وتمكن فيها من إرساء دعائم حركة مثيرة ، مزودة بأسباب البقاء والاستمرارية ، موفورة القدرة على مغالبة الأحداث الجسام ، قادرة على بث الرعب والفزع فى القلوب بما تلجأ إليه من أساليب دموية ووسائل مكيافيلية .



حركة الحشاشين فى إيران
بعد رحيل الحسن الصباح

- تتابع عمليات الاغتيال .
- اغتيال الخليفة العباسى المسترشد .
- اغتيال الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله .
- عهد الإمام محمد المهتدى .
- القاهر بقوة الله .
- إعلان القيامة والتحرر من تعاليم الشريعة وسقوط الفرائض !
- الحشاشون فى مواجهة التتار .

حركة الحشاشين فى إيران
بعد رحيل الحسن الصباح

واكبت الفترة التى أسس فيها الحسن الصباح حركة الحشاشين «= الدعوة الجديدة » إمامة ثلاثة من أئمة الإسماعيلية ، هم : الإمام المستنصر ، والإمام نزار ، ثم الإمام على الهادى .

وتذكر الروايات الإسماعيلية أن الإمام الأخير صلى صلاة الجنازة على الحسن الصباح عند دفنه فى قلعة ألموت الشهيرة .

وقد تولى منصب كبير الدعاة بعد الحسن الصباح الداعية « بزرك آميد » الذى سار على نفس الخط الذى سار فيه خلفه الكبير الحسن الصباح .

وبعد رحيل الحسن ، ظن السلطان سنجر أن قوة الحركة قد ضعفت بذهاب زعيمها ومؤسسها ، فنقض معاهدة السلام التى كان قد عقدها مع الحسن من قبل . وبإيحاء من وزيره المختص أبى نصر أحمد بن الفضل ، أرسل السلطان حملات متعددة إلى مختلف مناطق تمركز الحركة ، وأصدر أوامر صارمة إلى جنوده بقتل أفراد الحركة أينما ثقفوا ، ومصادرة أموالهم ، وسبى نسائهم . فوجه الجيش الأول إلى طريثيث بقهستان ، فاستطاع جنوده إلحاق الهزيمة بأهلها ، حيث تمكنوا من قتل الكثير منهم ، وصادروا ما استطاعوا حمله من أموالهم .

أما الجيش الثانى فوجهه إلى بيهق إحدى ولايات إقليم نيسابور ، وكان للحشاشين قرية خاصة بهم فى الولاية تدعى طرز ، ويرأسهم فيها الداعى

الحسن بن سمين ، فهجم الجنود على القرية وقتلوا كل من وجدوا بها ، ولكن استطاع رئيسهم الفرار وصعد إلى منارة المسجد ، ثم ألقى بنفسه منها ، فمات على الفور .

أما الجيش الثالث ، فقد وجهه إلى رودبار فى الشمال ، حيث لم يحرز نجاحاً وعاد خاسئاً وهو حسير ، إذ انتصر الحشاشون عليه وغنموا منه الشئ الكثير .

ولم تحل هذه الحملات من استمرار نشاط الحركة الألموتية بمختلف فروعها الإيرانية ، فقد تمكن مجموعة من الفدائيين فى نفس العام ٥٢٠ هـ من قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقى صاحب الموصل فى يوم الجمعة ثامن ذى القعدة وهو يصلى الجمعة بجامع الموصل . ويذكر المؤرخون أنه كان قد رأى تلك الليلة فى منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه الباقى ما أذاه ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : « لا أترك الجمعة لشئ أبداً » ، فحاولوا منعه من صلاة الجمعة ، لكنه رفض وأصر على أداء الصلاة ، فأخذ المصحف يقرأ فيه ، فأول ما وقعت عليه عيناه : ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ، وعندما كان يؤدى الصلاة فى الصف الأول وثب عليه بضعة عشر من الفدائيين عددهم عدة الكلاب التى رآها فى المنام ، فطعنوه بالخناجر ، فقُتل بعد أن جرح بيده هو ثلاثة منهم ، وقد كان رجلاً عدلاً عابداً متهجداً يحب العلم والعلماء .

كان هذا فى نفس العام ــ كما سبق أن أشرنا ــ الذى وجه فيه السلطان سنجر حملاته إلى معاقل الحركة الألموتية بإيحاء من وزيره أبى نصر معين الملك . وما إن مر هذا العام ، وجاء العام الذى يليه وهو ٥٢١ هـ ، حتى تمكن فدائيو ألموت من الانتقام من الوزير معين الملك الذى كان يعاديهم عداوة لا هوادة فيها ، فاغتالوه بأسلوبهم المعهود طعناً بالخناجر .

وإزاء هذا التحدى الصارخ للحكم السلجوقى الذى بلغ ذروته بمقتل الوزير معين الملك ، قام السلطان سنجر بتوجيه ضربة قاسية إلى معقل الحركة

الأساسي قلعة ألموت ، حيث تمخضت هذه الضربة عن مقتل عشرة آلاف أو يزيدون من أعضاء الحركة .

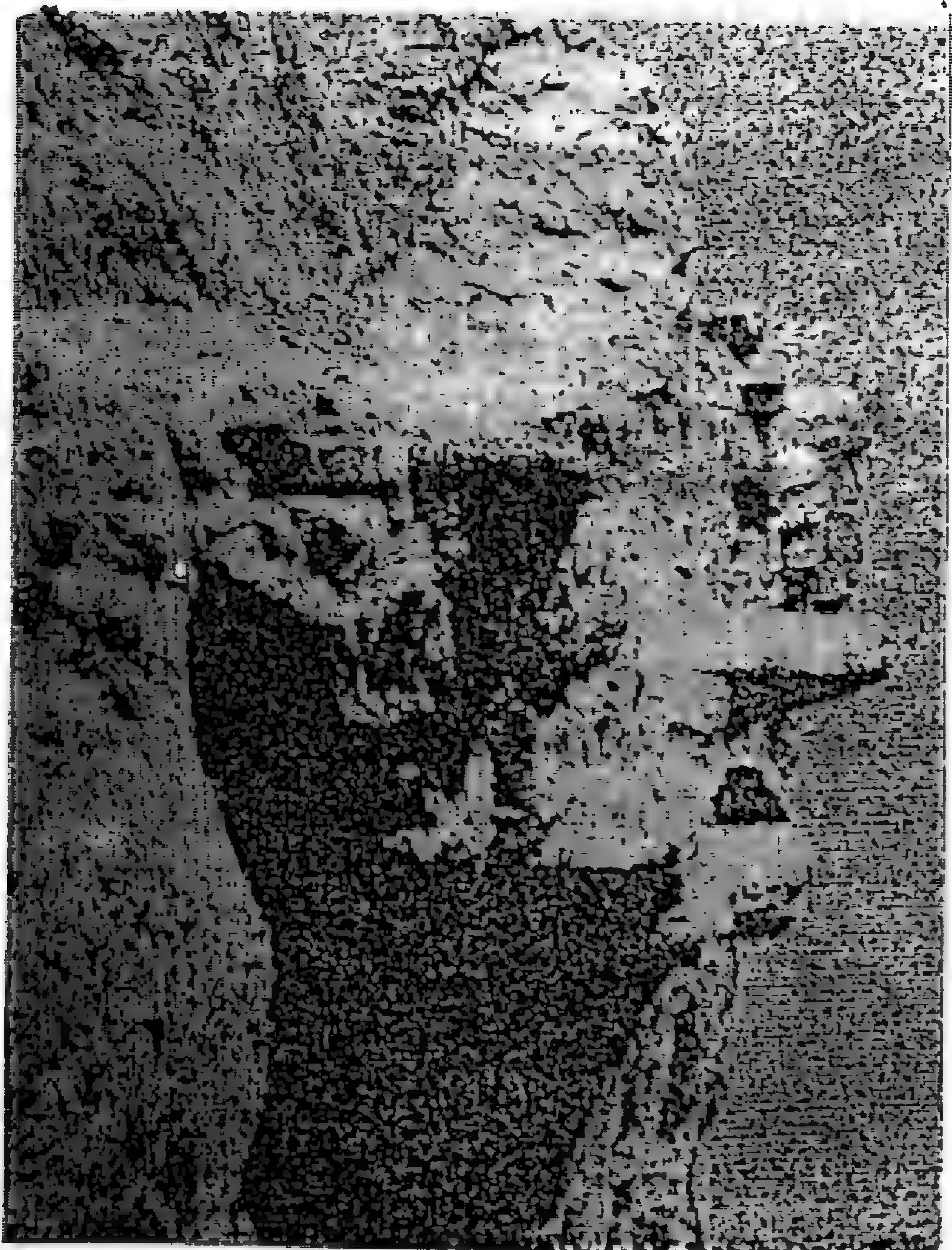
ولكن رغم هذه الأزمة التى لحقت بهم استطاعوا تدعيم قوتهم فى مناطق أخرى ، مثل قهستان ، وطالقان ، وردوبار التى أنشأوا فيها قلعة ميمون ديز .

وقد دارت مفاوضات سلام سنة ٥٢٣ هـ بينهم وبين السلطان محمد بأصفهان ، وحضر ممثلان لحركة ألموت للتفاوض مع السلطان ، ولكن عند خروجهما من قصر السلطان هجمت عليهما الجماهير ولم تتركهما إلا وقد فارقا الحياة . وعندما حاول السلطان إظهار أسفه ونفى مسؤوليته عن الحادث طلب منه زعماء ألموت أن يقتص من القتلة ، فرفض .

ولما لم يقم السلطان بتوقيع أية عقوبة على القتلة ، قام فدائيو الحركة برد سريع ؛ حيث اغتالوا رأساً كبيراً يتمتع بمكانة مرموقة بين الجماهير ، وهو عبد اللطيف بن الخجندى شيخ الشافعية بأصفهان . ولم يكتفوا بهذا الرد ، بل قاموا برد آخر واسع النطاق ، فهاجموا قزوين ، وتمكنوا من قتل أربعمائة فيهم أحد الأمراء السلاجقة ، كما استولوا على كثير من الغنائم .

وقد انتعشت فى هذه الفترة عمليات فدائيى الحركة ، إذ أمكنهم القيام باغتيال عديد من الشخصيات الهامة ليس فى داخل إيران فقط ، وإنما أيضاً خارجها فى سوريا ومصر ، أما سوريا وعملياتهم فيها فسنفرد لها فصلاً خاصاً ولذا فنحن نرجىء الكلام عنها إلى ذلك الفصل . أما فى مصر فقد اغتالوا سنة ٥٢٤ هـ فى الثانى من ذى القعدة الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله أبا على بن المستعلى أثناء عودته من إحدى منتزهاته . وقد سبق أن ألمحنا إلى أن حركة الحشاشين كانت لا تعترف بشرعية تولى الآمر وأبيه من قبله للخلافة الفاطمية ، وإنما كانت تؤيد إمامة نزار . ولذا فقد خططت منذ وقت مبكر لاغتياله ، وهاهى ذى قد نجحت .

وبعد هذه العملية الكبيرة لفدائيى ألموت ، استطاعوا القيام بعملية أكبر توجوا بها كل عملياتهم الاغتيالية السالفة ؛ إذ نجحوا فى اغتيال الخليفة العباسى



قلعة صهيون ديز

المسترشد بالله سنة ٥٢٩ هـ ، وقد كان الخليفة فى حرب مع السلطان مسعود السلجوقى ، فتمكن الأخير من الانتصار على الخليفة وأسره هو ومجموعة من كبار معاونيه ، ووضعه فى خيمة معززاً مكرماً تحت حراسة مشددة ، ثم انعقد بينهما الصلح ، ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد ، ولكنه تأخر بعض الوقت ، وقد انصرف عنه بعض من كان موكلاً بحمايته ، وكانت خيمته بمعزل عن مناطق تمركز الجنود ، فهجم عليه أربعة وعشرون من فدائيى ألموت ، فاغتالوه ، ومثلّوا به فطعنوه أكثر من عشرين طعنة ، وجدعوا أنفه وأذنيه ، وتركوه عرياناً . كما تمكنوا من قتل مجموعة من مرافقيه .

وقد نجحت الحركة أيضاً فى تلك الأثناء من اغتيال مفتى قزوين ، ووالى مراغة ، ووالى تبريز ، ووالى أصفهان .

وهكذا نرى أن الفترة التى قاد فيها بزرك آميد حركة الحشاشين كانت فترة خصبة بعمليات الاغتيال ، ومقياس الخصوبة هنا ليس مقياساً كمياً ، وإنما مقياس كيفى ؛ إذ أن عدد المغتالين كان قليلاً بالقياس لفترة حكم الحسن الصباح ، ولكن رغم ذلك فقد شملت قائمة الاغتيالات شخصيات بارزة تتربع على قمة العالم الإسلامى آنئذ ، مثل الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ، والخليفة العباسى المسترشد بالله ، بالإضافة لعدد من الولاة وكبار مشايخ أهل السنة .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فإن هناك بعض الروايات التى تؤكد على مروءة وشهامة زعماء حركة الحشاشين ، ومما يروى فى هذا الصدد أن أميراً من أعدى أعداء الحركة يدعى يارنجوش دخل فى صدام مع شاه خوارزم ؛ فأراد الشاه قتله ، فلجأ هو وأتباعه إلى قلعة ألموت مقر الحركة طالباً الحماية ؛ فقبله بزرك آميد ولم يرده ، وعندما طلب الشاه تسليمه رفض الزعيم الألموتى رغم أن الشاه كان صديقاً للحركة بينما كان الأمير الهارب عدواً لدوداً لها ، وقال بزرك آميد فى رده على الشاه : « إن من يطلب حمايتى لا أستطيع أن أعامله كعدو » .

وقد استمر بزرك آميد يتزعم الدعوة الألموتية حوالى أربعة عشر عاماً انتهت بوفاته سنة ٥٣٢ هـ . وقد كانت فترة زعامته تواكب الجزء الثانى من فترة إمامة على بن نزار بن معد (المستنصر) بن على بن الحاكم بأمر الله منصور العبيدى الفاطمى ، الذى تولى إمامة الإسماعيلية بعد أبيه نزار فى عام ٤٩٠ هـ وتوفى سنة ٥٣٠ هـ ؛ حيث خلفه ابنه محمد (المهتدى) . أما بزرك آميد فقد خلفه بعد وفاته ابنه محمد .

عهد الإمام محمد المهتدى :

وفى عهد الإمام محمد المهتدى وكبير الدعاة محمد بزرك آميد ، تركز الاهتمام على إعداد الدعاة إعداداً علمياً ؛ فكانوا يدرسون العقائد والفلسفات ومقارنة الأديان والفقه وأصوله . وتم تدريبهم على التناظر وتكنيك الحوار بما يزيد قدرتهم على مواجهة الخصوم وإقناعهم بالعقيدة الإسماعيلية .

وقد جعل الإمام المكاتبة بين الدعاة وأعضاء الحركة بنظام الشفرة ، فكانوا يستخدمون الأعداد للدلالة على الحروف الأبجدية . وهو ما سنتناوله عند الحديث عن عقائد الحركة وأيديولوجيتها ونظامها ، فى القسم الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى .

كما وجه الإمام عناية إلى الجناح العسكرى ، حيث اهتم بتدريب الفدائيين وتثقيفهم ، وكان من المقررات الأساسية إتقان عدد من اللغات الشائعة حتى يمكنهم إخفاء شخصياتهم الحقيقية والتظاهر بأنهم من جنسيات معينة حسبما يقتضى الأمر ، مما يمكنهم من أداء مهامهم بنجاح . وهذا النظام كان متبعاً منذ نشأة الحركة .

وكانت أول العمليات التى قامت بها المجموعة الفدائية المدربة على أعلى مستوى أثناء إمامة محمد المهتدى ، تلك العملية الجسورة لاغتيال الخليفة العباسى المخلوع الراشد بالله ؛ فبعد أن تم خلعه وتولية المقتفى لأمر الله ، توجه إلى إيران ، واستقر بعض الوقت فى أصفهان ، وهناك قام فدائيو ألموت وكانوا من أهل خراسان ويعملون فى خدمته ، باغتياله فى الخامس والعشرين من

رمضان سنة ٥٣٢ هـ . وكان هذا فى أعقاب شفائه من مرض كان يعانى منه . وقد استطاع مرافقوه القبض على مغتاليه من الفدائيين ، وقتلوهم على الفور .

ولم يكن الإمام المهتدى مهتماً فقط بشؤون الحركة فى إيران ، بل كان يوجه جزءًا كبيراً من جهوده واهتماماته إلى جناح الحركة فى سوريا ، وكان دائم الاتصال بهم ، وقد أمكننا الوقوف على إحدى رسائله إلى أعضاء الحركة بسوريا ، قد أوردها الداعى إبراهيم بن أبى الفوارس فى إحدى كتبه . ونظراً لأن هذه الرسالة تعكس بشكل كبير فكر الإمام محمد المهتدى ، فسأورد نصها للقارئ حتى يتبين كيف كان يفكر ذلك الإمام. يقول موجهاً كلامه إلى أتباعه :

« أيها الاخوان الكرام وأهل السلام . أخلصوا إلينا بقلوبكم ، وارحلوا إلينا بنفوسكم ؛ إن عهدنا واصل إليكم ، وقد أمرنا أن يتلى عليكم فتلقوه بقلوب صادقة ونفوس طائعة غير آبقة .

وقد أرسلنا إليكم باباً من أبوابنا وداعى من دعاتنا ، وهذا العهد يتلوه ويوضحه ولا يخفيه .

إننى أنا المولى محمد بن على بن نزار ، لعن الله من أنكر الحق وأخفاه . وقد عهدنا إلى الداعى زيد بن أبى الفرج بن أبى الحسن بن على ، أن يوضح الحق حتى ينجلى .

أنا مولاكم محمد بن على بن نزار من أفاق نورى على النهار .

اخواننا : أطيعوا مولاكم ، وحافظوا على محبة اخوانكم ؛ فقد أشرقت الأرض بنور ربها ، وقد بان أوان الحق المبين عند انقضاء دور الأربعين وانتهاء مدة السبعين تتمة هذه الخلائق أجمعين وإشراق الأرض بنور اليقين . وسيظهر الحق بكلمته على قلوب العارفين الذين هم على عبادتهم عاكفين ولطاعتنا ملازمين .

وكل ما نريده من مريدينا ومخلصينا أن ينبذوا البغضاء ، ويعيشوا باتحاد وتضامن . فمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهداً منه ، ومن سمع

ما أمرناه ، وقام بتنفيذ ما فرضناه من عهد قد عهدناه ؛ فوجهنا مصروف إليه ، ونفوسنا مقبلة عليه .

أنا الذى ظهرت بالناسوتية ، واختفيت باللاهوتية ؛ أنا شمس اليقين ، وقبلة العارفين ، ونجاة الطالبين ؛ فمن عرفني نجا ، وها قد سمعتم منى بواطن جواهر القدرة الإلهية ، وأشرقت عليكم بأنوار عزتى الجبروتية ، وأمرتكم بأمر فامتثلوه ، وفرضت عليكم عهداً واجباً فاسمعوه ، ولا تكونوا لعهدنا ناكثين ولأوامرنا غير طائعين ؛ لأن الرفيق رب على التحقيق . فمن خلصت نيته لمولاه ، وصفت سريرته لاخوانه بالدين ، تحدثت روحه بالعالم الروحانى ، وتنزهت عما هو فان ، وصارت فى دار الكرامة التى لا تتحول ؛ لأنكم إخوان صدق وإيمان وأصحاب نور وبرهان .

وهذه شرائط عشرة وفرائض عسيرة ؛ فمن لزمها نجا ، ومن تخلف عنها ضل وغوى ، وكانت الجحيم هى المأوى ؛ فما بعد الصبح خفى . ومهما أمركم داعينا فامتثلوه وما أوجب فأطيعوه .

أنا مولاكم محمد بن على بن نزار .. فقد جاء الحق ، وزهق الباطل ؛ إن الباطل كان زهوقاً .

وأنزلنا عليكم رحمتنا ، وشملتكم عين عنايتنا ، واصطفيناكم من بين خليقتنا ، وجعلناكم أبناء دعوتنا ، فطاعتنا عليكم فرض ، وهى نجاتكم ليوم الفصل والعرض .

إن الله اصطفى للمؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بالرضا والتسليم والصبر وحسن اليقين ، أعاذنا الله وإياكم أيها المؤمنون الموحدون المهتدون ممن كان لعهدنا ناسياً وقلبه عن معرفة مولاه قاسياً .

أيها المؤمنون الموحدون العابدون : اركبوا طريق من كان قبلكم من المريدين الذين كانوا لنا طائعين ، وبواجب ما فرض عليهم قائمين ، فهم فى روح وريحان وجنات النعيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، يرقى له الجنات ، ويشاهد بعينه الرحمات ، ويعرض عليه الحور والولدان ، شرابهم السلسبيل ،

ونديمهم الجليل ، وساقيهم الخليل ، وعن يمينهم إسماعيل ، والبشير لهم جبرائيل ، وخادمهم عزرائيل ؛ فياله من مقام محمود ، وشاهد ومشهود ، وحاضر وموجود ، وشقى ومسعود ؛ فعند معانيه الحق المبين ، دعينا له خاضعين ، وما افترضه علينا سامعين .. والحمد لله رب العالمين . الإمام محمد ابن على بن نزار المستنصر » .

وهكذا فإن هذه الرسالة تكشف عن تكوين عقل محمد المهتدى وبنية تفكيره التى يلمسها القارئ دون أى عناء . وإذا كانت الرسالة تؤكد اهتمام الإمام بأعضاء مذهبه فى خارج إيران وأنه لم يكن يحصر نشاطه فى نطاق محدد ، فإن السجلات التى وصلت إلينا عن نشاط حركة ألموت فى هذه الفترة تعكس اهتماماً من زعمائها بالتجارة والزراعة وبعض ألوان الصناعة ، ولاسيما صناعة سك العملة الخاصة بهم . ويبدو من تلك السجلات ، وأيضاً من روايات المؤرخين ، أن محور اهتمام حركة ألموت كان متمركزاً فى تلك الفترة على مثل هذه الأمور الدنيوية أكثر من أى شئ آخر ، حتى أن الأمل العظيم والكفاح الدموى من أجل القضاء على الحكومات القائمة وإنشاء حكومة باطنية بزعامة الإمام الإسماعيلى ، لم يعد مما يشغل بؤرة اهتمام زعماء الحركة وأعضائها ، ولا أدل على ذلك — بالإضافة إلى ما سبق — من أن القلاع الجبارة التى كانت بالأمس نقاط انطلاق للهجوم على مدن وقرى المعارضين أصبحت أسواقاً تجارياً يؤمها كبار التجار .

ولكن هذا لا يعنى ردة كاملة عن الاستراتيجية التى كان ينهجها الزعيم الراحل حسن الصباح ، فقد كان زعماء الحركة رغم اهتمامهم المتزايد بالتجارة يتخذون منها ستاراً لنشر دعوتهم ، حيث كان الدعاة يبثون عقيدتهم ويدعون إليها سراً أثناء رحلاتهم التجارية فى مختلف بلاد العالم الإسلامى .

وأيضاً فقد كان الفدائيون يقومون بين حين وآخر بدورهم فى اغتيال الشخصيات الهامة ، بيد أن قائمة الاغتيالات تعتبر متواضعة جداً بالقياس لعصر حسن الصباح .

فقد نجحوا سنة ٥٣٤ هـ فى قتل المقرب جوهر أحد معاونى السلطان سنجر ، وقد كان يتمتع بمكانة مرموقة حتى كان جميع جنود السلطان يخدمونه ويجلونه . وقد اتبع الفدائيون الذين قاموا باغتياله أسلوباً مبتكراً فى عمليتهم ، حيث ارتدوا ملابس النساء ، واستغثن به أثناء إحدى تنقلاته ، فوقف يستمع إليهن ، فقتلوه . وعندئذ ردَّ صاحب له يدعى عباس رداً عنيفاً ؛ حيث جمع أربعة آلاف مملوك تتبعهم جنود كبيرة العدد ، وتوجه إلى مناطق تمركزهم ، فانتقم منهم انتقاماً بالغ الشدة ، فقتل عدداً كبيراً منهم ، حتى أن البندارى المؤرخ يذكر أنه قتل ما يزيد على مائة ألف ، ويذكر صدر الدين الحسينى المؤرخ أن عباس قد بنى من رؤوسهم منارة وأذّن عليها مؤذن . وقد فعل بهم هذا الرجل مالم يفعله غيره . وكان يعاود غزوهم بين وقت وآخر ، فيسفك دماءهم ، ويدمر بلادهم ، واستمر على هذا الحال حتى تم اغتياله بتدبير من السلطان مسعود سنة ٥٤١ هـ .

وقد كان من أبرز الشخصيات التى تم اغتيالها على يد فدائيى الحركة فى تلك الفترة بعد اغتيال الخليفة العباسى الراشد بالله ــ داود السلطان السلجوقى فى عام ٥٣٨ هـ وذلك فى مدينة تبريز بشمال غرب إيران .

وتشمل قائمة الاغتيالات فى هذه المرحلة عدداً من القضاة الذين أفتوا بجواز أو وجوب إعدام أعضاء حركة الحشاشين ، وهم قضاة همذان وقهستان وتفليس . كما تشمل القائمة عدداً من الأمراء والولاة والوزراء .

وفى نفس العام الذى اغتالوا فيه السلطان داود السلجوقى ، قاد السلطان محمد حملة عسكرية إلى قلعة ألموت ، ولكن تمكن رجال الحركة من صد الهجوم . مما أعطاهم ثقة متزايدة بالنفس جعلتهم يمدون نشاطهم إلى بلدان جديدة ، كما استولوا على بعض القلاع بقزوين وبنوا بها بعضاً آخر .

وقد حدث ما يشبه الانشقاق الداخلى فى الحركة عندما قام الحسن بن داعى دعاة ألموت محمد كيابزرك آميد ، بالدعوة إلى نفسه كإمام ، وقد مكنته براعته فى الاقناع وتمكنه من فن الحوار أن يجذب إليه عدداً كبيراً من أعضاء

الحركة . مما أدى إلى أن أباه اتخذ إزاءه وإزاء من اتبعوه موقفاً متشدداً ، فأمر بجلده حتى الموت ، وقتل عدداً كبيراً من أتباعه ـــ تذكر بعض الروايات أنه بلغ ٣٠٠ شخصاً . كما أمر بتعذيب وطرد مجموعة أخرى .

عهد القاهر بقوة الله :

وفى سنة ٥٥٢ هـ توفى الإمام محمد المهتدى بن على بن نزار ، وخلفه ابنه حسن القاهر بقوة الله ، وبايعته كل أفرع طائفة إسماعيلية ألموت فى إيران وسوريا .

وعندما تولى الإمام حسن أمر الحركة كانت الحروب والمصادمات قد أتت على أكثر ثرواتها ؛ ولذا فقد وجه جل عنايته إلى تحسين المركز المادى للحركة ، ولكن هذه المرة ليس عن طريق الغزو والقتال أساساً ، وإنما بواسطة التجارة ، فوجه دعاته إلى الاشتغال بها ، ولم يكن هدفه فقط تحقيق الربح المادى للطائفة ، وإنما أيضاً اتخاذ التجارة كستار للدعوة .

عهد الإمام حسن وإعلان القيامة :

وعندما توفى الإمام حسن القاهر بقوة الله سنة ٥٥٧ هـ ، تولى الإمامة بعده ابنه الحسن الذى كان يُقرن اسمه دائماً بـ « على ذكره السلام » ، وهذه التحية هى التى تجعل المرء يميزه عمن سواه بسهولة . وكان مولده سنة (٥٢٠ هـ = ١١٢٦م) .

وأهم ما يميز عهده ما يسمى بإعلان قيامة القيامة أمام كل الأتباع المجتمعين فى قلعة ألموت . وكان هذا الإعلان يتضمن مجئ إسلام روحانى خالص متحرر من كل ذهن تشريعى ، ومن كل عبودية للفرائض والقوانين ، فهو دين شخصى للقيامة التى هى ولادة روحانية ؛ لأنها تجعل الإنسان يتكشيف ويعيش المعنى الروحانى للإيحاءات الإلهية . وبلغة أبسط : فإن هذا الإعلان يعنى التحلل من اتباع تعاليم الدين ، وإسقاط الفرائض ، واباحية العلاقة مع النساء .

ومنذ هذا الإعلان أمر الإمام حسن بتغيير اتجاه القبلة ، فأصبح جهة الغرب ، ولذا فإن ظهور الحاضرين فى قلعة ألموت كانت إلى مكة . وقد أقيمت الاحتفالات فى كل مناطق الدعوة الألموتية فى إيران وسوريا ابتهاجاً بانتهاء عهد الالتزام بتعاليم الشريعة وفرائضها .

ومع أن الغالبية العظمى قد قبلت هذا الإعلان بقبول حسن ، إلا أن هناك قلة أبدت ارتياباً تجاهه ، وهذه القلة كان نصيبها عقاباً شديداً من الحسن ، الذى استدل على تصرفاته بقول النبى ﷺ : « **كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته** » ، فالإمام هو المسؤول الأول عن أتباعه ، وهو الذى يتحمل تباعات أفعالهم ، ولذا فإن عليهم إطاعته فيما يأمر سواء فى زمن الشريعة أو فى زمن القيامة ، فكما أن الإنسان إذا لم يطع التكاليف والعبادات فى زمن الشريعة واتبع مبدأ القيامة بأن التكاليف والعبادات روحية فإنه يعاقب أشد العقوبة ، فكذلك فى زمن القيامة إذا لم يطع مبادئها ، واتبع تعاليم الشريعة والتزم بطقوسها ، فإنه يعاقب على عدم التزامه بمبادئ القيامة .

وإزاء هذا التحلل الصارخ من الشريعة ، قام صهر لحسن بمناهضة هذا الإعلان ، وقد انتهت هذه المناهضة بنجاحه فى قتل حسن بعد أربع سنوات من حكمه . وعقب مقتله صدر أمر بطرد كل مَنْ يصر على الاعتقاد بإمامته

عهد أعلى محمد :

وقد تولى الإمامة بعد الحسن ابنه أعلى محمد فى سنة (٥٦١ هـ = ١١٦٦ م)، وكان مولده سنة ٥٥٣ هـ ، مما يعنى أنه تولى الإمامة وعمره ثمانى سنوات ، ولكن بعض الروايات تشير أنه تولى الإمامة وعمره تسعة عشرة عاماً .

ورغم أن أباه مات مقتولاً بسبب إعلانه قيام القيامة ، إلا أنه ظل متابعاً لأبيه فى هذا الاتجاه ، وأدخل بعض التطوير على النظرية وعمل على تأسيسها عقائدياً وتثبيتها فى نفوس أتباعه . وقد نجح فى هذا إلى حد بعيد ، نظراً لأنه كان واسع الاطلاع متعمقاً فى العقائد والفلسفات . وكان يعقد جلسة

أسبوعية مع الدعاة ، حيث كان يجرى بينهم المناظرات من أجل رفع مستواهم العلمي وقدرتهم على المواجهة والحوار .

ولأن توجهات أعلى محمد كانت أصلاً علمية ، ولأنه نشأ فى جو من الترف فى ظل عقيدة القيامة ، فإن عهده لم يشهد أحداثاً حربية أو سياسية ذات قيمة بالقياس لعهود سابقيه من الأئمة ولاسيما عهد الحسن الصباح مؤسس الحركة . هذا باستثناء عملية فدائية نجحت فى اغتيال وزير من الوزراء العباسيين فى العاصمة بغداد ، بالإضافة لبعض المناوشات والغارات التى كان يقوم بها أعضاء حركة الحشاشين ضد القرى القريبة منهم .

وإذا كانت هذه الفترة لم تشهد تغيرات وأحداثاً كبيرة فى نطاق الحركة ، إلا أن هناك تطورات بالغة الأهمية طرأت على كيان الدولة الإسلامية ، وهو ما قد تناولناه من قبل فى فصل خاص عن الأحداث الخارجية المواكبة لتطور الحركة .

بشائر العودة إلى الالتزام بالشريعة :

وقد عهد الإمام أعلى محمد إلى ابنه جلال الدين حسن بولاية العهد منذ طفولته ، مما أشعر جلال الدين منذ وقت مبكر بالمسؤولية ، فكان يقرأ ويطلع ، فظهرت عليه علامات التفوق والنبوغ ، وكان يبدى ميلاً إلى أمه السنية أكثر من أبيه ، وشعر بانحياد أبيه عن جادة الصواب عندما نبذ تعاليم الشريعة ، فأظهر عدم رضائه عن السير فى هذا الاتجاه ، مما عكر صفو العلاقة بينه وبين أبيه . وقد بعث فى السر عدداً من الرسائل إلى الخليفة العباسى وملوك السلاجقة يعلن فيها استياءه من النهج الذى ينتهجه أبوه ، ويؤكد إسلامه والتزامه بالشريعة ، وأنه سيعمل على إصلاح الحركة ما إن يتولى الإمامة .

عهد الإمام جلال الدين وعودة الشريعة :

وبالفعل عندما مات أبوه أعلى محمد سنة (٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م) تولى جلال الدين قيادة حركة الحشاشين ، وأعلن على الفور براءته من مذهب أبيه وجده ،

وصرح على ملأ من أتباعه بأنه مسلم ملتزم بكل تعاليم الشريعة ، ولام أعضاء الحركة على توجهاتهم وسلوكياتهم ، وحثهم على الالتزام بأحكام الشريعة . وقد بعث بسفراء يحملون رسائل إلى الخليفة العباسى وملوك وأمراء السلاجقة يخبرهم بتنفيذه الفعلى لما قد وعدهم به قبلاً من الالتزام بالشريعة والطاعة لهم .

ومضى يعمل على توطيد أواصر الصداقة بينه وبين أمراء الإسلام الذين حوله ، ويظهر الولاء للخليفة العباسى الناصر لدين الله .

وقد لاقت محاولات جلال نجاحاً على مختلف الأصعدة ، حيث استجاب له أتباعه فى إيران وسوريا ، وصدقه الخليفة العباسى فأصدر مرسوماً يؤكد إسلامه ويقدر ما قام به من إصلاحات . وتقبله معظم الأمراء كصديق ومسلم . ولكن أبدى أهل قزوين ارتياباً تجاهه . ولذا فإن جلال الدين بذل ما فى وسعه لكى يهدئ خواطر العلماء فى قزوين ويقنعهم بصحة إسلامه ، حتى أنه دعاهم — كدليل على صدق نيته — لفحص مكتبات القلعة ، وإتلاف كل الكتب التى يروا أنها تخالف العقيدة الصحيحة .

وقد كان يتبادل الهدايا والرسائل مع الأمراء ، ودخل فى تحالفات عسكرية مع بعضهم فى ظل الولاء للخليفة العباسى . وقدم خدمة لذلك الأخير عندما كلف فدائييه باغتيال شريف مكة وأمير تابع لخوارزمشاه .

كل ذلك أتاح له أن يقوم برحلة خارج ألموت لمدة عام ونصف زار خلالها بغداد وأذربيجان وسوريا وغيرها من البلاد والمدن الإسلامية . ويذكر المؤرخون أنه كان يلاقى أثناء جولاته هذه الاحترام والتقدير كأمير مسلم محل للثقة .

وقد بعث أمه لكى تؤدى فريضة الحج سنة ٦٠٩ هـ ، وعندما مرت ببغداد لاقت احتراماً وترحيباً من الخليفة العباسى .

وكان يؤكد جلال الدين دائماً صدق إسلامه عن طريق التبرع بالأموال لبناء المساجد والتكايا والحمامات وغيرها من الخدمات العامة .

وبعد أن تمكن الرجل من تحقيق مركز مرموق بين الأمراء والقواد

والأعيان ، أبدى رغبته فى الزواج من أربع أميرات جيلانيات . وفى بدء الأمر تخوف أباؤهن منه ، وتقاعسوا فى إجابته إلى طلبه ، وعلقوا موافقتهم على موافقة الخليفة العباسى . فأرسل جلال الدين سفيراً إلى الخليفة عارضاً عليه الأمر ، فرد الخليفة فى الحال بإعلان مباركته لهذا الزواج مؤكداً من جديد على تقديره لجلال الدين .

ولأن جلال الدين كان دائماً ميالاً إلى السلام ، متطلعاً لحياة الهدوء والاستقرار ، فإنه ما إن علم بعزم جنكيز خان على اكتساح الدول الإسلامية ، حتى سارع بإرسال سفرائه إليه معلناً ولاءه للخان الأكبر ؛ لأنه وجد أن من الحكمة التقرب إليه ومصافته ؛ فالوقوف أمام جيشه الجبار لن يؤدى إلا إلى الفناء .

وقد أظهر كثير من أتباع حركة الحشاشين تذمرهم من موقف جلال الدين الاستسلامى فى مواجهة التتار . وبعد ذلك بوقت قصير ، وبالتحديد فى سنة (٦١٨ هـ = ١٢٢١ م) مات متأثراً بمرضه ، فقد كان يعانى من الدوسنتاريا . ولكن وزيره المخلص والوصى على ابنه علاء الدين محمد ؛ ظن أنه مات مسموماً بتواطؤ من زوجاته ومجموعة من أقاربه ؛ فأمر على الفور بإعدامهم جميعاً . وبطبيعة الحال قد أدى هذا القرار إلى تصديع العلاقات من جديد مع أمراء جيلان الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً يحول دون إعدام بناتهم الأميرات الأربعة .

عهد الإمام علاء الدين محمد :

وعندما تولى ابنه علاء الدين محمد الإمامة كان فى العاشرة من عمره ، إذ كان مولده سنة (٦٠٨ هـ = ١٢١١ م) . ولذا فإن الوزير الوصى عليه كان هو المسؤول مسؤولية مباشرة عن تسيير شؤون الحركة .

وحين شب الإمام علاء الدين وأخذ يباشر الحكم بنفسه ، طرأت بعض التغيرات على طبيعة الحركة ، وفق ما تشير المصادر السنية ؛ حيث تصف علاء

الدين بأنه كان مستهتراً لا يدرى شيئاً عما يحدث داخل الحركة أو خارجها ؛ مما انعكس على الأتباع ؛ إذ عاود كثير منهم الحياة وفقاً لمبادئ زمن القيامة التى أرساها جده ، ومارس البعض عمليات الاغتصاب والاعتداء على جيرانهم ، أحياناً بعلمه وأحياناً أكثر بدون علمه .

هذا مجمل ما جاء فى المراجع السنية ، ولكن المراجع المحايدة والمراجع الإسماعيلية تنص على عكس ذلك تماماً ؛ فبصرف النظر عن إغداق المديح عليه الموجود فى المراجع الإسماعيلية ، فإن هناك كثيراً من الأحداث الهامة التى وقعت فى عهده ، والتى تدل على أن الرجل كان جاداً واعياً ، أو على الأقل لم يكن بالصورة التى صورته بها المراجع المناوئة للحركة .

فقد شهدت الحركة الألموتية ازدهاراً علمياً وسياسياً فى عهد علاء الدين ، أما الازدهار العلمى فلا أدل عليه من التدعيم الهائل الذى قام به لمكتبة قلعة ألموت ، حيث ضاعف محتوياتها من المراجع والمصادر والكتب فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية ؛ مما أدى إلى اجتذاب كثير من الفلاسفة والعلماء إليها . كما طوّر مدارس الدعاة ، وأقام الندوات ، وأجرى المناظرات بين الأتباع .

اهتمام كهذا بالعلم والفلسفة من قِبَل الإمام ، ثم من قِبَل أتباعه ، لاشك أنه تمخض عن رفع مستوى الدعاة ، مما انعكس بدوره على مدى كفاءتهم فى نشر الدعوة الاسماعيلية الألموتية . فقد تمكن الدعاة من اكتساب أنصار جدد فى أراضى جديدة بالنسبة لدعوة إسماعيلية ألموت ؛ أعنى الأراضى الهندية ، فمنذ فترة غير قصيرة كانت الإسماعيلية المستعلية منتشرة هناك ، وعندما ذهبت مجموعة من الدعاة إلى هناك استطاعت تحويل أولئك من الاسماعيلية المستعلية إلى الاسماعيلية النزارية (= إسماعيلية ألموت = حركة الحشاشين) .

هذا عن الجانب العلمى والدعائى لحركة الحشاشين فى عهد علاء الدين ، أما الجانب السياسى والعسكرى فتتمثل أهم معالمه فيما يأتى :

فى العام التالى مباشرة لتولى علاء الإمامة ، قامت السلطات الخوارزمية بمذبحة مروعة لدعاة إسماعيلية ألموت فى الرى .

ثم شن القائد الخوارزمى أُرخان هجوماً عسكرياً على بعض قلاع ومراكز الحركة فى قهستان ونيسابور ، وقتل كل من وقع تحت يده من أتباع الحركة ، واستولى على أموالهم ، ودمر ممتلكاتهم وحصونهم .

وسرعان ما ردت حركة الحشاشين رداً عنيفاً على هذا الهجوم ، فنجح ثلاثة من الفدائيين فى اغتيال أُرخان عقاباً له . ثم تمكن جيش الحركة من السيطرة على مدينة دمغان الواقعة شمال شرق كردكوه .

وقد ساعد الحركة على تحقيق هذا النصر انشغال السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى بإعادة بناء جيشه الذى تصدع أمام هجمات التتار .

ولكن هذا الصدام بين الحركة وخوارزم توقف على أثر عقد اتفاق سلام بينهما ، تقوم الحركة بموجبه بدفع الجزية عن سيطرتها على دمغان .

وقد نجحت حركة الحشاشين فى استمالة الوزير الخوارزمى شرف الملك إليها ، ولم تكن هذه الاستمالة من الوزير اختياراً ورغبة منه بل خوفاً على حياته ، ولذا فقد كان دائم الاسترضاء لزعماء الحركة . كما نجحت الحركة كذلك فى استمالة المؤرخ محمد بن أحمد النسوى المتوفى (٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) الذى كان يعمل فى خدمة السلطان جلال الدين منكبرتى ، وصاحب كتاب « سيرة السلطان منكبرتى » . ولكن هذه المرة لم تكن استمالة الرجل بالترهيب كما كان الحال مع شرف الملك ، وإنما عن طريق إغداق الهدايا والمنح عليه .

ولم تطل فترة المهادنة بين جلال الدين خوارزمشاه وبين علاء الدين محمد ؛ إذ قام خوارزمشاه بخرق الهدنة أكثر من مرة ، فأمر بإعدام خمسة من الفدائيين حرقاً ، ثم قام جنوده بالهجوم على قافلة لأعضاء حركة الحشاشين كان بها أكثر من سبعين رجلاً ، فقتلوهم جميعاً .

وقد أدت هاتان العمليتان لمزيد من المشاحنات بين الخوارزميين والحشاشين ؛ مما دفع علاء الدين محمد إلى توطيد التحالف مع الخليفة العباسى فى بغداد العدو الأول لخوارزمشاه ، وإقامة علاقات ودية مع التتار العدو الثانى ــ لكنه الأخطر ــ لخوارزمشاه .

عهد ركن الدين خورشاه :

وقد كان علاء الدين أنجب وهو فى الثامنة عشرة من عمره ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه . وعينه ولياً للعهد وهو طفل ، ثم وقعت بينهما وحشة أدت إلى أن خلعه أبوه من ولاية العهد ، ولكن أعضاء الحركة لم يقبلوا منه ذلك جرياً وراء تقاليدهم : « بأن عهد الإمام لا ينقض » . وقد حاول ركن الدين الانشقاق عن أبيه ، واتخذ التدابير لتنفيذ ذلك ، ولكنه مرض مرضاً أقعده عن السير فى هذا الطريق . وفى أواخر سنة (٦٥٣ هـ=١٢٥٥ م) وجد الإمام علاء الدين محمد مقتولاً فى قلعة كردكوه .. قتله حسن المازندارينى الذى اعترفت عليه زوجته . فأمر ركن الدين خورشاه بإعدامه حالاً وإحراق جثته . وهناك من المؤرخين من يتهم ركن الدين بقتل أبيه ، ولكن القرائن التى لديهم ضعيفة .

الحشاشون فى مواجهة التتار :

سبق لنا بيان معالم التوسع التتارى فى بلاد الإسلام فى فصل : الأحداث التاريخية المواكبة لنشأة حركة الحشاشين وتطورها . والآن فإننا سنعمل على بيان علاقة الحركة بالتتار سلباً وإيجاباً .

منذ اللحظة الأولى للتوسع التتارى بعث جلال الدين حسن — كما سبق أن ألمحنا — برسالة إلى الخان الأكبر معلناً ولاءه له . وعندما جاء علاء الدين محمد لم يبد استعداداً للتعاون مع التتار ، بل حبذ مقاومتهم ، وأظهر كثيراً من التعاون مع جيرانه السنَّة فى مواجهة العدو المشترك ، وكان من مظاهر ذلك أن قام زعيم الحشاشين فى قهستان بإيواء اللاجئين من أهل السنَّة الهاربين من هجوم جنكيز خان على خراسان وشرق إيران ، وأظهر عليهم عطفاً منقطع النظير ، وأغدق عليهم كثيراً من الأموال ، ولكن رأى إمام ألموت أن فى هذا إسرافاً زائداً عن اللزوم ، فقرر عزل هذا الزعيم .

وبمجىء ركن الدين خورشاه وتوليه إمامة الحركة فى سنة (٦٥٣ هـ=

١٢٥٥م) ، عمل على أن يكون السلام أساس علاقاته مع كل الأطراف المحيطة به ، فركز أولاً على حسن الجوار مع سائر طوائف المسلمين ، فأمر أتباعه بالعمل بمقتضى ذلك .

ثم اجتهد ثانياً فى محاولة كسب تسامح التتار إزاء حركة الحشاشين، وهو مالم ينجح فيه ، إذ كان يعلم التتار مدى الخطر التى تشكله الحركة ، بل اعتبروا الحركة والخليفة العباسى أخطر ما يمكن أن يواجهوه فى طريقهم .

ولا أدل على ذلك من أن الأهداف الأولى التى وضعها هولاكو أمام عينيه هى تدمير قلاع حركة الحشاشين فى إيران . وقد باءت الهجمات التتارية الأولى بالفشل ؛ حيث تمكنت الحركة من صد هجومهم على قلعة كردكوه الشهيرة كما صدت هجومهم على قهستان ثم ردتهم خاسئين عندما هاجموا رودبار ، ولكن عندما عاود التتار الهجوم على قهستان أمكنهم انتزاع بعض القلاع .

ومع ذلك فقد حاول ركن الدين خورشاه إثبات حسن نيته للتتار وتأكيد ولاءه لهم . وعندما أرسل رسله طالباً للسلام طلبوا منه الحضور بنفسه ، ولكنه رفض ذلك وبعث بدلاً منه أخاه شاهنشاه ، ولكن أصر هولاكو على مجيئه شخصياً بعد أن يدمر كل قلاعه كدليل على صدق رغبته فى التعاون معهم ، وإذا ما فعل ذلك فإن جيوش التتار لن تمسه هو وأتباعه بسوء . وإزاء إصرار هولاكو قدم ركن الدين بعض التنازلات الظاهرية . واستمرت المفاوضات بينهما بعد ذلك ، فى نفس الوقت الذى كان يتقدم هولاكو بجيوشه نحو رودبار ، وعندما وصلها قام بحصار القلاع ، وأولى عناية خاصة لحصار القلعة التى بها ركن الدين وهى قلعة ميمون ديز ، ثم أرسل إليه هولاكو ينصحه بالتسليم وإذا ما استجاب فإنه سيعامل بكل تقدير ، أما إذا أصر على المقاومة فستكون عاقبته الدمار .

وقد تباحث ركن الدين الأمر مع رجاله ، فنصحه البعض بالصمود والمقاومة ، أما البعض الآخر فقد رفضوا الاستسلام ، وكان ركن الدين لديه الاستعداد من قبل لذلك ، فوافق على الاستسلام ، وبالفعل ذهب إلى هولاكو

بأهله ورجاله وكنوزه ، فرحب به وأنزله منزلاً حسناً ، حتى يقنعه بأنه سيكون مع التتار فى أمان ، وبالتالى يحثه على إصدار أوامره إلى كل قلاع الحركة بالاستسلام فى مقابل السلام . ونجح هولاكو فى خداع ركن الدين ، فأمر كل قلاعه بالتسليم ، فاستجاب له معظم زعماء القلاع ، عدا زعماء ألموت ولاماسار وكردكوه ، أما ألموت فقد قاومت لعدة أيام ثم استسلمت ، وأما لاماسار فقد صمدت لأكثر من عام ، وتمكنت كردكوه من الصمود لعدة أعوام .

وفى الوقت الذى نفذ فيه ركن الدين ما وعد به ، فإن التتار ـــ كما هى عادتهم ـــ لم يوفوا بعهدهم ، فدمروا كل ما وقع تحت أيديهم من قلاع الحركة ، وقتلوا أعضاءها ، حتى أسرة ركن الدين لم تفلت من القتل ، أما هو فكان مصيره الإعدام فى النهاية بعد عدة محاولات فاشلة لإنقاذ نفسه .

ولقد تمكن التتار فى نهاية الأمر من تدمير كل القلاع التى ظلت صامدة أمامهم ، بما فيها قلعة ألموت سنة (٦٥٤ هـ=١٢٥٦ م) ، ولكن هذا الحدث لا يعنى أبداً نهاية الحركة ؛ إذ أنها تمكنت من الدخول فى دور ستر جديد مغرق فى السرية والتخفى ، لابسة خرق الصوفية . وكالعادة فى التاريخ الإسماعيلى تمكن رجال الحركة من إنقاذ طفل لركن الدين خورشاه اسمه شمس الدين محمد الملقب بـ « اقاشمى » الذى خلف أباه فى إمامة الحركة . ومنذ ذلك الوقت انتشروا فى الهند وزنزبار وشمالى فارس . ويعرفون الآن باسم الخوجات أو المولوية أو الأغاخانية ، نسبة إلى أسرة « أغا خان » الأسرة الأخيرة المعاصرة لنا من أئمة الفرقة . ونشاط هذه الأسرة الآن بقيادة أغا خان الرابع كريم بن على بن محمد ، تنحصر فى المجال الخيرى البحث والأعمال العلمية والإنسانية بعيداً عن أى لون من ألوان الصراع الاستراتيجى .

حركة الحشاشين فى سوريا

- نشاط الحركة يمتد إلى سوريا .
- الخطوة الأولى للحركة فى سوريا .
- أبو طاهر الصائغ .
- بهرام يقود الحركة .
- إعادة تنظيم صفوف الحركة .
- خيانة المرغينانى ونكبة جديدة للحركة بدمشق .
- الحركة تجدد نفسها مرة أخرى .



حركة الحشاشين في سوريا

حركة الحشاشين فى سوريا

عندما تبلورت حركة الحشاشين فى إيران ، وحققت نجاحاً كبيراً ، كانت عينا حسن الصباح متجهة إلى مصر حيث الخلافة الفاطمية قِبلة الشيعة الايديولوجية فى ذلك الوقت ، وكان يطمع الحسن فى أن يعيد الأمور إلى نصابها بعد اغتصاب المستعلى للحكم من أخيه نزار الذى كان يؤيده الحسن . ولكن كان من الصعب على أى جماعة شيعية مناوئة للمستعلى أن تجد لها مكاناً ونفوذاً فى مصر . ومن هنا فكر الحسن فى أقرب مكان يستطيع أن يرسل منه فدائييه إلى مصر لكى يقوموا بالمهام المنوطة بهم .

وقد رأى الحسن أن أفضل مكان هو سوريا ؛ لنفس الأسباب التى جعلته يفضل من قبل الأماكن الجبلية فى إيران . فطبيعة تلك المنطقة الجغرافية بما فيها من جبال ووديان وصحارى وهضاب وعرة تتيح للحركة اتخاذ نقاط تمركز حصينة يصعب على المهاجمين اقتحامها . كما أن كثيراً من سكان تلك المناطق ينتمون إلى فرق شيعية مختلفة كالدروز والعلويين والنصريين ، فضلاً عن وجود إسماعيليين خُلّص . وبالإضافة إلى هذا فإن طبيعة الانقسام والصراع بين تيارات متعددة يهيىء للحركة العمل بحرية أكثر مما لو كانت هناك سلطة سياسية واحدة ، فقد كان هناك ثلاث قوى سياسية كبرى ، هى : السلاجقة فى الداخل ، والفاطميون فى الجانب الخارجى الغربى الموازى لساحل البحر المتوسط ، ثم قوة الصليبيين الذين أتوا حديثاً واستطاعوا السيطرة على أنطاكية والقدس وطرابلس وأديسا وتحويلها إلى مناطق مسيحية .

الخطوة الأولى للحركة فى سوريا :

وأول خطوة استطاعت أن تخطوها حركة الحشاشين فى سوريا ، هى استغلال الصراع الذى حدث بين أمراء السلاجقة ، ولاسيما الصراع بين دقاق حاكم دمشق ، وأخيه رضوان حاكم حلب ، وجناح حاكم حمص وصهر رضوان .

فقد تمكن المنجم الطبيب كبير الدعاة بسوريا ورسول الحسن الصباح أن يتحالف مع رضوان ويجتذبه للحركة ، ونجح هذا الداعى فى إفساد ما بين رضوان من جهة وجناح ودقاق من جهة أخرى ؛ حيث أقنعه أنهما يدبران للاستيلاء على إمارته ، فغضب منهما وأظهر لهما العداء رغم ما بينهما من قرابة . وقد ظن رضوان أن انضمامه إلى حركة الحشاشين يكسبه تأييدهم ومعاونتهم ؛ مما يرجح كفته على الأمراء من حوله ، ولم يفطن إلى أنه كان يعمل لمصلحتهم وينفذ أهدافهم .

وقبل أن تتحالف حركة الحشاشين مع رضوان ، كان أعضاؤها لا يزيدون على مائتين فى حلب يخفون عقيدتهم ولا يجرؤون على إظهارها ، فلما انضم رضوان إليهم ، وجعل أكثر حاشيته منهم ، جاهروا بعقيدتهم وأخذوا يدعون إليها ، وقد وجدوا أمامهم تربة خصبة ؛ فالمدينة يقطنها عدد كبير من الشيعة الاثنى عشرية ، ولاشك أنهم أقرب إلى إسماعيلية ألموت من الفرق الأخرى .

ونظراً لأن رضوان كان يوجه جل اهتمامه للصراع مع دقاق وجناح ، فإنه لم يكن يهتم كثيراً بمقاومة الصليبيين ؛ مما دفع صهره جناح حاكم حمص إلى انتقاده . وكان من أثر ذلك أن وقعت حرب بين الأميرين ، انتهت بهزيمة رضوان ، واستولى جناح على ذخائره ، وأسر عدداً من رجاله منهم وزيره . أما الداعى الإسماعيلى المنجم الطبيب فقد هرب إلى مكان مجهول ، حيث دبر بالتنسيق مع رضوان لاغتيال جناح .

وعندما حاصر الصليبيون قلعة حصن الأكراد فى شهر نيسان سنة ١١٠٢م ، قرر جناح الدولة الإسراع لنجدة حامية القلعة ، وقبل مسير الجيش

ذهب ليصلى الجمعة فى المسجد ، فهجم عليه ثلاثة من الفدائيين كانوا بلباس الدراويش وقتلوه . وتقدم الصليبيون على الأثر لمحاصرة حمص ، ولكنهم ارتدوا عنها بعد أن أخذوا الجزية من أهلها ، واستولى دقاق شقيق رضوان عليها ؛ إذ كان جيشه فيها ، ولكنه لم يكنّ مثل جناح الدولة قوة وشجاعة . وبعد ذلك بمدة قصيرة مات فجأة كبير دعاة ألموت فى سوريا الطبيب المنجم ، ويذكر بعض المؤرخين أنه أغتيل .

أبو الطاهر الصائغ :

وقد تولى إدارة شؤون الحركة بعد المنجم ، أبو طاهر الصائغ ، وكان من أصل فارسى ، وسعى أبو طاهر مع رضوان حاكم حلب للحصول على بعض الحصون ، فحصل على حصن سورمين الذى تمركز فيه أحد كبار دعاة الحركة بسوريا ويسمى أبو الفتح .

وحتى الآن لم تكن قوة حركة الحشاشين فى سوريا بالقدر الذى يمكنها من فرض سلطانها على البلاد ، ويبدو أن الحسين بن الصباح فى إيران لم يكن يمدهم برجاله من الفدائية إلا عند الضرورة القصوى ، حيث كان بحاجة ماسة إليهم هناك . وكان يلزم الحركة فى سوريا حتى تمكن أقدامها فيها من الاستيلاء على مزيد من الحصون الاستراتيجية التى تمكنها من شن هجماتها ، ثم التحصن والصمود ضد الهجمات المضادة .

وفى ٣ فبراير ١١٠٦م نجحت عملية الاستيلاء على حصن أفاميا وقتل صاحبها خلف بن ملاعب . ولم تستمر سيطرة الحركة على هذا الحصن ؛ حيث شن تنكرد أمير أنطاكية الصليبى هجوماً عليه هو وحصن سورمين ، واستولى عليهما بعد حصار عنيف ، وقبض على أبى الفتح وقتله ، وآنئذ قام أبو طاهر برحلة سريعة إلى ألموت مركز الحركة الأساسى ، بهدف شرح الموقف للحسن الصباح وتلقى تعليمات جديدة .

وبعد هذه الإنتكاسة المفاجئة بعدة سنوات ، وبالتحديد فى سنة ١١١٣م ، استطاع الحشاشون بمساعدة حليفهم رضوان اغتيال حاكم الموصل السلجوقى

مودود بن التونتكين عندما حضر بجيشه لتدعيم قوة المسلمين فى مواجهة الحملات الصليبية ، وكان طغتكين حاكم دمشق قد استنجد به ؛ لما كان يقوم به بغدوين ملك الفرنج من غارات متوالية على دمشق أدت إلى مرورها بأزمة اقتصادية كبيرة . وقد سارع مودود بجمع قواته والخروج إلى دمشق ، فعبر الفرات آخر ذى القعدة سنة ٥٠٦ هـ ، وعندما علم طغتكين بخبر وصوله خرج لاستقباله ، وقابله عند سلمية ، واتفقا على محاربة بغدوين ملك القدس ، ثم توجهوا إلى الأردن مع تميرك صاحب سنجر والأمير أياز بن أيلغازى ، والتقوا مع جيوش الصليبيين عند طبرية فى الثالث عشر من محرم ، وانتصر المسلمون عليهم نصراً مؤزراً ، ثم عادوا إلى مناطق تمركزهم للاستراحة ، ونزل الأمير مودود بمرج الصفر وأذن لجنوده بالاستراحة على أن يعودوا للاجتماع فى الربيع لمعاودة قتال الصليبيين . وظل مودود فى خاصة جنوده ودخل دمشق ليقيم عند طغتكين إلى الربيع ، فدخل الجامع يوم الجمعة فى ربيع الأول ليصلى مع طغتكين ، فلما انتهوا من أداء الصلاة ، وخرج مودود إلى ساحة الجامع ويده فى يد طغتكين هجم عليه فدائى من حركة الحشاشين فطعنه أربع طعنات وكان مودود صائماً ، فحملوه إلى دار طغتكين ، وحاولوا أن يفطر ، فلم يفعل وقال : « لا لقيت الله إلا صائماً » ، فمات فى نفس اليوم . أما الفدائى فقد قبضوا عليه وقتلوه ، وعرضوا رأسه على الجماهير فلم يتعرف عليه أحد ، فأُحرق . وقد اختلف أولوا الأمر فى تحديد المسؤول عن اغتياله ، والجمهور على أن الحشاشين بالشام قد خشوا بطشه بهم فقتلوه ، ويذهب آخرون إلى أن طغتكين خشى نفوذه وقوته فوضع عليه من قتله . **ويذكر بعض المؤرخين سخريةً من أمر مسلمى ذلك الزمان أن قائد الصليبيين لما علم بقتل مودود بعث إلى طغتكين برسالة فيها : « إن أمة قتلت عميدها فى يوم عيدها فى بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ! » .**

وفى نفس العام الذى اغتالت فيه الحركة الأمير مودود ، مات رضوان حاكم حلب حليفهم الرئيسى وخلفه ابنه ألب أرسلان ، وقد ازداد نفوذ الحركة فى أول عهده ، مما أخاف ابن بديع رئيس حاميتها وأخاف كذلك أعيانها ، فزين

ابن بديع لألب أرسلان القضاء عليهم ، فاستجاب لـه ، وأمر بالقبض على كبيرهم أبى طاهر الصائغ وعلى جميع أعضاء الحركة ، فقتل أبا طاهر وجماعة من كبار دعاتهم ، وأخذ أموال الباقين وسمح لهم بالخروج من المدينة ، فتفرقوا فى المدن ، وذهبت جماعة منهم إلى الصليبيين .

وبعد هذه المذبحة يذكر بعض المؤرخين أن أحد رجال حركة الحشاشين اسمه إبراهيم عندما نجا من المذبحة حاول مع مجموعة من أصحابه الاستيلاء على بلدة شيزر الواقعة على نهر العاصى ، عند انصراف النصارى إلى الاحتفال بأعيادهم ، ونجح فى مفاجأة المدينة والسيطرة عليها ، ولكن استطاع سكانها بقيادة أمرائهم الاستيلاء على الباشورة وتسلقوا الأسوار بواسطة الحبال التى أدلاها لهم نساء المدينة اللاتى بقين فيها ، وهجموا على رجال الحركة وانتصروا عليهم ، فقتلوا منهم ما استطاعوا وهرب البعض الآخر .

وقد تمكن فدائيو الحركة من القيام بعدة عمليات نجحوا خلالها فى اغتيال عدد من الشخصيات البارزة ، ففى سنة ٥١٠ هـ فى شهر المحرم اغتالوا أحمديل ابن وهسوذان الروادى الكردى صاحب مراغة وغيرها وهو جالس بجوار طغتكين حاكم دمشق ومجموعة من الأمراء فى دار السلطان محمد ببغداد ، فقد أتاه رجل متظلم وبيده رقعة وهو يبكى ويسأله أن يوصلها إلى السلطان ، فأخذها من يده ، فضربه الرجل بسكين ، فجذبه أحمديل وتركه تحته ، فوثب فدائى آخر وضرب أحمديل سكيناً أخرى ، فنزل عليهما الحاضرون بالسيوف ، ومع ذلك أقبل فدائى ثالث وضرب أحمديل ضربة ثالثة ، فعجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبيه . وقد ظن طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل بتدبير من السلطان ، فلما تبين لهم أنهم فدائيون من حركة الحشاشين زال هذا الظن .

بهرام يقود حركة الحشاشين فى سوريا :

هذا ، وقد كان الذى تولى مركز كبير دعاة الحركة بالشام بعد مقتل أبى طاهر ، هو الداعية بهرام ابن أخت الأسد اباذى الذى سبق لنا ذكر مقتله فى

بغداد فى فصل سالف ، وكان بهرام قد تمكن من الهروب إلى الشام ، فقام فى مدنها بنشاط كبير فى الدعوة إلى عقيدة إسماعيلية ألموت ، فاستجاب له جمع كبير من عوامهم ، وكان يخفى شخصيته حتى يمكنه الحركة بسهولة والدعوة دون التعرض للخطر .

وعندما قوى نفوذه ، وكثر أتباعه فى مختلف بلاد الشام ، ولاسيما فى حلب ، تحالف مع حاكمها أيلغازى وصادقه ، وقد أقدم الأخير على ذلك خوفاً منه وفى نفس الوقت اعتضاداً به .

واقترح إيلغازى على طغتكين حاكم دمشق أن يستضيفه عنده ، فقبل ضيافته . وفى دمشق أعلن بهرام عن شخصه وجاهر بموقفه وعقيدته ، ونجح فى اكتساب أنصار جدد إلى الحركة ، حتى أصبح أتباعه أضعافاً مضاعفة . وكان يؤازره الوزير أبو طاهر بن سعد المرغينانى بهدف الاستفادة منه فى مواجهة خصومه .

ونظراً لأن غالبية أهل دمشق يغلب عليهم المذهب السنى ، وقد أبدوا امتعاضهم من نشاطه ، فإنه خشى أن ينقلبوا عليه وعلى أتباعه فى أى لحظة ، مما دفعه إلى طلب حصن من طغتكين ، يتحصن فيه هو وأتباعه ، فاقترح وزيره المرغينانى اعطاؤه قلعة بانياس ، فوافق وأعطاها له .

فتوجه إليها بهرام ، وتبعه رجاله وسائر أعضاء الحركة من مختلف جهات الشام ، فعظمت شوكتهم ، واتسع نفوذهم ؛ مما أغضب علماء الدين ولاسيما أهل السنّة ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شئ ، فسكتوا على مضض ، خوفاً من حكامهم أولاً ، ومن بطش فدائيى الحركة ثانياً .

ومن بانياس أرسل بهرام دعاته إلى عدة مناطق بالشام لمحاولة كسب مزيد من الأنصار ، أما هو فعندما اطمئن إلى قوة مركزه بدمشق ، قرر القيام بجولة دعائية فى الجبال ، عاهداً بأمر القلعة إلى نائبه إسماعيل أحد كبار الدعاة ، وكان هدفه الأساسى هو الحصول على حصون وقلاع جديدة ، وبالفعل نجح فى شراء البعض والاستيلاء عنوة على البعض الآخر . وقد اتخذ هذه القلاع كمركز

لشن غاراته على وادى التيم من أعمال بعلبك ، وكان يقطن هذا الوادى أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدروز والمجوس وغيرهم .

وفى سنة ٥٢٢ هـ قام بهرام بهجوم على الوادى ، فحاصره . ولكن استطاع أمير المنطقة « الضحاك » أن يرد بهجوم مضاد بواسطة ألف رجل ، ففاجأ بهرام وجنده ، وانتصر عليهم بعد أن قتل بهرام وعدداً كبيراً من أتباعه ، أما من نجا منهم فقد عاد إلى قلعة بانياس .

إعادة تنظيم صفوف الحركة :

بعد مقتل بهرام وانهزام الحركة هذه الهزيمة المرة ، قام نائبه إسماعيل فى بانياس بإعادة تنظيم صفوف الحركة ، وساعده فى ذلك الوزير المرغينانى . وفى تلك الأثناء كان نجم أحد دعاة إسماعيلية ألموت يعلو فى دمشق ، وهو أبو الوفا ، الذى سانده أيضاً الوزير المذكور كخليفة لبهرام . وقد حقق هذا الرجل نجاحاً بالغاً حتى صارت كلمته أعلى من كلمة حاكمها تاج الملوك .

خيانة المرغينانى ونكبة الحركة بدمشق :

جرت فى هذه الفترة مفاوضات بين الوزير المرغينانى وبين الصليبيين على أساس أن يسلمهم دمشق مقابل تسليمه مدينة صور وتعيينه حاكماً عليها ، وانتهت بينهم تلك المفاوضات على ذلك ، وتحدد الميعاد بينهم فى أحد أيام الجمعة ، واتفق المرغينانى مع رجال حركة الحشاشين على أن يقوموا فى ذلك اليوم بمنع الجماهير من الخروج من الجامع حتى يحضر الصليبيون ويتخذوا مواقعهم فى المدينة .

فتسرب هذا الاتفاق إلى حاكم دمشق تاج الملوك ، فاستدعى المرغينانى إلى قصره ، وعندما جاء إليه انفرد به تاج الملوك وقتله ، وعلق رأسه على باب القلعة . وأصدر أوامره إلى حاميته وأهل المدينة بقتل جميع رجال حركة الحشاشين ، فتمكنوا من قتل ستة آلاف ، وكان ذلك فى منتصف شهر رمضان سنة ٥٢٣ هـ .

ولما علم بذلك إسماعيل خليفة بهرام بقلعة بانياس خشى أن تثور الجماهير عليه وعلى أتباعه ، فتكون عاقبتهم مثل أولئك ، فراسل الصليبيين وفاوضهم على أن يسلمهم القلعة فى مقابل أن يأووه هو وأتباعه فى مدنهم ، فاتفقوا معه على ذلك ، وتسلموا القلعة ، وانتقل هو وأصحابه إلى مناطق نفوذهم بالشام ، فعاملوهم معاملة قاسية ، ولم يعش إسماعيل بعد ذلك طويلاً فمات فى أوائل سنة ٥٢٤ هـ .

وبعد هذه المذبحة الكبيرة لرجال حركة الحشاشين بدمشق ، لم يكن ليسكت زعماء ألموت فى إيران دون أن يردوا الرد المناسب على المسؤول الأول عن هذه المذبحة ، فكلفوا مجموعة من الفدائيين بالتوجه إلى سوريا للانتقام من حاكم دمشق تاج الملوك بورى بن طغتكين ، وفى سنة ٥٢٥ هـ تمكنوا من التسلل إليه وطعنه طعنتين . فشفى من إحداهما ، وتَنَسَّر[1] الجرح الناتج عن الطعنة الأخرى ، وقد ظل يتألم منه ، ومع ذلك فإنه كان يقوم بواجباته كحاكم . ولكن بمرور الوقت كان الألم يزداد به ، والضعف ينخر فى بنيته ، وبمجىء الحادى والعشرين من رجب سنة ٥٢٦ هـ بلغ الأمر منتهاه ، فتوفى الرجل .

الحركة تجدد نفسها مرة أخرى :

وكما هو الحال مع هذه الحركة شديدة البأس ، فإنها كانت تخرج من كل أزمة أو انتكاسة ولدى أتباعها إصرار أقوى على الانتشار والسيطرة والتوسع . ففى سنة ٥٢٧ هـ اشتروا قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون ، وتمركزوا فيه ، وأخذوا يقومون بهجمات متعددة على المجاورين لهم من المسلمين والصليبيين على حد سواء .

ثم والوا حصولهم على عدة قلاع أخرى ، تارة بالشراء ، وتارة بالقتال ، وتارة بالخديعة ؛ نذكر منها قلعة الرصافة ، والمنيقة ، والخوابى ، والعليقة ، ومصياف .. وتلك الأخيرة كان واليها مملوكاً لبنى منقذ أصحاب شيزر ،

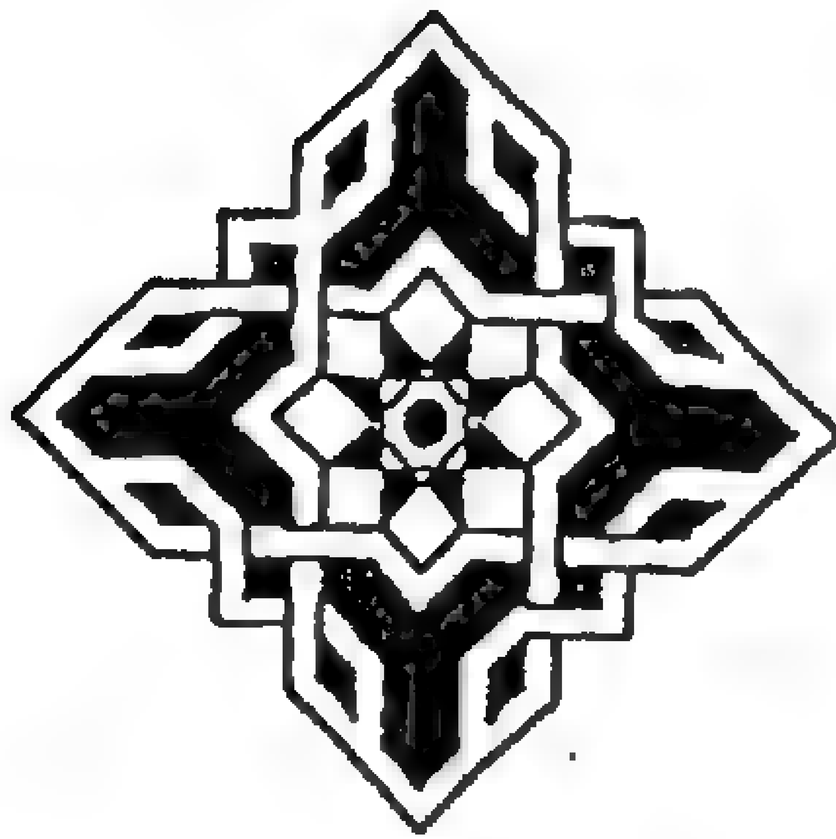
---

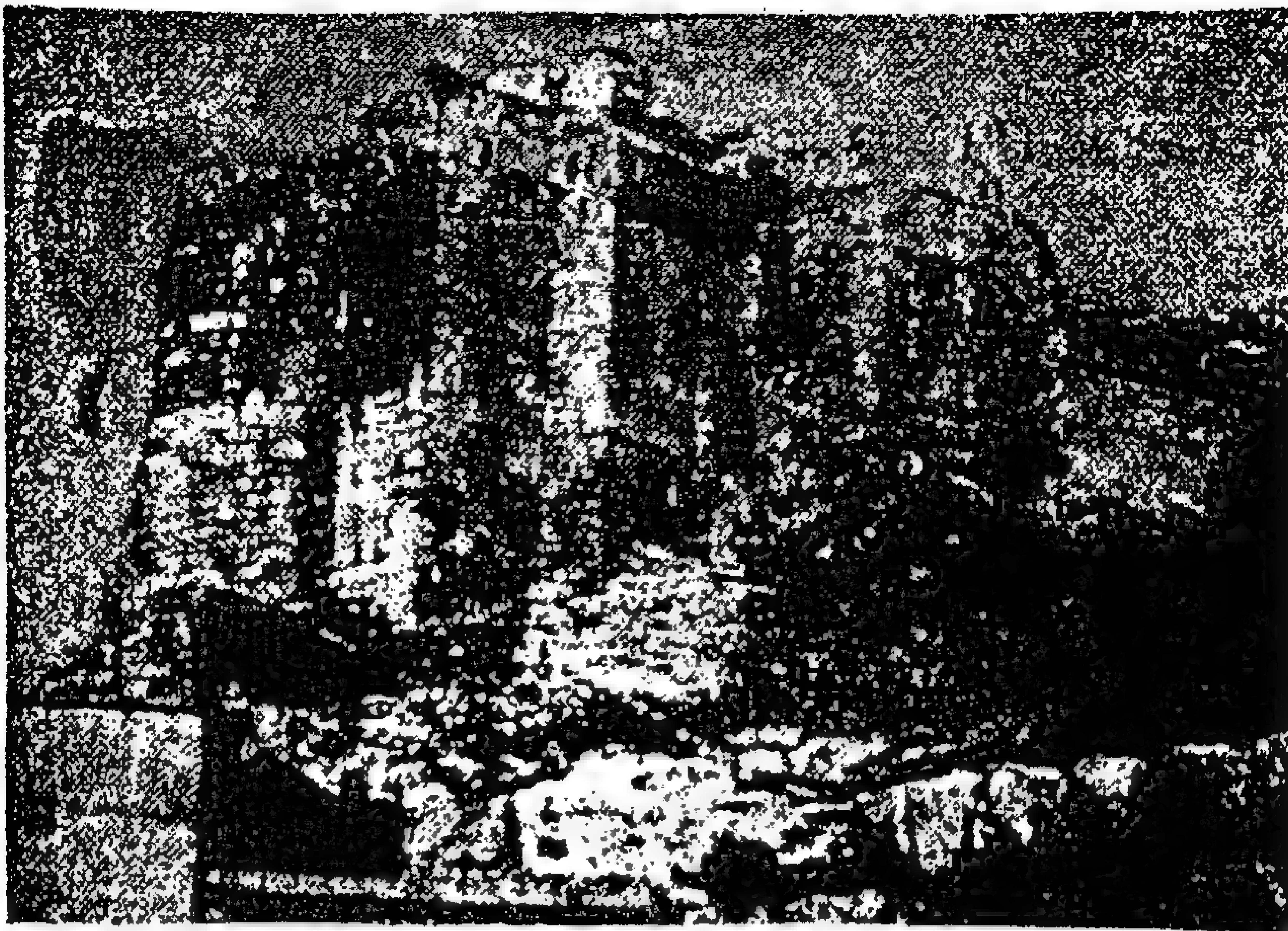
(١) تَنَسَّر الجُرْحُ : أى انتشرت مِدَّتُهُ لانتقاضه .

فتمكنوا من الاحتيال عليه ، حتى صعدوا إلى القلعة ، ثم قتلوه ، واستولوا عليها ، وذلك فى سنة ٥٣٥ هـ .

وحتى هذه اللحظة لم يكن لهم موقف محدد أو ثابت تجاه الصليبيين ، فقد كانوا متقلبين فى محالفتهم ، فتارة كانوا يحاربون معهم ضد طوائف المسلمين الأخرى ، وتارة يتحالفون مع المسلمين ضد الصليبيين ، وقد نشب النضال والصراع حيناً بينهم وبين فرسان الهيكل (وهم طائفة سرية من الصليبيين) ، ثم تفاهما ولعبا أدواراً مختلفة فى الحروب الصليبية . ومما يذكره المؤرخون أن فرقة من الحشاشين تحالفت مع ريموند والى أنطاكية فى مواجهة نور الدين الزنكى ، فقد كانوا يناصبون الزنكيين عداءًا شديداً ، لاسيما بعد أن لغى نور الدين الصيغة الشيعية للأذان فى حلب .

وآخر ما نسجله لحركة الحشاشين فى هذه المرحلة أن فدائييها تمكنوا سنة ٥٤٤ هـ من اغتيال زعيم وادى التيم «الضحّاك» الذى كان قد انتصر من قبل على مجموعة منهم بقيادة بهرام — كما سبق أن أشرنا — وقتل بهرام . ثم قتلوا سنة ٥٤٥ هـ حاكم طرابلس الصليبى الكونت ريموند الثانى ؛ مما عرضهم لهجوم الصليبيين الذين أكرهوهم على دفع الجزية .





قلعة مصياف



كتابة منحوتة على حائط قلعة مصياف (سوريا)

العصر الذهبى للحشاشين فى سوريا

راشد الدين سنان بن سلمان :

من الواضح حتى الآن أن المؤشر البيانى لحركة الحشاشين فى سوريا كان بين الصعود والهبوط ، ورغم ظهور زعماء أقوياء للحركة إلا أننا لم نجد منهم زعيماً يذكّر بقدرات مؤسس الحركة الأول الحسن الصباح .

وظل الحال هكذا حتى ظهر فى الأفق قائد قدير متمكن ، **هو سنان بن سلمان : راشد الدين**[1] .

ولم يكن هذا الرجل أول أمره سوى داعية من دعاة الإسماعيلية النزارية ، وكان مولده فى البصرة سنة (٥٢٨هـ=١١٣٤م) ، ودرس مختلف العلوم الجدلية والفلسفية فى مطلع حياته ، ثم اضطر لأسباب عائلية أن يتوجه إلى قلعة ألموت ، حيث أكمل دراسته المذهبية . وعندئذ صدرت إليه أوامر من القيادة العليا بالتوجه إلى سوريا لتدعيم صفوف الحركة هناك ولبث جرعة جديدة من النشاط فى دمائها .

وقد أظهر راشد الدين تقوى وصلاحاً وتمسكاً بالعقيدة الإسماعيلية ، ونشاطاً كبيراً فى نشرها ؛ مما جعله يسمو شيئاً فشيئاً فى أعين رجال الحركة ، حتى صار أفضلهم علماً وعملاً ودراية بالواقع السياسى ؛ الأمر الذى مكنه من أن يصبح « داعى الدعاة » و « شيخ الجبل » ابتداء من سنة (٥٥٨هـ= ١١٦٢م) .

وتحت إدارة سنان المنظمة الحازمة ، ارتفع شأن حركة الحشاشين فى ربوع الشام ، وأخذ نفوذ سنان نفسه فى الإشعاع والارتفاع ، وأصبح فى نظر رجاله يساوى نفوذ الحسن الصباح . هذا فى الوقت الذى كان فيه نفوذ ألموت آخذاً فى التراجع .

---

(١) راشد الدين ، وليس رشيد كما يذكر خطأ بعض الكُتّاب . انظر : ابن خلكان ٢ : ٥٢١ ، والبداية والنهاية ٣ : ٨٩ ، والأعلام ٣ : ١٤١ .

بسم الله الرحمن الرحيم



صورة راشد الدين سنان
كما تخيلها أحد الرسامين

وحتى هذه اللحظة كان سنان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقيادة العليا فى « ألموت » ؛ ولا أدل على ذلك من أنه استجاب لإعلان قيامة القيامة الذى قام به — كما سبق أن فصلنا القول — الإمام حسن ؛ فرفع سنان عن أتباعه كل تعاليم الشريعة ، وأسقط جميع الفرائض ، وأباح لرجاله حرية العلاقات الجنسية مع النساء .

ولكن بمرور الوقت . وبشعور سنان المتزايد بقوته وقوة حركته فى الشام ، أخذ يعمل بالتدريج على الاستقلال عن قيادة الحركة فى « ألموت » ، وبالفعل تمكن من الانفصال التام وأصبح يمارس نشاطه فى الشام بشكل مستقل عن الحركة فى إيران .

ولما أحس قائد الحركة فى إيران بذلك ، أرسل مجموعة من فدائييه لاغتيال سنان ، ولكن سنان تمكن من معرفة المؤامرة ، واستطاع إحباطها ؛ فاستصفى بعض الفدائيين المكلفين بالمؤامرة وضمهم إليه ، وقتل الباقين .

وفى الوقت الذى ثبتت فيه أركان الحركة فى الشام بزعامة سنان ، ظهر صلاح الدين البطل السنى العظيم الذى أسقط الخلافة الفاطمية فى مصر ، وشرع فى طرد الصليبيين من الأراضى الإسلامية ، وعمل على إعادة وحدة الصف الإسلامى .

وفى البداية اعتبر الحشاشون صلاح الدين عدواً رئيسياً لهم ؛ فدبروا لاغتياله مرتين ، ومن حسن الحظ أن المحاولتين فشلتا . ولاشك أن الاعتداء على صلاح الدين كان محاولة خطيرة وغير مسؤولة ، وكان نذيراً بما بلغه أولئك الرجال المرعبين من القوة والنفوذ ؛ فعزم صلاح الدين على سحقهم وإبادتهم قبل أن يستفحل شرهم أكثر من ذلك ، فهاجم قلعة مصياف معقلهم الرئيسى ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وجرت مفاوضات بينه وبين سنان شيخ الجبل بواسطة صاحب حماة خال صلاح الدين ، وذلك بطلب من سنان ، وقد نجحت المفاوضات ، وانتهت بتحالف قوى بين صلاح الدين وسنان شيخ الجبل . ولاشك أن صلاح الدين كان موفقاً فى هذا الإجراء ؛ فهو يسعى أولاً

وقبل كل شيء لوحدة المسلمين فى مواجهة الخطر الصليبى ، ولاشك أن تحالفه مع الحشاشين الأقوياء ذوى الأساليب الخارقة فى اغتيال زعماء الخصوم — خطوة على هذا الطريق ، وفضلاً عن هذا فإن صلاح الدين كان يريد استثمار طاقة جنوده وقوتهم لمهامٍ أكثر أهمية وجذرية ، لاسيما وأنه عَلِمَ أثناء حصاره لمصياف بهجوم الصليبيين على وادى البقاع ، الأمر الذى يتطلب سرعة توجهه لملاقاتهم .

وبعد هذا الاتفاق التزم الحشاشون بما تعهدوا به لصلاح الدين ، وتعاونوا معه تعوناً كبيراً فى الحروب الصليبية ؛ حيث كانت فرقة عسكرية كاملة منهم تحارب مع صلاح الدين ، وكانت هذه الفرقة تحت قيادة الأمير محمد الأيوبى ابن أخى صلاح الدين .

ومع هذا التعاون الوثيق بين سنان وصلاح الدين ، إلا أن سنان استطاع أن يحافظ على استقلالية حركته ، بشكل لا يتعارض مع روح الاتفاق المبرم مع صلاح الدين .

وبمجيء عام (٥٨٨هـ=١١٩٢م) تمكن الفدائيون من القيام بعملية اغتيالية كبرى ، راح ضحيتها المركيز « كونراد أوف مونتفيرات » ملك القدس ؛ حيث قامت مجموعة من الفدائيين بالتخفى فى زىّ رهبان النصارى ، مما مكنهم من الوصول إليه أثناء تواجده بمدينة صور ، وعندما اقتربوا منه انهالوا عليه بطعنات خناجرهم المسمومة .

وفى نفس هذا العام الذى نجحت فيه الحركة فى اغتيال تلك الشخصية الصليبية التى كانت تلعب دوراً محورياً فى الحروب الصليبية — أقول فى نفس هذا العام (٥٨٨هـ=١١٩٢م) توفى مقدَّم الحركة الزعيم المرعب : سنان شيخ الجبل ، الذى تمكن من قيادة الحشاشين فى الشام ، مدة ثلاثين عاماً ، بمهارة عالية تذكرنا بالحسن الصباح مؤسس الحركة الأول .

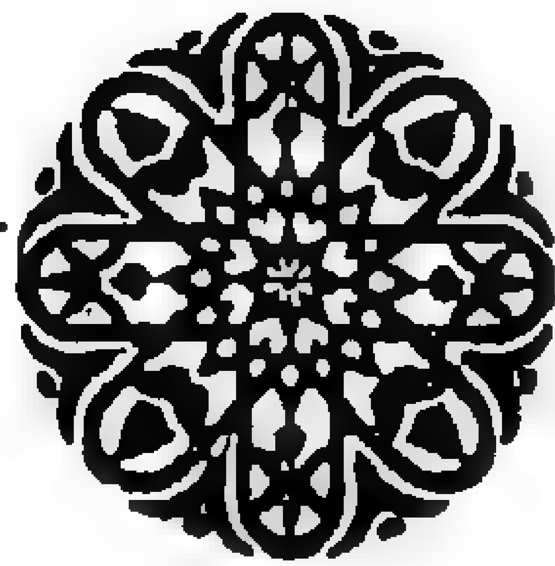
الحركة فى سوريا بعد رحيل سنان :

وبموت سنان شيخ الجبل انتهى العصر الذهبى لحركة الحشاشين فى الشام ، ولكن ظل خلفاؤه شيوخ الجبل يمارسون دوراً أساسياً على مسرح الأحداث السياسية ، واستمروا فى توظيف الاغتيال كسلاح قوى ضد خصومهم من الصليبيين ، وتمكنوا من الحصول على جزية من الأمراء الفرنجة تحت التهديد بالاغتيال .

وعندما وصل التتار إلى الشام عملوا على القضاء على الحشاشين ، ونجحوا فى الاستيلاء على بعض قلاعهم ، ولكن أصحابها عادوا فاستردوها عند انتصار بيبرس القائد المصرى على التتار .

وبعد النجاح الساحق والانتصارات المتوالية التى حققها بيبرس أقرت الحركة بالخضوع له ، وقدمت له رجالها الماهرين ليصبحوا تحت تصرفه . ومنذ ذلك الوقت صاروا مجرد مجموعات صغيرة ليس لها تأثير على مجرى الحوادث ، وأصبحوا يعتمدون فى نشاطهم أساساً على الزراعة ، وبعضهم يخضع الآن لإمامة أغاخان .

هذه كانت نهاية الحشاشين فى بلاد الشام بعد فترة ازدهارهم أثناء الحروب الصليبية ، تلك الحروب التى ظهرت فيها براعة خططهم ، وأصبحت حديث الغرب والشرق ، ومصدر إلهام ووحى لكثير من الحركات السرية فى العصور الوسطى والحديثة .



نظرية الوجود

- الألوهية .
- كيف بدأ الخلق ؟ .
- لماذا خلق الله العالم ؟ .
- نظام الوجود العلوي .
- نظام الوجود السفلي .

نظريـــة الـــوجـــود

الألـوهيـــة :

تقوم عقيدتهم فى الألوهية على تنزيه الله تعالى عن التشبيه بكل ما هو صادر أو ناشئ عنه: فهو لا يعرف، ولا يوصف، ولا يسمى؛ فلا يمكن أن يُنسب إليه اسم ولاصفة ولانعت ولاوجود ولاعدم وجود: «فلا يقال عليه حي، ولا قادر، ولا عالم، ولا عاقل، ولا كامل، ولا تام، ولا فاعل؛ لأنه مبدع الحى القادر العالم التام الكامل الفاعل. ولا يقال له: ذات؛ لأن كل ذات حاملة للصفات» [كنز الولد للحامدى: ص ١٣ ـــ ١٤].

فلا تدركه الأبصار ولا العقول ؛ لأنه غيب الغيوب ، ومبدع الوجود . فالمبدع فوق الكائنات ، وهو ليس بكائن ولا يكون ؛ إنه يمنح الكينونة ، وهو فعل الكينونة ذاته .

ومن هنا فالتوحيد عندهم توحيد جدلى يحاول تجنب الوقوع فى شرك التعطيل من جهة ، وشرك التشبيه من جهة أخرى . ولذا فإن جدلية التوحيد جدلية بسلبية مزدوجة : فالمبدع هو فى آن واحد « عدم ـــ وجود ، وليس بعدم ـــ وجود » ؛ « لا ـــ زمانى ، وليس بلا ـــ زمانى » .. إلخ .

وكل نفى لا يكون صحيحاً إلا إذا نُفى هو الآخر . فالحقيقة هى فى وقوع هذين النفيين فى آن واحد ، وهذان لا يكتملان إلا بعمليتى : التنزيه ، والتجريد . أما عملية التنزيه فهى أن نبعد عن الله الأسماء والأعمال التى تنسب إلى « الحدود » أى أصحاب الرتب السماوية والأرضية . وأما عملية التجريد فهى أن نجرده تعالى بجعله مفارقاً للظواهر التى تنشأ عنه .

وإذا كان الله عندهم منزهاً عن كل اسم وصفة ، فإن الأسماء الحسنى وصفات الكمال إنما يتسمى بها ويتصف الموجود الأول أو العقل الأول الذى أبدعه المبدع ، فهذا العقل الأول محل لجميع الصفات المُثلى والأسماء الحسنى ، يقول الكرمانى : « إذا كان الله عرياً عن كل صفة ، فإن صفات الكمال موجودة فى أول مُبدَع أبدعه ، فهو (= أول مُبدَع) الحق والحقيقة ، وهو الوجود الأول ، وهو الوحدة ، وهو الواحد ، وهو الأزل ، وهو الأزلى ، وهو العقل الأول ، وهو المعقول الأول ، وهو العلم ، وهو العالم الأول ، وهو القدرة ، وهو القادر الأول ، وهو الحياة ، وهو الحى الأول » [راحة العقل : ص ١٨٩] .

كيف بدأ الخلق ؟ :

كيف بدأ الخلق ؟

كيف كانت النشأة الأزلية لعالم الإبداع ؟

يزعم مفكرو الإسماعيلية ودعاتهم أن الإله المتعالى أبدع عالم الإبداع دفعة واحدة ، على شكل أشباح نورانية وصور محضة متساوية فى الكمال الأول الذى هو الوجود والحياة والقوة والقدرة ، مثلها مثل حبات ثمرة التين .

ثم حدث أن واحداً من تلك الأشباح نظر بذاته إلى ذاته وأبناء جنسه ، فعلم أن له مبدعاً مغايراً له ولهم ، فأثبت له الألوهية والوحدانية ؛ وعندئذ اتصل به من مبدعه التأييد الإلهى « والعلم الجارى والنور السارى » الذى هو كلمة الله ، ويسمى أيضاً « الأمر » و « روح القدس » ، وذلك العلم الذى جاءه من المتعالى هو كماله الثانى ، وبهذا العلم صار عقلاً كاملاً أزلياً محيطاً بكل شئ عالماً لما كان وما يكون ؛ فاتخذه المتعالى حجاباً وصار « الاسم الأعظم » الذى به وحده يتوسّل إلى المتعالى ..

ثم انتبه شبحان آخران من تلك الأشباح النورانية إلى نفس ما انتبه إليه هذا العقل الأول ، ولكن أحد الشبحين سبق الآخر ، فنظر بذاته إلى ذاته وإلى بنى

جنسه كما نظر العقل الأول ، فعلم ــ كما علم ــ أن له مبدعاً فوحده ونزّهه وقدّس العقل الأول « السابق » له ، فاتصل بواسطته بالنور الإلهى السارى والعلم الجارى ، فحصل على كماله الثانى وصار عقلاً أزلياً كاملاً لا فرق بينه وبين الأول إلا برتبة السبق ، فكان الأول هو « السابق » وكان الثانى هو « التالى » .

عندئذ اتحد السابق بالتالى واتخذه حجاباً وباباً ، وأقام الدعوة بأن خاطب الأشباح النورانية ودعاهم إلى تأليه المتعالى وتوحيده ، فاستجاب له سبعة أشباح الواحد بعد الآخر ، كل منهم وحد المتعالى ونزّهه واعترف برتبة العقل الأول وبكونه « السابق » وبالعقل الثانى وبكونه « التالى » ، وهنا اتصل بالأشباحِ السبعةِ النورُ السارى والعلمُ الجارى من خلال العقلين الأول والثانى وبواسطتهما ، فحصلوا على كمالهم وصاروا عقولاً سبعة ، هى عقول الكواكب السبعة السيارة .

ولكن الشبح النورانى ــ الذى سبق الإشارة إلى أنه قد انتبه هو والشبح الذى صار « التالى » إلى نفس ما انتبه إليه العقل الأول « السابق » ــ قد ارتكب خطأ ؛ إذ اعتقد أنه وزميله فى مرتبة واحدة ، فأراد أن يتخطاه ويتصل بالعقل الأول مباشرة مستعجلاً هكذا فى الاتصال بالعلم المحيط ومعرفة الحقائق قبل الأوان ، فكانت نتيجة محاولته القفز إلى الأول متخطياً الثانى أن انقطعت عنه مادة السابق له ، مادته الإلهية النورانية ؛ فأظلمت ذاته ، وسقطت مرتبته ، وصار عاشراً بعد أن كان الثالث .

وعندما استيقظ من غفلته ، وعلم أنه ارتكب زلة ، اعترف بخطئه ، وأعلن التوبة ، وتوسّل بالعقول السابقة له التى حنت عليه ورمته بأشعتها النورانية ، مما سمح له بالاتصال بالنور الجارى والعلمِ السارى ؛ فأشرقت ذاته ، وتخلص من تلك الظلمة ، وبلغ كماله الثانى ، وانتظّم فى سلك العالم الروحانى . وهذا العقل الثالث الذى أصبح العاشر هو آدم الروحانى .. آدم الملكوتى ..

ولما كان كل عقل من هذه العقول العشرة يحمل ضمنه ما لا يحصى من

الأشباح والصور النورانية (= العقول السماوية = الملائكة) تتبع فى مصيرها مصير العقل الذى توجد فيه ، فإن الأشباح التى فى ضمن هذا العاشر قد زلت بزلّته ، ولكنها لم تتب مثل توبته ، حيث انقسمت فرقاً ثلاثاً :

فرقة وحدت المتعالى ، وقدست العقل الأول ، ولكنها تخطت الثانى فبقيت فى زلتها (ومنها حواء الروحانية زوج آدم الروحانى) ..

وفرقة أقرت بالمتعالى ، ولكنها لم تعترف بالعقل الأول ولا بالعقل الثانى ، وظنت أنها وإياهما فى مرتبة واحدة ..

وفرقة لم تستجب لنداء العقل الأول أصلاً ، فتنكرت للدعوة وتكبرت واستكبرت ولم توحد المتعالى ولا التزمت بأحد العقول .

فلما تاب العاشر ، آدم الروحانى ، كلف بتخليص هذه الفرق الثلاث الضالة من الأشباح النورانية التى كان يحملها فى ضمنه ، فخاطبها ، ولكنها لم تستجب له فازدادت صورها ظلمة وازدادت مراتبها سقوطاً .

هكذا تراكمت تلك الأشباح الصورية كتراكم الغيوم والضباب ، وتحركت حركة لزمها بها الطول ، وكان مبدأ هذه الحركة حرارة ومنتهاها برودة ، ثم تحركت حركة ثانية فلزمها منها العرض ، وكان مبدأ حركتها رطوبة ومنتهاها برودة ، ثم تحركت حركة ثالثة فوقعت فى العمق ، وهكذا صارت تلك الأشباح من خلال حركاتها وبواسطتها هيولى وصورة .

وكانت هذه الحركة بقصد من العناية الإلهية التى علمت أنه لا خلاص لتلك الأشباح الضالة إلا بقيام دعوة مماثلة للدعوة التى قامت فى دار الإبداع ، وإن هذه الدعوة الجديدة لابد فيها من مكان وزمان وامتحان ليتطهر من يتطهر ويصير لطيفاً صافياً فيصعد .. ويبقى فى الظلمة من يبقى ويرتكس ويزداد كثافة وظلاماً .

ثم عمدت العناية الإلهية إلى ذلك الركام من الأشباح الذى صار هيولى وصورة ، فصنعت من جزء منه ــ وهو جزء الفرقة الأولى ــ عالم الأفلاك

وهم الآباء ، ومن جزء آخر ــ وهو جزء الفرقة الثانية ــ عالم الأمهات أو العناصر الأربعة ، أما الباقى ــ وهو الفرقة الثالثة ــ فقد انعقد لشدة ظلامه حتى صار كالصخرة ، فجعلت منه العناية الإلهية الأرض .

وبتأثير الآباء (= عالم الأفلاك) على الأمهات (= عالم العناصر الأربعة) أخذت المعادن والنباتات والحيوانات فى الظهور ، ثم تلا ذلك ظهور الإنسان .

لماذا خلق الله العالم ؟

تشير أصول الحركة العقائدية إلى استحالة معرفة حكمة الخلق ؛ فالسؤال عن « لماذا خلق الله العالم ؟ » سؤال غير منطقى وغير مقبول لديهم ؛ لأن الإنسان لما كان عاجزاً عن إدراك كيفية كون العالم ، فإنه بالأحرى أعجز عن إدارك حكمة خلقه . وإذا كان البعض يقولون إن كيفية خلقه كانت « بالأمر » فإنهم لم يعرفوا كيفية ذلك « الأمر » . وقد تكون حكمة الخلق داخلة فى كيفيته ؛ وبالتالى يمتنع معرفة حكمته لعدم معرفة كيفيته .. يقول السجستانى : « .. ومن المتفق عليه أن أحداً لم يقف على كيفية كون العالم من الصانع ، وإن كان بعض الحكماء ، قد أطلقوا على أن كونه من الصانع بالأمر ، فلم يقفوا على كيفية ذلك الأمر . فلما اتفقت آراؤهم على أن درك كيفية كون العالم غير ممكن ، كان طلب لمية كونه أمحل وأبعد عن القياس . ولعل لمية داخلة فى كيفيته ، فيعسر الوقوف على لميته لخفاء كيفيته » [الينابيع: ص ١٠٣] .

وأيضاً فإن ملكة المعرفة التى يستخدمها الإنسان فى محاولة معرفة حكمة خلق العالم ، إنما هى جزء من هذا العالم ؛ فكيف إذن يستطيع معرفة حكمة خلق العالم كله مع أن ملكة المعرفة جزء منه ؟ يقول السجستانى : « وأيضاً فإن القوة الباحثة على لمية خلق العالم فى الإنسان جزء من العالم ، فكيف يمكنه الوقوف على لمية خلق شئ ، والقوة الباحثة جزء من الشئ الذى يريد الوقوف على لميته ؟ فإذا أمكنه الوقوف على لمية خلق العالم بالقوة الباحثة التى فيه ،

كانت هذه الصورة خارجة عن الشيء الذى أحاط الإنسان به ،. والجزء لا يخرج من كله » [الينابيع : ص ١٠٤] .

وطالما أن معرفة حكمة خلق العالم متوقفة على معرفة كيفيته ، فإن الإنسان فى الوقت الذى يستطيع فيه أن يعرف كيفية كون العالم ، فإنه يمكنه معرفة : لماذا خُلق ؟ لأن المرء إذا أحاط بكيفية كون شئ ما ، فإنه يجوز عقلياً أن يعرف حكمة وجوده .. يؤكد ذلك صاحب الينابيع مع ضرب بعض الأمثلة التوضيحية فيقول : « إنما حكم أن السؤال عن لمية ما يدرك كيفية كونه محال ممتنع ، فأما إذا أحاط الإنسان بكيفية كون شئ ، ثم طلب لميته ، كان ذلك مستقيماً جائزاً فى العقل . ومثال ذلك كمن وقف على كيفية كون النبات من الطبائع بمعونة من حركات الأجرام العلوية ، جاز له أن يطلب لمية كونه ، ويمكنه الإحاطة به ، كمن وقف على كيفية كون الحيوان من الأمهات بمعونة النبات ، كان له أن يطلب لمية كونه » [الينابيع : ص ١٠٣] .

وهكذا نرى من واقع نصوص المذهب الذى تنتمى إليه حركة الحشاشين أن حكمة خلق العالم مجهولة ، ولا يمكن اكتشافها قبل معرفة كيفية كون العالم ؛ لأن الإجابة عن سؤال « لم؟ » تتوقف على الإجابة على سؤال« كيف؟ » .

مماثلة العالم العلوى للعالم السفلى :

نرى من استعراض قصة الخلق عند الإسماعيلية أن نظام الوجود العلوى يتكون بخلاف المبدع من عشرة عقول تتدرج فى ترتيب هرمى محكم .

وبعد ذلك تقدموا خطوة أخرى ، فقالوا بأن نظامهم الدينى إنما هو على مثال العالم العلوى فكائنات ونظام الهيكل الإسماعيلى (= الحدود السفلية) تماثل العقول السماوية (= الحدود العلوية) ؛ فالنبى شيد نظام الدين على غرار نظام الوجود ، يقول هبة الله الشيرازى : « ... موضوع عالم الجسم وعالم الدين الذى هو الأوضاع الشرعية التى كنى الله عنها بالخلق والأمر — على أصل واحد ونسخة واحدة ، كما قال الله سبحانه : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكما قال

النبى ﷺ : « **إن الله تعالى أسس دينه على مثال خلقه ليستدل بخلقه على دينه وبدينه على وحدانيته** ... » [المجالس المؤيدية : ص ٩٧] .

فكل الموجودات من أجسام متحركة ونفوس الأولياء والتابعين لهم وما أنزل الله من الكتاب والأحكام ، كل ذلك يماثل النظام العلوى ، يقول الكرمانى : « ذلك آثار خلق الآفاق التى تجمع عالم الجسم بما يحويه من متحرك وساكن والأنفس التى هى أولياء الله أجمع من نبى ووصى وإمام وتابع ، وما أنزله من كتابه وأحكامه المؤسس أمرها على مثال ما سبق عليها فى الوجود من العالم » .

ومن هنا فإن معيار صحة وصواب الشرائع هو مماثلتها لنظام الموجودات ، وإذا وُجدت شرائع مخالفة لنظام الموجودات فهى باطلة ، يقول الكرمانى : « فما وافق خلق الله تعالى وطابقه من الأوامر والشرائع أخذوا به بأنه صحيح ، وما نافاه وخالفه منها اطّرحوه عالمين بأنه سقيم » .

وكل ما غاب عن الحواس يجب تصور موجوداته ونظامها على أساس المماثلة مع نظام الدين وأصل الخلق : « وما غاب عن الحواس أخذوه على صيغته واعتقدوه على مثاله من قانون الشريعة وأصل الخلق » .

والدليل عندهم على وجود محاكاة بين نظام الدين ونظام العالم العلوى ــ بالإضافة إلى الآية والحديث السابق ذكرهما ــ أن النبى : « سلك صلى الله عليه وعلى آله فى التعليم والدلالة على الموجودات والهداية إلى اقتناء السعادات وتأليف الشرع وبسط السياسة الإلهية ، مناهج التشابه بالصانع فيما صنعه ليكون شرعه ، لكونه ميزاناً للمعالم الإلهية ، على صيغة موازنة مطابقة للخلق ، فوضع بإزاء كل موجود سنة من السنن وأمراً من الأمور ليكون قد دّل على ما علا من الحدود فى دين الله وكيفية أمرهم فى وجودها بما دنا وحضر منهم ، وتحصل بمعرفتهم الأشياء العالية وتصور مراتبها ، وجعل القائمين مقامه مهيمنين على هذا العالم مختصين بفضيلته ، [وجعل] تابعيهم المنتسبين إليهم [مختصين] بحسن طاعتهم وعبادتهم لله تعالى » . [راجع هذا النص

والنصوص السابقة فى راحة العقل للكرمانى : ص ٢٣٦ ومابعدها] .

ومن هنا فقد أجروا موازنة بين عالم المثولات — الذى هو عالم العقول السماوية التى أبدعها الإله المتعالى : ابتداء من العقل الأول حتى العقل العاشر ، وبين عالم الأمثال الذى هو عالم الدين المسمى عندهم «الصنعة النبوية» : فإذا كان يوجد فى عالم الصنعة النبوية ، عالم الدين ، ناطق (= رسول) هو الموجود الأول فى هذا العالم ، فإنه يجب اتخاذه مثلاً والقول بوجود ممثول له فى عالم الألوهية هو العقل الأول (فلكه الفلك الأعلى) .

وإذا كان فى عالم الدين أساس (= الوصى) ، فإنه يجب اتخاذه مثلاً والقول بوجود ممثول له فى عالم الألوهيـة هو العقل الثانى (الفلك الثانى) .

وإذا كان الإمام فى عالم الدين يأتى فى المرتبة الثالثة بعد الناطق والوصى ، فإنه يجب اتخاذه مثلاً والقول بوجود ممثول له فى عالم الألوهية هو العقل الثالث (فلك زحل) .

وهكذا : فإن الباب ممثوله هو العقل الرابع (فلك المشترى) .

ثم الحجة : ممثوله العقل الخامس (فلك المريخ) .

ثم داعى البلاغ : ممثوله العقل السادس (فلك الشمس) .

ثم الداعى المطلق : ممثوله العقل السابع (فلك الزهرة) .

ثم الداعى المحدود : ممثوله العقل الثامن (فلك عطارد) .

ثم المأذون المطلق : ممثوله العقل التاسع (فلك القمر) .

ثم المأذون المحدود أو المكاسر : ممثوله العقل العاشر (ما دون فلك القمر من الطبائع) .

عقائد ما بعد الموت

- مصير الطبقة الأولى من المؤمنين .
- مصير الطبقة الثانية من المؤمنين .
- مصير الكافرين .

عقائد ما بعد الموت

يتحدد مصير الإنسان روحاً وجسداً بعد الموت ـــ فى عقائد الحركة ـــ على أساس انتمائه العقائدى ، فيصنفون الناس قسمين : قسماً يؤمنون بالمذهب ، وقسماً يكفرون به .

والمؤمنون بالمذهب ينقسمون بدورهم إلى نوعين ، لكل منهما مصير يتناسب مع درجته فى الإيمان ونصيبه من المعرفة والعمل .

مصير الطبقة الأولى من المؤمنين :

أما النوع الأول من المؤمنين : فهم « أهل المعارف الحقيقية ، والعلوم الإلهية ، والأعمال الصالحة ، والموالاة لجميع الأئمة ، من ناطق الدور ووصيه إلى إمام الزمان وحدوده » [الأنوار اللطيفة فى فلسفة المبدأ والمعاد للحارثى] .

فهؤلاء عندما تنفصل أرواحهم عن أجسادهم ، فإنها تأخذ طريقها إلى « جنة المأوى » حسب مرتبتها ؛ كالآتى :

بعد أن تفارق النفس جسدها تتحد بالنفس التى فوق أفقها ، ثم تصعدا معاً إلى النفس التى فوقها ، وتندمجا معاً فى نفس واحدة تتحد هى الأخرى بالنفس الموجودة فى المرتبة التى فوقها ، ويستمر الصعود واتحاد النفوس إلى أن يصار إلى النفس الكلية التى تعود إليها النفوس الجزئية .

والدليل على هذا من كتبهم أن ابن الوليد يشير فى كتابه « الذخيرة فى الحقيقة » : إلى أن إمام الزمان يحرّك عمود النور فيجذب صورة المتوفى (أى نفسه) إلى صورة حدّه العالى « ليسمع سؤال من يسأله عن المعارف وجوابه بالحقائق ويترقى بالإفادة والاستفادة » ، فيستكمل الاطلاع على الحقائق حتى

إذا جاء دور انتقال حده العالى ذاك إلى صورة العالى عليهما جذبهما عمود النور إلى صورة هذا الأخير ، فتصير الصور الثلاث صورة واحدة ، وتستمر عملية اتحاد النفوس وصعودها على هذا النحو حتى الوصول إلى رتبة الحجة « مجمع المجاميع نهاية كل حد شريف إلى دار القدس .. جنة المأوى المجتمعة جميع الصور إلى شريف مقامه » . [الذخيرة فى الحقيقة : ص ٦٩ ومابعدها] .

على أنه ينبغى الإشارة إلى أن الحد العالى التى تنتقل إليه أرواح الأنبياء والأوصياء والأئمة عند انفصالها عن أجسادها هو « العقل العاشر » الذى هو « مجمع الأوائل منهم والأواخر .. فكل ناطق ووصىّ وإمام فنقلته إلى حرم العاشر الأمين فيكون الكل عنده مجتمعين إلى أن تتكامل المقامات الشريفة وينقضى دور بتمامه » [الذخيرة : ص ٩٢] .

ولكل روح من تلك الأرواح رتبتها وموضعها حسب درجة إيمانها ومعرفتها يقول الحارثى : « وعلى قدر مبلغ كل واحد منهم فى العلم والمعرفة والولاء يكون علوه فى ذلك الهيكل النورانى » .

هذا عن أرواح هذا النوع من المؤمنين ، أما أجسادهم ، فقد وجدنا فى كتب القوم اختلافاً بيّناً وتعارضاً ملموساً حول تحديد مصيرها .

فعلى سبيل المثال يذكر الحارثى أن أجساد هذا الصنف من المؤمنين « تكون محفوظة فى أعز عز ، وأحرز حرز ، وذلك أنها تعود إلى السحيق بعد مفارقتهم لطائفهم ، ثم إلى المزاج والممتزج ، ثم تعود إلى الأرض أمطاراً ، ثم تلطف إلى أن تحلل بخاراً ، وتصعد إلى فلك البروج فى أماكنها ، وينحدر ذلك من البروج إلى الأرض ، ثم يصير تراباً سحيقاً ، ثم ترتقى إلى أن تصير فى القامة الألفية إنساناً ، وذلك الصاعد الكائن خلفاً للمنحدر .. وعند كمال هذه الأشخاص وبلوغها الحلم تدعى فتجيب ويؤخذ عليها العهد الكريم ، وترتقى فى الرتب الدينية والمعارف الحقيقية شيئاً بعد شئ من غير أن يدخلها شك ولا يعرض لها شبهة ، بل تكون جارية فى مضمار الصعود ، إلى أن تبلغ مالها أن تبلغه ، وهو مبلغها الذى بلغته فى أول وهلة عند كونها وظهورها بالجثة الإبداعية : فالباب

يعود باباً ، والحجة يعود حجة ، وداعى البلاغ يعود داعى بلاغ .. ولا يزالون كذلك كلما صفت نفس وصعدت إلى عالم الصفا ، انبعث فى جسمها المتخلف نفس أخرى بتدبير المتدبرات ونظر العناية الإلهية » .

فيفهم من كلام الحارثى أنهم يؤمنون بالتناسخ ، فى حين أن المُطّلع على مؤلفات هبة الله الشيرازى وحميد الدين الكرمانى وابن الوليد يجد ما يفيد عدم اعتقاد القوم فى التناسخ .

وعلى سبيل المثال فإن ابن الوليد يتحدث عن مصير تلك الأجساد بشكل يختلف تماماً عما قاله الحارثى ؛ حيث يؤكد ابن الوليد على أن نفوس المؤمنين المتوفين بعدما تلتحق بجنة المأوى ، فإن العناية الإلهية تعمد إلى أجسامهم وتعمل فيها « بالتخمير فى قبورها ثلاثة أيام » من يوم الوفاة فتتكون منها « فضلات لطيفة » تصعد دخاناً وبخاراً إلى السماء فتجذبها أشعة الكواكب والأفلاك إليها ، فتصعد أولاً إلى القمر « الذى هو الواسطة بين عالم الكون والفساد وبين عالم الأجرام ، فتقيم فيه مدة ما يقدرها المدبر من الأيام والشهور والأعوام ، ثم تنتقل إلى فلك عطارد .. ثم ... إلى فلك الزهرة » ، وبعد أن تستكمل تطهرها من خلال تنقلها فى هذه الأفلاك الثلاثة وتكون « قد ازدادت علواً وشرفاً » تنتقل إلى « الباب الجرمانى الكبير الكريم والمحل الفلكى العظيم سراج العالم ومصباحه » فلك الشمس « قلب عالم الأجرام وبيت الحياة والنور » حتى تستكمل شرفها وتصبح « خميرة نامية .. مجتمعة ممتزجة لطيفة .. فتهبطها العناية الإلهية على حسب ما صعدت : تدفعها الشمس إلى الزهرة ثم تدفعها هذه إلى عطارد ثم يدفعها هذا إلى القمر ويدفعها القمر إلى الأرض فَتَحُلُّ على « شئ من الفواكه الطيبة والمياه اللذيذة العذبة » فى شكل قطرات مطر وندى « قد انعصرت وصفت بما فعلته الأفلاك فيها من العقد والحل » فيتغذى منها إمام الزمان وزوجته « وتقع الملامسة بين العضوين الشريفين فيختلط جميع المائين اللطيفين » ، فتحمل زوجة الإمام ، وترعى الكواكب ذلك الجنين الذى يتغذى بما انتقل إليه من تلك « الخميرة » عبر تلك الفواكه والمياه ..

وهكذا نرى أن ابن الوليد فى كتابه « الذخيرة فى الحقيقة » [ص ٨٢–٨٦] يحدثنا عن مصير أجساد المؤمنين بعد الموت على أساس أنها تمر بمراحل تصبح فى نهايتها الخميرة الإبداعية التى هى غذاء الإمام فى بطن أمه . الأمر الذى يختلف تمام الاختلاف مع ما ذكره الحارثى من أن أجساد المؤمنين تمر بدورات تناسخية .

مصير الطبقة الثانية من المؤمنين :

هذا عن نفوس النوع الأول من المؤمنين ، أما النوع الثانى منهم ، وهم « أهل الولاء المتعلقون بشئ من العلوم الدينية والحكم الإلهية » فإن أرواحهم حسب أقوال الحارثى فى كتابه (الأنوار اللطيفة فى فلسفة المبدأ والمعاد) تكون فى الهيكل النورانى ولكن فى درجة أدنى من الدرجات التى يوجد فيها أهل النوع الأول ، « فيكون كل واحد منهم فى موضعه الذى يستحقه » ، أما أجسامهم فلا تبلغ « مبالغ أجسام أهل الضرب الأول ، بل تبقى مرتهنة بتلك الأفعال القبيحة التى تعدت إليها ، وأقدمت عليها من غير حلها ، فيقتص منها بجميع ما أسلفته وفعلته من قليل وكثير ، ويسلك بها فى شئ من صرط العذاب ، ومطامير العقاب الأدنى ، وتعرف بالنار المصفية ، إلى أن يكمل ما عليها من المظالم ، واستؤنف بها العمل والترقى إلى أن تظهر إلى القامة الألفية ، ثم تدعى فتجيب ، وتتصل إلى حدها الذى بلغته أولاً ... » .

مصـــير الكافريـــن :

بقي أن نعرف عقيدتهم فى شأن غير المؤمنين بمذهبهم ، حيث يقولون إن نفوس هؤلاء الكافرين تظل فى عالم الطبيعة الأرضية تتناسخها أجسام الكائنات المختلفة ، كلما بليت صورة بالفساد كونت أخرى بالكون ، فلا تزال تتعرض فيها للألم والأسقام ؛ فلا تفارق جسداً إلا ويتلقاها آخر . ويستدلون على هذا الاعتقاد بقوله تعالى : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ [النساء : ٥٦] .

يؤكد هذا من كتبهم ما جاء فى كتاب الحامدى (كنز الولد : ص ١١٢ ـــ ١١٣) ، حيث يقول : « إن النفس فى عالم الكون والفساد ، كائنة فى الأجساد ، وهى الأرواح الهابطة للزلة التى كانت منها ، والخطيئة التى جنتها ، فأهبطت وأبعدت من دار الكرامة ، فبقيت معذبة مربوطة بالطبيعة الحسية والتكليفات اللازمة لها فى الشرائع الناموسية ، جزاء لها بما أسلفت ، وما ذكره الحكماء من الهيولى والصورة ، إلا تنبيهاً للنفس اللاهية ، والأرواح الساهية الغافلة ، عن آيات الله ، وتذكاراً لهم .. وأن الهيولى والصورة : أعراف عليها واقفون ، وبرازخ لهم إلى يوم يبعثون ، كلما بليت صورة بالفساد كونت أخرى بالكون ؛ فهم بين البلاء والنشوء ، مترددون ما بين الهيولى الجسمانية والصورة التركيبية » .

واضح من هذا النص أنهم يؤمنون بأن الكافرين يمرون بأدوار تناسخية متكررة من العذاب والآلام بعد موتهم الأول . والسؤال الآن : ما هى طبيعة تلك الأدوار ؟ وكيف تحدث ؟ .

يرى القوم أن الكافر عند موته تتحد نفسه بجسده حتى يصير الاثنان جوهراً واحداً ، ثم يتحول هذا الجوهر الواحد إلى تراب ، ثم يتبخر هذا التراب ، ويصبح مطراً ، ولكنه ليس مطر خير ، وإنما مطر سوء ؛ حيث يحدث معه البرق والرعد والسيول المدمرة ، ثم يتحولان (أى الجسد والنفس اللذان أصبحا جوهراً واحداً) إلى نبات أو حيوان « فيغتذيه من يصلح له الاغتذاء ، ويستقبل بهما العذاب ، وهى الأدراك السبعة :

فأولها : درك الرجس : وهى قمص البشر ، فيصير ذلك المغتذى به نطفة يرتقى إلى أن يخرج من بطن أمه جنيناً فى قميص الزنج والزنات والبربر والترك وغيرهم من الذين لا يصلحون لمخاطبة الحق . ولا يزال ينتقل من قميص إلى قميص ، إلى أن يستكمل فى كل نوع من أنواع هذا الدرك سبعين قميصاً .

ثم خرج بالمزاج والممتزج ، إلى **قمص الوكس** ، وهو الدرك الثانى المماثل للتركيب البشرى ، وهم القرود والدب والنسناس والغول وأمثال ذلك .

فيسلك به فى كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصاً إلى أن يستوفيها جميعها ، وهو فى جميع هذه القمص الوكسة يتحقق أنه فى حال العذاب ..

ثم يسلك به فى قمص العكيس ، وهو الدرك الثالث ، وهم سباع البر والبحر ، كالأسود والذئاب وأمثالهم ، إلى أن يستكمل فى كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصاً ..

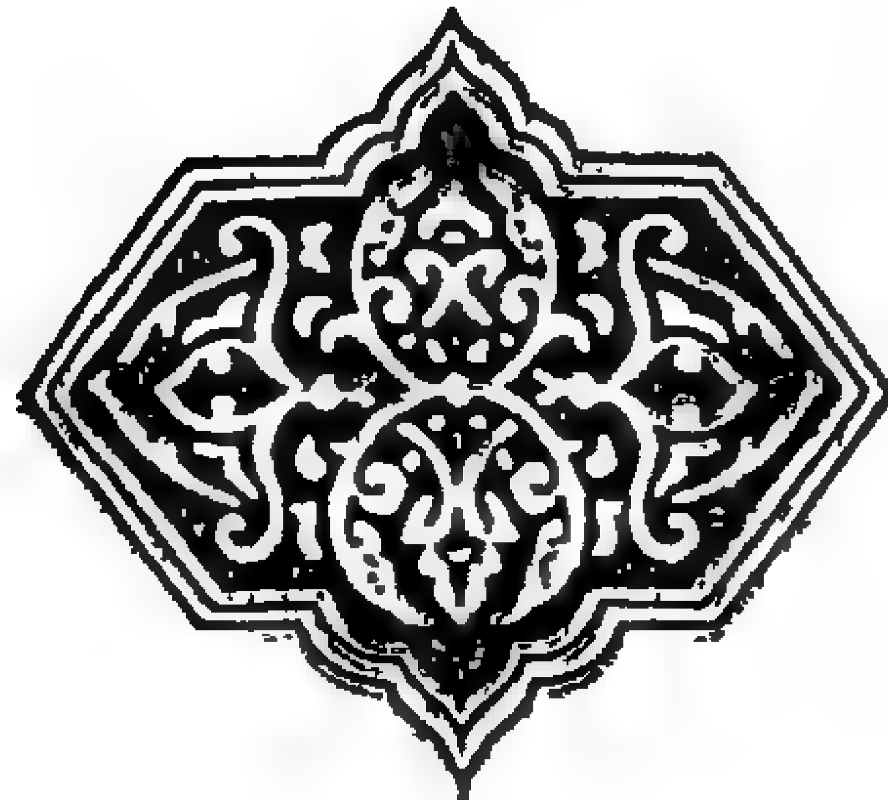
ثم يسلك به في قمص الحرس ، وهو الدرك الرابع ، وهم هوام البر والبحر ، كالأفاعى والعقارب ، فينقمص في كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصاً ...

ثم يسلك به فى الدرك الخامس ، ويسمى النجس ، وهم طير البر والبحر ، إلى أن يستوفى فى كل نوع منها سبعين قميصاً .

فإذا استوفى جميع هذه القمص سلك به بما هو فى الدرك السادس ، ويسمي اليكس ، وهو النبات المحظور القاتل المهلك للحيوان ، إلى أن يستوفى فى كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصاً .

ثم يسلك به في الدرك السابع ، الذي يسمي الركس ، وهو المعدن والحجر ، إلى أن يستوفى فى كل نوع من أنواعه سبعين قميصاً ..

وبعد أن يمر بهذه الأدوار التناسخية ، يتم نفيه إلى أماكن خالية من السكان في الأجزاء غير المعتدلة من الكرة الأرضية .



نظريــة الإمــامــة

- إثبات الإمامة .
- حتمية التعلم من الإمام .
- وجوب معرفة إمام الزمان .
- التسليم المطلق للإمام .
- طبيعة الإمام المتمايزة .
- تعالى منزلة الإمام .
- حقيقة الإمام كمظهر للألوهية اللامعلومة .
- النتائج المعرفية لنظرية الإمامة .
- رتبة النبى وعلاقته بالإمام .

نظريــة الإمــامـــة

إثبــات الإمــامــة ..
وحتمية التعلم من الإمام :

أول خطوة يقوم بها الحسن الصباح فى إثبات الإمامة ، وحتمية التعلم من الإمام ، هى تصديع سلطة العقل ؛ على أساس أن العقول تختلف فيما بينها ؛ وتتوصل إلى آراء متعارضة . وطالما آمن المرء بقدرة عقله ، فليس له أن ينكر قدرة العقول الأخرى التى تختلف معتقداتها عن معتقداته ؛ وبالتالى تتعدد المعتقدات وتتباين ، مما يدل على ضياع الحقيقة بين هذه الشتات المتكثر . يقول الحسن الصباح فى الفصل الأول من الفصول الأربعة التى ترجمها الشهرستانى عن الفارسية فى كتابه الملل والنحل :

« للمفتى فى معرفة الله تعالى أحد قولين : إما أن يقول أعرف البارى تعالى بمجرد العقل والنظر دون احتياج إلى تعليم معلم . وأما أن يقول : لا طريق إلى المعرفة مع العقل والنظر إلا بتعليم معلم . قال (= الحسن) : ومن أفتى بالأول فليس له الإنكار على عقل غيره ونظره ؛ فإنه متى أنكر فقد علم ، والإنكار تعليم ، ودليل على أن المنكر عليه محتاج إلى غيره . قال (=الحسن) : والقسمان ضروريان ؛ لأن الإنسان إذا أفتى بفتوى ، أو قال قولاً ، فإما أن يعتقده من نفسه ، أو من غيره » . [الفصول الأربعة بترجمة الشهرستانى فى الملل والنحل : ص ١٩٥] .

وبذلك فإنه يحصر وسائل العلم فى وسيلتين : إما عن طريق العقل والنظر ، وإما عن طريق المعلم أو الإمام . ولما كانت النتائج والمعتقدات التى يتوصل إليها

العقل متكثرة متعارضة متناقضة ؛ فقد ثبت عجز العقل عن التوصل إلى الحقيقة الواحدة ، وثبت بطلان الآراء المتباينة التى يصل إليها ؛ فإن علامة الحق كما يقول الحسن : « هى الوحدة ، وعلامة الباطل هى الكثرة ، وأن الوحدة مع التعليم ، والكثرة مع الرأى ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الإمام ، والرأى مع الفرق المختلفة ، وهى مع رؤسائهم » . [الفصول الأربعة بترجمة الشهرستانى فى الملل والنحل : ص ١٩٧] .

وإذا ثبتت الحاجة إلى المعلم ؛ فإنه لابد من معلم واحد محدد معصوم من الوقوع فى الخطأ والمعاصى ؛ لأنه لا يجوز التعلم من عدة معلمين ؛ حيث أن كثرة عددهم تؤدى إلى تنوع آرائهم ؛ مما يدل على بطلان التعلم منهم ؛ فـ « علامة الحق هى الوحدة ، وعلامة الباطل هى الكثرة » . يتساءل الحسن مؤكداً هذا :

« إذا ثبت الاحتياج إلى معلم ، أفيصلح كل معلم على الإطلاق ، أم لابد من معلم صادق ؟ » .

ويجيب على هذا التساؤل بقوله :

« ومن قال إنه يصلح كل معلم ما ساغ له الإنكار على معلم خصمه . وإذا أنكر فقد سلم أنه لابد من معلم صادق معتمد » . [الفصل الثانى] .

وفى الفصل الثالث يبين الحسن وجوب تعيين شخص الإمام ، فيقول :

« إذا ثبت الاحتياج إلى معلم صادق ، أفلابد من معرفة المعلم أولاً والظفر به ، ثم التعلم منه ؟ أما جاز التعلم من كل معلم من غير تعيين شخصه وتبيين صدقه ؟ والثانى رجوع إلى الأول . ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق ، فالرفيق ثم الطريق » .

وهكذا ، فإنه يمكن تقسيم جميع الأحزاب الدينية ، من هذا المنظور ، إلى قسمين :

القسم الأول : يقولون بوجوب وجود معلم صادق يمكنهم من معرفة

الحق . ويتحتم تعيين شخص هذا المعلم أولاً ، ثم التعلم منه .

القسم الثانى : يأخذون العلوم أحياناً عن طريق العقل والنظر وأحياناً أخرى عن معلم أو عدة معلمين .

ووفقاً للمقدمات السالفة التى ذكرها الحسن الصباح يكون الحق من وجهة نظره : « مع الفرقة الأولى ؛ فرئيسهم يجب أن يكون رئيس المحقين ، وإذ تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين » [الفصل الرابع] .

فهذه هى الأدلة التى يستخدمها الحسن الصباح للبرهنة على ضرورة الإمام ، وحتمية التعلم منه ، وبطلان استعمال العقل . ولعل القارئ يلاحظ معى أنه يستخدم حججاً عقلية لإبطال عمل العقل ؛ فهو لا يعترف بقدرة العقل ، ورغم ذلك يستخدم حججه !!

ومن جهة أخرى ، فإن علماء المذهب الإسماعيلى الذى تنتمى إليه حركة الحشاشين ، قد حاولوا من قبل التدليل على وجوب التعليم من الإمام ، وإبطال النظر العقلى ، باللجوء إلى النصوص الشرعية .. من هؤلاء نذكر القاضى النعمان قاضى القضاة وداعى الدعاة فى عصر المعز لدين الله الفاطمى ؛ حيث يشير فى كتابه (اختلاف أصول المذاهب : ص ١٣٩ ــ ١٤٠] إلى أن القائلين « بالنظر وحجة العقل ممن ينتحل ملة الإسلام » الذين يقولون : « فما أنزل الله فى كتابه أو ثبت لنا عن رسول الله فليس لنا إلا أن نتعقبه (=نتبعه) ولا ننظر فيه .. ومالم نجده فى الكتاب ولا فى سنة رسول الله إستعملنا فيه النظر وحجة العقل ، ومالم يثبت لنا فى النظر وحجة العقل رفضناه » إن القائلين بهذا هم ــ من وجهة نظر المذهب كما يعبر عنه القاضى النعمان ــ محقون فى الشق الأول من دعواهم مخطئون فى الشق الثانى منها ! .

فهم محقون فى ترك الاعتراض على الله عز وجل وعلى رسوله ، والتسليم لما جاء به الكتاب وثبت من سنة الرسول .

ولكنهم مخطئون فى قولهم : « وما لم نجده فى الكتاب ولا فى السُّنة استعملنا فيه النظر وحجة العقل » ؛ لأن الله قال : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شئ** ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى**﴾ [المائدة: ٣].

ولأن الرسول قال : « **اتبعوا ولا تبتدعوا** » .

وإذن فليس هناك ــ كما يقول النعمان ــ نقص فى الكتاب ، وإنما هناك جهل من الناس . والجاهل بأمر من أمور الدين مطالب بسؤال أهل العلم = أهل الذكر ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] .

وقوله : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [النساء : ٨٣] .

والمقصود من « أهل الذكر » و « أولى الأمر » و « الذين يستنبطونه » ــ هم : **الأئمة** .

ولا تقتصر حجج القاضى النعمان على الحجج الشرعية ، بل يستخدم أيضاً حججاً عقلية ، فيقول للقائلين « بالنظر وحجة العقل » : ما قولكم فى من نظر مثلكم واستدل بحجة عقله مثلكم ، فخالفكم فيما توصلتم إليه أنتم بالنظر وحجة العقل ؟ ما حجتكم عليه وقد استعمل ما استعملتموه وذهب إلى مثل ما ذهبتم ؛ فهل يكون الحق فيما قلتم أنتم وفيما قال مخالفكم ، فيكون الشئ حلالاً وحراماً ؟

وجوب معرفة إمام الزمان والتسليم المطلق له :

لذلك كله يتحتم وجود الإمام والتعلم منه ؛ فالأرض ــ كما يقولون ــ لا يجوز أن تخلو من إمام ؛ وعلى المؤمن أن يعرف هذا الإمام ويتبعه ؛ وينسبون فى هذا الصدد حديثاً للنبى ﷺ يقول فيه : « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » وهذا الحديث رائج بكثرة فى مصنفاتهم ، كما ينسبون إلى

جعفر الصادق أنه يقول : « الجاهلية جاهليتان : جاهلية كفر ، وجاهلية ضلال ؛ فجاهلية الكفر ما كان قبل مبعث النبى ، وجاهلية الضلال ما يكون بعد مبعثه فيمن ضل عن إمام زمانه » . [ديوان المؤيد فى الدين: ص ٧٢] .

وتمثل معرفة الإمام درجة عالية من درجات العلم ؛ فكما تشير المراجع الألموتية فإنه يمكننا معرفة أنفسنا من خلال صورتنا الفيزيقية ، وهى معرفة متهيئة حتى للحيوانات . ويمكن لنا أن نعرف اسمنا الرسمى ونسبنا الأرضى ، وهى معرفة متهيئة حتى لأعدائنا . ثم تأتى بعد ذلك المعرفة السامية التى هى الإقرار بالإمامة ، وهى معرفة يشترك فيها كل أعضاء الدعوة . وأخيراً توجد معرفة الإنسان بحقيقته أى الحقيقة الباقية وصفاتها ، وهى معرفة تعنى أننا بدأنا نسمو ببصيرتنا على كل أنماط المعرفة الأخرى ، معرفة تنير القلب ولا تكون إلا للحُجّة .

وبعد أن يعرف المؤمن إمامه ، ينبغى عليه أن يجعل الإمام محور وجدانه وحبه ؛ وعلامة هذه المحبة أن تكون نفس الإمام أحب إليه من نفسه ؛ بل عليه أن لا يحب نفسه ؛ يقول نصير الدين الطوسى فى التصورات — وهو أحد أعلام إسماعيلية ألموت — : « آية هذه المحبة عدم محبة النفس ؛ ذلك لأن من أحب نفسه مثقال ذرة فكأنما هو لم يحب الإمام قط ؛ لأن محبته إياه قد خالطتها محبته نفسه فلا تكون محبته خالصة له » .

وهذه المحبة الخالصة للإمام تستلزم الطاعة المطلقة له ، والتسليم التام لكل ما يصدر عنه من تعاليم ؛ لأنه أعلى منه رتبة ومقاماً . وهذه سُنة الوجود التى يتحقق بها كمال الموجود ؛ فكلما سلم حد من الحدود نفسه إلى الحد الذى يليه مقاماً ورتبة فإن كماله يتحقق ، ويضرب نصير الدين الطوسى مثلاً على ذلك فى التصور الثالث والعشرين من كتابه (التصورات) بأن التراب إذا وضع نفسه تحت تصرف النبات حتى يضرب فيه النبات بجذوره ويستخلص غذاءه من صفوياته وخلاصاته وينمو ويرتفع وتظهر خاصياته — وصل من الترابية إلى النباتية . والنبات إذا وضع نفسه تحت تصرف الحيوان فجعل هذا منه غذاءه ،

فكمل جسمه وهيكله وحواسه ـــ وصل من النباتية إلى الحيوانية . والحيوان إذا وضع نفسه تحت تصرف الإنسان حتى يستغل بعضه فى تقويم جسمه وتقوية روحه الحيوانية التى بها يحس الإنسان ويتحرك ، ويجعل منه غذاءه ، ويستغل بعضه الآخر فى إنجاز مصالحه ـــ وصل من الحيوانية إلى الإنسانية .

ثم إن الإنسان الناقص الجاهل يمكنه أن يرتفع من درجة الجهل إلى درجة العلم إذا جعل نفسه تحت تصرف الإنسان العاقل الكامل ، وسلمه حسه وعقله ؛ فيلقى إليه كلية بزمام نفسه حتى يحوله من حال إلى حال ، ويبلغ به من موضع إلى موضع على الوجه الذى يرى مصلحته فيه .

وهكذا فإن الطوسى ، ينطلق من مبدأ التفاضل السائد فى الوجود ابتداء من عالم التراب إلى عالم النبات إلى عالم الحيوان إلى عالم الإنسان ، وخضوع كل عالم من هذه العوالم للعالم الذى يعلوه ؛ ينطلق الطوسى من هذا المبدأ ليستنتج وجود صنف من البشر أفضل من الآخرين علماً وكمالاً ، هم الأئمة ؛ الذين يتوجب على سائر أصناف البشر أن يمتثلوا لهم ويتبعوهم حتى يمكنهم الترقى فى مراتب الكمال البشرى .

طبيعة الإمام المتمايزة :

تكشف مصادر الحركة المذهبية عن أنها تؤمن بأن طبيعة الإمام ليست بشرية خالصة ، بل هى طبيعة متمايزة وسامية ؛ حيث يجمع الإمام فى شخصه بين ناسوت طبيعى وناسوت خاص ولاهوت .

أما الناسوت الطبيعى للإمام فهو جسده البشرى العادى المكون من اللحم والدم والعظم « الذى تجرى عليه الحوادث وتلم به الأمور الكوارث من القتل والموت والحزن ومعاندة الأضداد ومكايدة الحساد » .

أما الناسوت الخاص للإمام فهو جسد لطيف لا تدركه الأبصار ، وليس كبقية أجساد الناس الأخرى ؛ إذ أن هذا الجسد إنما تكون من مغناطيس كونى يمارس عمله على أجساد المؤمنين الأثيرية عند موتها ، فتتكون منها فضلات

لطيفة تتصاعد من سماء إلى سماء ، ثم تنزل مطهرة شريفة ومعها إشعاعات قمرية ، فلا يراها الإدراك النظرى ، ثم تحط وهى فى شكل ندى سماوى — على سطح ماء صاف أو على بعض الثمار ، ثم يشرب الإمام وزوجته من هذا الماء ويأكلان من هذه الثمار ، وعندما يجامع الإمام زوجته يصبح الندى السماوى برعماً لجسد لطيف هو جسد الإمام الآتى الذى مازال جنيناً فى رحم أمه ، وترعى الكواكب ذلك الجنين الذى يتغذى بما انتقل إليه من تلك الخميرة عبر تلك الثمار والمياه ، وينقسم غذاؤه قسمين :

أحدهما : ما يتصل به من أشعة الأفلاك والكواكب ، وذلك متصل بخط والده التى هى النطفة الملقاة إلى أمه .

والثانى : يأتيه من والدته ، وهو ما يكون فى الأغذية التى تغتذى بها والأشياء التى تتصل بها فى مأكلها ومشربها .

والذى يواصله قسط الأب هو مادة لأعضائه الباطنة ، وقسط الأم هو مادة أعضائه الظاهرة ...

فإذا كان الشهر الرابع رفع عمود النور بوساطة شعاع الشمس إلى ذلك الجنين حياة محيية ذخرت له من ألطف فضلات الحدود الميامين وأتباعهم .. وهى تقوم له مقام طرف الحرارة الغريزية الأدنى المنفوخة فى الأجنة عند كونها فى الأحشاء فى الشهر الرابع ، والتى بها تكون الحركة والنمو ..

ثم تتصل به فى الشهر السابع الطرف الأعلى الفاضل من تلك الحرارة الغريزية الذى هو الحياة الشريفة ..

فوفقاً لهذه الكيفية يتكون ناسوت الإمام الخاص أو جسده الخاص الذى لا يجرى عليه أى لون من ألوان الأحداث الخارجية التى تجرى على الناسوت الطبيعى من مرض أو موت أو تقلبات فسيولوجية أو غيرها .

وبذلك يكون للإمام ناسوتان : ناسوت طبيعى ؛ وناسوت خاص . والعلاقة بين الناسوتين تتمثل فى كون الأول غلافاً للثانى ، ولذلك فإن

الناسوت الطبيعى رغم أنه يشارك أجساد الناس الآخرين فيما يقع عليه من أحداث وعوارض إلا أنه يتميز عن تلك الأجساد العادية فى كونه يعكس عنه نظرات الأعين فيرتد إليها نظرها ، مثل المرآة المصقولة التى تعكس النظرات الموجهة إليها ، أو كما يقول ابن الوليد فى كتابه [الذخيرة فى الحقيقة : ص ٩٩] : « كما ترد المرآة الصقيلة المبصرات بالتعكيس إلى نظر ذاتها لا إلى سواها .. وكل ناظر إلى ذلك الغلاف الشريف ـــ ناسوت الإمام الطبيعى الجسمانى ـــ فإلى ذاته نظر وكل طالب إدراكه بتلك الحاسة فعلى الحيرة وقع وفى العجز والقصور استقر » .

أما لاهوت الإمام ، فلابد لنا لكى نفهم المقصود منه أن نوضح أن المستجيب عندما يعلن إيمانه بالدعوة صادقاً مخلصاً ـــ يتصل بروحه قبس من النور يظل قريباً منه دون أن يمتزج فيه ، ويتوقف حجم هذا القبس النورانى ودرجة نموه على مدى ارتقاء فكر وعمل هذا المستجيب ، وإذا ما نجح فى أن يرتقى بفكره وعمله فإن المغناطيس الإلهى يقوم بواسطة عمود النور بجذب صورة نور المستجيب المؤمن منذ وقت وجوده إلى صورة نور صاحبه الذى يسبقه فى المرتبة ، ثم يرتفعان معاً إلى الحد الذى يعلو عليهما ، وهكذا دواليك حتى يصلوا جميعاً إلى مرتبة يشكلون فيها مجمع الحدود أو « الهيكل النورانى » الذى ـــ وإن كان له شكل إنسانى ـــ إلا أنه هيكل روحانى محض . وهذا الهيكل النورانى هو الإمامة .

وعندما يتم النص على إمام جديد من طرف أبيه تأتيه صورة الإمامة ـــ أو لاهوته ـــ من هذا الهيكل النورانى .

وهكذا نفهم أن لاهوت الإمام هو هذا الهيكل النورانى المكوّن من كل صور (أى نفوس) المستجيبين النورانية .

ولكل إمام من الأئمة الذين يتعاقبون فى كل حقبة من حقب الدور ـــ هيكله النورانى القدسانى الخاص والذى يتكون بتلك الطريقة . ومجموع الأئمة يشكلون الهيكل النورانى الأعظم ، وهو على وجه التقرير قبة الهيكل النورانى .

تعالى منزلة الإمام :

تعتبر حركة الحشاشين الإمام هو ممثل الله على الأرض ؛ فهو « ظل الله » ، و « وجه الله » ، و « الإنسان الكامل » ، و « رجل الله » ؛ يقول الطوسى فى [التصورات : ص ٩٨] :

« من الممكن أن تسمى القائم — الإمام أو وجه الله الباقى ، أو الصفة العظمى التى هى اسم الله الأعظم ، ولك أن تسميه مظهر الكلمة العليا ، أو محق الوقت ، وهو الكل بلا خلائق ، وكل الخلائق بدونه عدم ، وكلا الأمرين بمعنى واحد » .

ويؤكد الطوسى على هذا التصور للإمام فيقول : « إن قوله قول الله ، وفعله فعل الله ، وأمره أمر الله ، وكلمته كلمة الله ، وحكمه حكم الله ، وإرادته إرادة الله ، وعلمه علم الله ، وقدرته قدرة الله » !! [التصورات : ص ٨٩] .

وليس غريباً بعد ذلك على أناس يعتقدون فى الإمام مثل هذا الاعتقاد التأليهى ، أن يعتبروا ذلك الإمام هو « المولى الذى بإرادته يصبح المعدوم موجوداً وبقبوله يصبح الممتنع واجباً » !! [التصورات : ص ٨٨] .

حقيقة الإمام كمظهر للألوهية اللا معلومة :

وإذا كان الإمام يتمتع بهذه الرتبة والمنزلة ، فهذا لأن الصورة الإنسانية — فى ظنهم — هى مثال عن الصورة الإلهية ؛ والإمامة هى المظهر الإلهى الأصيل ووحى الحضرة الإلهية والهادى إلى هذا الوحى ؛ والإمام هو « الحجة العظمى » ، والكفيل الذى ينوب عن الألوهية اللا معلومة . وإلى هذا تذهب خطبة الإمام حسن على ذكره السلام (هكذا يشفعون اسمه) فى ٨ آب ١١٦٤م عندما أعلن قيام القيامة فى قلعة ألموت :

« مولانا هو قائم القيامة ، ومولى الكائنات ، وهو الوجود المطلق المنزه عن كل التعريفات والتحديدات الوجودية كلها ؛ لأنه يتعالى عليها كلها ، يفتح

باب رحمته ، ويجعل بنور معرفته من كل كائن ناظراً وسامعاً ومتكلماً إلى الأبد » .

ويلح الطوسى على هذا المعنى فى تصوراته مؤكداً أن وجه الإمام القائم « هو وجه الله ، ويده يد الله ، وسمعه سمع الله » ، ومن هنا فله الحق : « أن يقول نحن أسماء الله .. ونحن من الله إذا كنا به فنحن هو .. أنا رافع السموات وأنا باسط الأرضين ، وأنا الأول والآخر والظاهر والباطن وأنا بكل شئ عليم » !!

على أنه ينبغى التأكيد على أن ما يقصده هؤلاء بحقيقة الإمام هذه ، ليس هو الوجه الحسي المادى لهذا الإمام أو ذاك ، وإنما حقيقة الإمام الباقية التى تجد مثلاً فردياً أرضياً عليها فى شخص كل إمام . وهذه الحقيقة الباقية للإمام ، تجعل الإمام موجوداً وجوداً سرمدياً ؛ فهو قد وُجد وهو موجود وسيوجد دائماً ، وتقلبات ظهوره كلها مرتبطة بإدراك الناس ، فشخصه هو نوعه ، ونوعه هو شخصه . وشخصه باق بنوعه أبد الأبدين ، وكلمة التوحيد متوارثة متناسلة فى نسله وعقبه فى سلالة واحدة ، بل وفى ذات واحدة ، ويستدلون على ذلك بالآية الكريمة : ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ [آل عمران : ٣٤] ، و﴿وجعلها كلمة باقية فى عقبه﴾ [الزخرف : ٢٨] .

وهذا الإمام الواحد فى الحقيقة ، قد جعله الله تعالى يظهر فى أشكال وصور أرضية مختلفة نظراً لمصلحة العباد ؛ فهو يبدو جنيناً فى رحم أمه طوراً ، وصغير طوراً آخر ، وابنا مرة ، وحفيداً مرة ، وشاباً فى بعض الأحيان ، وأحيان أخرى كهلاً ، وملكاً فى زمن ما ومتسولاً فى زمن آخر ... وهكذا سائر الأحوال ، كل ذلك حسبما يتراءى لأعين الخلق ؛ وحكمه هذا كما يقول صاحب (هفت باب بابا سيدنا) : « حتى يستقر الوجود للخلق ، ويظهر لهم حكم إمام زمانهم فى يومهم وغدهم » . [ص: ١٨]

وكما أن الإمام يظهر فى أزمنة مختلفة ، فهو يظهر أيضاً فى أماكن مختلفة ؛ فتارة يظهر فى هذا البلد ، وتارة أخرى فى بلد آخر ، ومرة يكون بالمغرب وأخرى بالمشرق ، وثالثة بالشمال ، ورابعة بالجنوب .. وهكذا .. وهؤلاء

الرجال المتفاوتون فى المظهر والمتعددون فى الأماكن باختلاف الأزمان — هم فى الحقيقة والجوهر إمام واحد .

ويمكنا أن نفهم مقصدهم من « وحدة الأئمة » أكثر إذا ما عرفنا عقيدتهم فيما يسمونه « عمود النور » الذى تتحقق به بين الأئمة علاقة نسب نورانية ؛ فيزعمون وجود : « نور ساطع متصل بالنفوس الخيرة .. هو العمود الذى يذكرون أنه بين الإمام وباريه ، عمود من نور ، مجرى الوحى على ممر الدهور .. هو الحبل المذكور أن طرفه بيد الله وطرفه الثانى بأيدى عبيده .. يدرك به ما فى العالم العلوى وما فى العالم السفلى كما قال مولانا أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) عليه السلام : والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً . فهو روح القدس الجارى عن النهاية الأوَّلِة الذى هو الأمر ، علّة العلل ، الموجود الأول » . [كنز الولد للحامدى : ص ١٧٣] .

ولتأسيس هذه العقيدة يستندون إلى حديث نبوى مروى فى كتبهم ، يقول فيه النبى لعلىّ بن أبى طالب :

« لم أزل أنا وأنت يا علىّ على نور واحد ننتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية ، كلما ضمّنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم حتى انتهينا إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب ، فانقسم ذلك النور نصفين : فى عبد الله وأبى طالب . فقال الله تعالى : كن يا هذا محمداً وكن يا هذا عليًّا » .

النتائج المعرفية لنظرية الإمامة :

هذه النظرة للإمام تترتب عليها نتائج معرفية متعددة ، لعل أول نتيجة منها هى أن معرفة الإمام أو الإنسان الكامل ، هى المعرفة الوحيدة لله ، الممكنة للإنسان باعتبار أن الإمام هو المظهر الإلهى الابتدائى : « فمن لم يعرف إنسان زمانه الكامل فإنه سيبقى غريباً . وفى هذا المعنى قيل : من رآنى فقد رأى الله » . ويستدلون على ضرورة معرفة الإمام حتى يمكن للمرء معرفة الله استدلالاً تمثيلياً ؛ فيقولون إن النور الذى يشع عن المصباح ليس المصباح

نفسه ، ولكن إذا لم نجد النور فكيف نعلم ما هو المصباح أو كيف نعرف إذا كان المصباح موجوداً أصلاً وأين هو؟. ومن هنا فقد قال الطوسى فى [التصورات : ص ٨٨] : « وقد جعل الحق تعالى طاعة الإمام ميزاناً لطاعته وعبادته ، ومعرفته هى عين معرفته ، ومحبته عين محبة نفسه » .

ويعتبر الطوسى وجود الإمام بين الناس من رحمة الله الكبرى عليهم، بل على خلائق العالم كله؛ لأن الإمام هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله، فيقول: «ومن رحمة الله الكبرى على خلائق العالم بروز إمام الزمان كالخلق (أى على صورتهم وهيئتهم) بين الخلق حتى يعرف الخلق الله حق معرفته وبه يطيعونه..» .

وتؤسس الحركة تصورها هذا على قول للإمام الرابع زين العابدين يقول فيه : « من عرف إمامه فقد عرف ربه » .

وإذا لم يعرف العبد إمامه فبالتالى لن يعرف ربه وسيموت وهو جاهل به ؛ ويستدلون على ذلك بحديث يروونه عن النبى قال فيه: «من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » .

فمعرفة الله تتم عن طريق معرفة الإمام وبواسطته ، أما الإمام نفسه فمعرفته تتم بواسطة معرفة النفس ، فمعرفة النفس هى التى توصل إلى معرفة الإمام ، والدليل على ذلك هو تلك الحكمة المأثورة فى كتبهم : « من عرف نفسه فقد عرف مولاه (= إمامه) » .

ولكن لا يعنى هذا أن معرفة الإمام ممكنة من كل وجه ، بل هى فى الحقيقة ممكنة من وجه واحد من حيث كون الإمام « خلقاً » فى مقابلة الخلق ، أما من حيث كونه « حقاً » فى مقابلة الخلق فمعرفته ممتنعة ، يقول الطوسى : « وإن قيل ليس لأحد إلى معرفة الإمام سبيل فكأنما قيل بأن معرفة الله هى معرفة أهل كل زمان لإمامهم الذى يجب عليهم طاعته ــ كلام مجازى ... وإن قيل ان السبيل إلى معرفة الإمام مفتوح أمام كل الناس ، فكأنما قيل إن الإمام محسوس بحس كل إنسان ومعقول بعقله . ومن أحد الوجهين يتأتى الكفر ، ومن الوجه الآخر يتأتى الشرك . ومن ثم لزم أن تكون معرفة الإمام من حيث هو الحق فى

مقابلة الخلق غير ممكنة ؛ لأن حس أى إنسان أو عقله لا يمكن أن يصل إلى معرفة ذاته وحقيقة صفاته ، أما معرفته من حيث هو خلق فى مقابلة الخلق فممكنة » . [التصورات : ص ٨٨] .

وهكذا فإن النصوص المأثورة عن الحركة تؤكد على أن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة الإمام ، ومعرفة الإمام تتم عن طريق معرفة النفس ؛ فيكون التدرج المعرفى الذى يتدرج معه العارف هو : معرفة النفس ، التى ينتج عنها معرفة الإمام ، فمعرفة الله .

رتبة النبى وعلاقته بالإمام :

بما ان الإمام هو المظهر الأرضى للتجلى الأولى ، والإمامة باقية سرمدية ، فى حين أن النبى والرسالة النبوية وقتية ؛ فإن الولاية أو الإمامة متقدمة على النبوة التى هى معينها ، وشخص الولى (= الإمام) متقدم على شخص النبى .

وهذه النظرية للعلاقة بين الإمام والنبى تختلف كل الاختلاف عن نظرة الشيعة الاثنى عشرية ؛ حيث أن تقدم الولاية عندهم على النبوة إنما هو فى شخص النبى ذاته ؛ فهى لا تتضمن أبداً معنى يكون فيه الولى متقدماً على النبى المرسل .

وبينما يحتل النبى المشرّع المرتبة الأولى لدى الإمامية الاثنى عشرية ولدى الإسماعيلية الفاطمية ، فهو عندهم المثل الأرضى للعقل الأول ؛ فإنه لا يحتل لدى إسماعيلية ألموت (= حركة الحشاشين) إلا مرتبة ثالثة . والذى يبدو هو أن إسماعيلية ألموت لا تفعل أكثر من إعادة نسق من الصدارة ، كانت قد أقامته الإسماعيلية ـــ قبل ـــ الفاطمية ، ويتمثل فى تتابع هذه الحروف الرمزية الثلاثة : (ع) على الإمام ، (س) سلمان ـــ جبريل ـــ الحجة ، (م) محمد النبى . وسبب ذلك هو أن النبى باعتباره « ناطق » أى مبلغاً لشريعة ؛ فهو بهذا يشغل مهمة الداعى الذى يدعو الناس نحو الإمام الذى يمثل المعنى المستور الباطنى لهذه الشريعة .

التنظيم السرى للدعوة

- أسباب اللجوء للعمل السرى .
- النظام الهرمى للدعاة .
- أساليب الدعوة ومراحلها .
- مراحل ارتقاء المستجيب فى درجات التنظيم .

التنظيم السرى للدعوة

فرضت المعطيات المحلية : التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، التى كانت تتحدد بها الوضعية العامة فى إيران — على حركة الحشاشين الانصراف عن العمل السياسى المباشر إلى العمل السرى المنظم .

فقد عانت الحركة الإسماعيلية — التي تمثل الأصول المباشرة لحركة الحشاشين — أشد المعاناة فى المجال السياسى ، عندما فشلت محاولات دعاتها الرامية إلى ضم الأقاليم الإيرانية إلى الدولة الفاطمية عن طريق استمالة الأمراء المحليين . وحين تسلم البويهيون — وهم من الشيعة المعتدلة — زمام السلطة فى بغداد فضل رؤساؤهم ممارسة السلطة الفعلية باسم الخليفة العباسى بدل التنازل عنها للخليفة الفاطمى . وإذا كان بعض الأمراء البويهيين قد سمحوا أحياناً للدعاة الإسماعيليين بالتحرك علناً فى العراق وفارس ، فإن الدولة الغزوينية والدولة السلجوقية السنيتين اللتين قامتا على أنقاض الدولة السامانية ، قد شنّتا حملة واسعة رهيبة ضد الدعاة الإسماعيليين وأتباعهم فشردتهم وقتلتهم وأحرقت دور كتبهم . وقد امتدت الحملة إلى العراق والشام بعد أن استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ وحصل زعيمهم طغرل بك على لقب « السلطان » من طريق الخليفة العباسى القائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) .

فى ضوء هذا الوضع الوعر كان من الطبيعى إذن أن تراجع الحركة الإسماعيلية فى العراق وإيران أسلوب عملها . فإذا كانت تعمل من قبل وفقاً لسياسة « التفتح » والعمل العلنى من أجل الهيمنة الفكرية واستمالة الأمراء المحليين ، وفشلت فى ذلك ، فإنه لم يبق لها إلا العمل السرى .

وهذا ما لجأت إليه الحركة فى شكلها الجديد مع الحسن الصباح ، الذى انكب على تنظيم الحركة تنظيماً هرمياً سرياً محكماً على أساس الولاء الشخصى

ومبدأ « التعليم » الذى يربط الاتباع بالإمام ربطاً قوياً معتمداً على السيطرة السيكولوجية وغزو الأذهان بطرق منظمة بالغة الإحكام .

وتتمثل أهم معالم هذا التنظيم السرى وطرق الدعوة العقائدية فى الجوانب الآتية :

مراتب الدعاة :

تختلف مراتب الدعاة فى عهد الحسن الصباح اختلافاً واضحاً عما كانت عليه من قبل، فقد كانت مراتب الدعاة مقسمة إلى عشر مراتب ، يُطلق عليها « مراتب الحدود المؤثرة فى الأنفس » ، وهذه المراتب العشر ثلاث منها كلية ، وسبع منها تابعة .

فالثلاث الكلية هى :

١ ــ **الناطق** : ومهمته إفاضة البركة بتأسيس قوانين العبادة العلمية الظاهرة بالتنزيل والشريعة .

٢ ــ **الأساس** : ويقوم بقبول البركة بكليتها والقيام بها بجميع التنزيل وتأسيس قوانين العبادة العلمية الباطنية بالتأويل .

٣ ــ **الإمام** : وله الأمر وسياسة الأمة كافة على سنن الدين ، وليس من مهامه أن يقوم بالدعوة بنفسه ، بل يتولى توجيه سائر الدعاة ويرشدهم إلى نشر الدعوة وتلاوة مجالس الحكمة .

أما السبع مراتب التابعة ، فهى :

١ ــ **الباب** : وله فصل الخطاب فى أمور الدنيا والدين ، وهو أول من يتلقى العلوم الإلهية من الإمام ، ثم يفيض بها على من هم دونه .

٢ ــ **الحجة** : له الحكم فى ترتيب المراتب ، وارتضاء الآراء والاعتقادات ، وإظهار تأويل الكتاب . والحجة ذو مواهب حربية وسياسية ؛ ولذا

فكان كثيراً ما يقول بالسفارة عن الإمام . وعدد الحجج يبلغ أربعة وعشرين حجة ، منهم حجج للنهار وهم الذين يدعون فى زمن الظهور وفى مناطق النفوذ الشيعى ، وحجج الليل وهم الذين يدعون فى زمن الستر .

٣ ــ **داعى البلاغ** : له رتبة الاحتجاج بالبرهان فى إثبات الحدود العلوية ومراتبها فى وجوداتها ، وتعريف الميعاد .

٤ ــ **الداعى المطلق** : ويقوم بتعليم العبادة العملية ، ونشر التأويل ، وتعريف الحدود .

٥ ــ **الداعى المحصور** : ويقوم بتعليم مراسم العبادة العلمية ، وتعريف الحدود السفلية وأدوارها .

٦ ــ **المأذون المطلق** : وله أخذ العهد والميثاق ، ويقوم بتعريف رسوم الدين وآدابه .

٧ ــ **المأذون المحصور** : وله المكاسرة والهداية إلى الحق .

هذه هى مراتب الدعاة فى الحركة الإسماعيلية التقليدية ، ولكن عندما جاء الحسن الصباح وأعاد بناءها بما يناسب الوضعية التاريخية فى إيران ، فإنه ابتكر نظاماً جديداً تتحدد وفقاً له مراتب الدعاة كالآتى :

١ ــ **شيخ الجبل** : وهو نائب الإمام ، ورئيس الدعوة الجديدة ؛ فكان ابن الصباح يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة ، ومولانا ، وشيخ الجبل .

٢ ــ **كبار الدعاة** : وهم الذين يضطلعون بالمهام العظمى ، ويثق بهم ابن الصباح ثقة تامة ، ولا يتجاوز عددهم ثلاثة أفراد ؛ لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة ، وجعل على رأس كل قسم واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة .

٣ ــ **الدعاة** : وعددهم غير مقيد برقم محدد ، ويشترط فى الداعى منهم أن يكون ماهراً فى المناظرة ، متمكناً من الفلسفة والعقيدة ، يحيط علماً

بأساليب الإقناع والإفحام .

٤ ــ **الرفاق** : وهم الذين قطعوا بعض الخطوات فى التفقه فى أصول المذهب ، ولكنهم بارعون فى العمليات الحربية ، فيقومون بتدريب الفدائيين وتوجيههم .

٥ ــ **الفدائيون** : وهؤلاء هم الأدوات المنفذة لعمليات الاغتيال التى كانت تقوم بها الحركة ، ويختارون على أساس إخلاصهم ، واستعدادهم المطلق للتضحية بأنفسهم .

٦ ــ **اللاصقون** : وهم الذين تدرجوا بعض التدرج فى تعلم أصول المذهب ، وليس لهم الحق فى نشر الدعوة .

٧ ــ **المستجيبون** : وهم المؤمنون حديثاً . وطبعاً هؤلاء ليسوا من الدعاة ، ولكن بإمكان أى واحد منهم أن يسمو ويتبوأ المرتبة التى تتناسب مع ميوله وإمكانياته العلمية أو الحربية .

وبعد رحيل الحسن الصباح طرأت تطورات كثيرة على بنية الدعوة ؛ لاسيما عند إعلان القيامة فى عهد الحسن بن محمد ثم فى عهد خليفته محمد . فبإعلان القيامة أصبح الحسن هو « القائم » .

وعندما خلفه ابنه محمد عمل على رفع مكانة أبيه إلى عالم الأمر الإلهى ليكون مظهر الكلمة العليا ؛ مما اقتضاه أن يجرى كثيراً من التعديلات على مرتبة الإمام والحد القدسى الذى يوازيه ، بل على سائر المراتب .

وفى فترة متأخرة كتب نصير الدين الطوسى فى كتابه « التصورات » عن مرتبتى : لسان العلم ، ويد القدرة .. وهما مرتبتان لم تشر إليهما المراجع السابقة عليه . أما لسان العلم فهو الذى يتولى رعاية وتعليم أفراد الحركة ، ويكتشف قدرات وملكات كل منهم ، وينميها حتى يصل بها إلى الكمال . ومثل لسان العلم مثل الماء الذى ينتشر فى الأرض فيخرج منها ألوان الزهور والأشجار والنبات .

أما يد القدرة : فهو الذى يقوم على رعاية شؤون الحركة وسياستها ، وتبلغ سلطته أقصاها عندما تتوقف الدعوة الفكرية ، إذ يصبح له السلطة على كل أفراد الحركة بما فيهم لسان العلم نفسه . ولكن قد يفوض الإمام فى فترة ازدهار قوة الحركة — إلى لسان العلم سلطات يد القدرة . وإذا كان مثل لسان العلم هو الماء فإن مثل يد القدرة هو النار حيث يتشابه معها فى القدرة على الإهلاك والتفريق انطلاقاً من سلطاته الحربية .

ثم طرأت على بنية الدعوة تعديلات جوهرية عندما اضطرت الحركة إلى الاندماج فى الطرق الصوفية من باب التقية بعد الدمار الذى لحقها على يد التتار ، وأصبح يطلق على رجال الدعوة مصطلحات صوفية ، مثل شيخ وولى ومريد .

أساليب الدعوة ومراحلها :

ليس أمر الدعوة متروكاً على عواهنه يتصرف فيه الدعاة كيفما أرادوا ، فوضع الحركة وسريتها وما هى فيه من خطر يقتضى التنظيم المحكم فى أسلوب الدعوة ؛ لأن أى خطأ من الممكن أن يترتب عليه أوخم العواقب . ولذا فإن هناك من الوسائل والأساليب ما ينبغى على الداعى أن يلتزم بها فى دعوته ، فأولاً يتحتم عليه — كما يقول القاضى النعمان — : « اختيار أمر من يدعوه ، وتعرف أحوالهم رجلاً رجلاً ، وتمييز كل امرئ منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه ويحمله عليه من أمر الله وأمر أوليائه ، ومقدار ما يحمله من ذلك ، وقدر قوته وطاقته ، ومتى يوصل ذلك إليه ، وكيف يغزوه به ، وامتحان الرجال ، وتعرف الأحوال ، ومقدار القوى ، ومبلغ الطاقات » ، ويؤكد النعمان على أهمية ذلك فيقول : « وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج إليه الدعاة فى باب السياسات والرياضات ؛ فكثيراً ما فسد أمر الداعى من جهله بهذا الباب ، وفسدت دعوته منه » [الهمة فى آداب اتباع الأئمة : ص ١٣٨] ، وفى مكان آخر من نفس الكتاب يؤكد على ضرورة التدرج فى الدعوة

فيقول : « ولتثبيت أمر أولياء الله حدود وشرائط وآداب ودرجات يرتقى فيها الداخل فى ذلك ، فإذا لم يقف على ذلك أولاً فأولاً ، ويرتقيه درجة درجة ، ووصل إليه منه الشيء قبل وصول ما يجب أن يصل إليه قبله — هلك ، كما أن الطفل لو حمل عليه الطعام فى حين ولادته لهلك . ولذلك كان علم أولياء الله غير مطلق إلا لمن أطلقوه له ؛ لأنه لو كان مطلقاً لأهلك بعض الناس به بعضاً ... فلهذا ولامتحان العباد أسر أولياء الله ذلك وأخفوه ، ولو نشروه وأظهروه على حقيقة الواجب فيه لما تخلف أحد عنه » [الهمة فى آداب اتباع الأئمة : ص ٥٣] .

ويتدرج الداعي مع المدعو فى مراحل تسع ، كلما نجح معه فى مرحلة ينتقل به إلى المرحلة التى تليها ، وتتمثل تلك المراحل فيما يأتى :

المرحلة الأولى :

يحاول الداعى فى المرحلة الأولى أن يشكك المدعو فى معتقداته ، فيسأله عن مسائل الدين الغامضة ، ويعرض عليه بعض الإشكاليات العقائدية ، فإن كان المدعو عارفاً بما سئل أقره الداعى ، وإلا فإنه يعرضها عليها للتأمل والتفكير فيها .

ثم يبين له كيف أن الدين أمرٌ يجهله الناس ، وأن أصل البشر والخلاف فى الأمة بسبب انصراف الناس عن الأئمة الصادقين الذين نصبوا لهم ، وأُقيموا لحفظ شرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، ويحفظون معانيها ، ويعرفون بواطنها . ففساد أحوال الناس وانحدارهم إلى مختلف ألوان الضلالات ، إنما حدث لما عدلوا عن الأئمة ونظروا فى الأمور بعقولهم ، وقلدوا سفلتهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعاً للملوك وطلباً للدنيا ، التى هل ملك الآثمين وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة ، الذين يحبون العاجلة ، ويجتهدون فى طلب الرئاسة على الضعفاء ، ومكايدة رسول الله وأمته ، وتغيير كتاب الله عز وجل ، وتبديل سُنة نبيه ، ومخالفة دعوته ، وإفساد شريعته ، ومعاندة الخلفاء من بعده

ثم يبين له أن دين محمد لم يجيء بما يحقق الأمانى والشهوات الزائلة ، ولا بما تعرفه الدهماء والكافة ؛ وإنما هو علم خفى ، وهو سر الله المكتوم الذى يرتفع

عن الابتذال ، ولا يطيق حمله وينهض بأعبائه إلا ملك مقرب أو نبى مرسل أو عبد مؤمن اصطفاه الله .

فإذا آنس الداعى من المدعو ارتياحاً أو قبولاً انتقل به إلى طائفة من المسائل الأخرى ؛ فيحاول أن يثير ملكة حب الاستطلاع عنده ، فيسأله عن بعض المسائل الغامضة المتعلقة بأصل الكون والكائنات وتركيب الأشياء وطبيعتها ومصيرها ، من تلك المسائل :

لماذا خلق الله العالم فى ستة أيام ؟ هل عجز عن خلقه فى ساعة واحدة ؟

وما معنى الصراط المضروب فى القرآن ؟

وما إبليس وما الشياطين وأين مستقرهم ؟

وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت وأين مستقرهم ؟

وما هى أبواب النار وأبواب الجنة ؟

وما شجرة الزقوم الثابتة فى الجحيم ؟

وما معنى (ألم) و (ألمص) و (كهيعص) و (حم) ؟

ولماذا جعلت السموات سبعاً ، والأرضون سبعاً ، والمثانى من القرآن سبع آيات ؟

ولِمَ فجرت العيون اثنتا عشرة عيناً ؟

ولِمَ جعلت الشهور اثنا عشر شهراً ؟

ثم يقول الداعى لمن حوله : فكروا أولاً فى أنفسكم : أين أرواحكم ؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرها ؟ وما أول أمرها ؟

وما معنى قول رسول الله ﷺ : « **خُلقت حواء من ضلع آدم** » ؟

ولِمَ كانت قامة الإنسان منتصبة دونَ غيره من سائر الحيوانات ؟

ولم كان فى وجهه سبع ثقب ، وفى سائر بدنه ثقبان ؟

ولما كان فى ظهره اثنتا عشرة عقدة ، وفى عنقه سبع عقد ؟

ولِمَ جعل عنقه صورة ميم ، ويداه حاء ، وبطنه ميماً ، ورجلاه دالاً ؛ حتى صار كتاباً مرسوماً يترجم عن محمد ؟

ولِمَ جعلت قامته إذا انتصبت صورة ألف ، وإذا ركع صارت لام ، وإذا سجد صارت صورة هاء ؛ فكان كتابه يدل على الله ؟

ولِمَ جعلت عظام الإنسان كذا ، وعدد أسنانه كذا ، والأعضاء الرئيسية كذا ؟

وينتهى إلى القول بأن الله الذى خلق الإنسان ــ حكيم غير مجازف ، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية ، حتى جمع ما جمع ، وفرق ما فرق ؛ فكيف يسع المرء الإعراض عن هذه الأمور ؟ ألا يدلكم هذا على أن الله أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية ، وأسرار فيها مكتومة ، لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ؟ ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى من جهلها كان حرياً أن لا يعلم غيرها ؟

فإذا آنس الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما أثار من الأمور ، وبدأ يسأله عن معانيها وتفاسيرها ، استمهله حتى يجئ وقت الإفضاء .

ثم يتلو عليه بعض الآيات فى الوفاء بالعهد وتوكيد الأيمان ، مثل قوله : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [الأحزاب : ٧] ، وقوله : ﴿ **ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ...** ﴾ [النحل : ٩١ ــ ٩٢] .

ثم يطالبه بالعهد الذى يجب أن يقطعه كل مدعو على نفسه بالوفاء والكتمان ، وفيه يقول المستجيب :

« أقسم بالله الذى لا إله إلا هو الحى ، الجبار ، القهار ، عالم الغيب والشهادة ؛ والنقص والزيادة ، القائم على كل نفس بما كسبت ؛ القوى الشديد الآخذ لها بما ظهرت وأضمرت ، العليم بما فى الضمائر ؛ الخبير بمكنون السرائر ، الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ، ولا فى السماء ، ولا تفوته غوامض الأشياء ، الذى من أقسم به كاذباً ، واستشهده باطناً ، استحق الخزى والخذلان ، وحل فى مقام السخط والهوان . وأقسم به ثانياً وثالثاً ورابعاً ، كما أقسمت به أولاً ؛ وأقسم بجميع أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ؛ وأشهد ملائكته المقربين ، وأرواح أنبيائه المرسلين ، ونفوس الصادقين والصالحين من عباده العارفين — اننى طالب راغب فى المذهب الإسماعيلى من خالص اعتقادى وصميم فؤادى ؛ اعتقاداً لا يشوب باطنه الدنس ولا الشك ولا الريب ولا الشبهة فى الإيمان . وليس لى قصد فى هذه الرغبة إلا تحقيق أمر الدين ، وطلب معرفة حقيقة اليقين ، وتصحيح الاعتقاد ، والدخول مع الفرقة الناجية من الطغيان والفساد ، ومعرفة مولانا صاحب الوقت ، وإمام الزمان . وإننى إذا فهمت أمراً ، وعرفت سراً ، أكتمه وأخفيه عمن لا يعتقد بمعتقدى ، ولا أظهره لأحد من الخلائق لا بقول ولا بنية ولا بإشارة ولا عبارة ، ولا تكتبه يداى ، ولا ينطق به لسانى . وإن أضمرت خلاف ما أنطق به ، أو كنيت أو تخليت أو تفكرت أو توهمت ، أكون كافراً بالله وبرسله وأوليائه وملائكته وكتبه ، وأكون محارباً لهم ، ومنكراً أمرهم ، ومخالفاً قولهم ، وذابحهم وشارب دمائهم ، وبريئاً منهم فى الدنيا والآخرة ، وخارجاً من دين الإسلام والمروءة والإيمان ، والله على ما أقول شهيد » .

هذا نص العهد الذى يقطعه المستجيب على نفسه كما جاء فى رسالة الطيبى المسماة « الدستور ودعوة المؤمنين » . وقد وقفنا على نص آخر للعهد أورده المقريزى فى كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وأورده من قبله البغدادى فى « الفَرْق بين الفِرَق » والغزالى فى « فضائح الباطنية » كما أورد هذا العهد آخرون من مؤرخى وغلماء أهل السنة ، وتوجد فروق طفيفة بفعل الزمن فى هذا النص بين كل مصنف وآخر ، ونصه كما ورد عتند الغزالى فى

« فضائح الباطنية : ص ٢٨ ، ٢٩ » كالآتى :

« جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمّة رسوله عليه السلام ، وما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق ، أنك تُسِر ما سمعته منى وتسمعه ، وعَلمته وتعلمه من أمرى ومن أمر المقيم بهذه البلدة لصاحب الحق الإمام المهدى ، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته ، وأمور المطيعين له على هذا الدين ، ومخالصة المهدى ومخالصة شيعته من الذكور والإناث ، والصغار والكبار ، ولا تظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً تَدُل به عليه ، إلا ما أطلقتُ لك أن تتكلم به ، أو أطلق لك صاحب الأمر المقيم فى هذا البلد أو غيره ، فتعمل حينئذ بمقدار ما نرسمه لك ولا تتعداه . جَعَلْت على نفسك الوفاء بما ذكرتُه لك وألزمته نفسك فى حال الرغبة والرهبة ، والغضب والرضا ، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه أن تتبعنى وجميع من أسميه لك وأبيّنه عندك مما تمنع منه نفسك ، وأن تنصح لنا وللإمام ولى الله نصحاً ظاهراً وباطناً ، وألا تخون الله ولا وليه ولا أحداً من إخوانه وأوليائه ومن يكون منه ومنا بسبب : من أهل ومال ونعمة ؛ وأنه لا رأى ولا عهد تتناول على هذا العهد بما يبطله . فإن فعلت شيئاً من ذلك وأنت تعلم أنك قد خالفته ، فأنت برىء من الله ورسله الأولين والآخرين ، ومن ملائكته المقربين ، ومن جميع ما أنزل من كتبه على أنبيائه السابقين ، وأنت خارج من كل دين ، وخارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وداخل فى حزب الشيطان وحزب أوليائه ، وخذلك الله خذلاناً بيّناً يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة إن خالفت شيئاً مما حلّفتك عليه : بتأويل أو بغير تأويل . فإن خالفت شيئاً من ذلك فلله عليك أن تحج إلى بيته ثلاثين حجة نذراً واجباً ، ماشياً حافياً . وإن خالفت ذلك فكل ما تملكه فى الوقت الذى تحلف فيه صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينك وبينهم ؛ وكل مملوك يكون لك فى ملكك يوم تخالف فيه فهم أحرار ؛ وكل امرأة تكون لك أو تتزوجها فى قابل فهى طالق ثلاثاً بتة إن خالفت شيئاً من ذلك . وإن نويت أو أضمرت فى يمينى هذه خلاف ما قصدت فهذه اليمين من أولها إلى آخرها لازمة لك . والله الشاهد على صدق نيتك وعقد ضميرك . وكفى بالله شهيداً

بينى وبينك . — قُلْ : نعم ! » فيقول : « نعم » .

ثم يطالبه الداعى بعد ذلك بمبلغ من المال يقدره رسماً للدخول فى الدعوة ، فإذا امتنع المدعو عن القيام بما تقدم وقف به الداعى عند هذا الحد ، وإذا أجاب انتقل به الداعى إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

يقوم الداعى فى هذه المرحلة بإقناع المدعو أن إقامة فرائض الإسلام لا تؤدى إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة من ولد إسماعيل بن جعفر الذين جعلهم الله أئمة للناس وأقامهم لحفظ شريعته ، ويستدل الداعى على ذلك بما ورد فى كتب الإسماعيلية حتى يثبت الأمر فى نفسه .

المرحلة الثالثة :

إذا أيقن الداعى أن المدعو قد اقتنع بنظرية الإمامة انتقل به إلى هذه المرحلة : المرحلة الثالثة ؛ حيث يبين له عدد الأئمة وأسمائهم ، فيلقنه أن الأئمة سبعة ، قد رتبهم الله تعالى كما رتب السموات والأرضين والكواكب وغيرها من جلائل الموجودات وجعلها سبعاً . وهؤلاء الأئمة السبعة هم : على بن أبى طالب ، و الحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب بزين العابدين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان إسماعيل بن جعفر . فإذا استقر فى ذهن المدعو أن الأئمة سبعة ، تلا عليه الداعى بقية الأئمة الذين يعتقد فى إمامتهم . فيقف به عند رأى الإسماعيلية فى إمامة إسماعيل ثم ولده محمد ، ويلقى إليه أن محمد بن إسماعيل عنده علم المستور ، وبواطن الأمور ، وعلم التأويل ، وأن دعاته هم الوارثون لعلمه دون سائر طوائف الشيعة ، مستدلاً على كل ما سلف بالبراهين والأدلة الواردة فى مصنفات كبار دعاة الإسماعيلية .

المرحلة الرابعة :

إذا ما تأكد الداعى من إيمان المستجيب بكل ما سبق فى المراحل السالفة ، فإنه يشرع معه فى المرحلة الرابعة ، فيبين له فيها أن الأنبياء المعتبرين ، الناسخين

للشرائع الناطقين بالأمور ، عددهم كعدد الأئمة سبعة فقط فى كل دورة ، وكل منهم لابد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته ، ويكون له ظهيراً فى حياته ، ثم يخلفه بعد وفاته ، ويتخذ له كنبيه ظهيراً يخلفه ، ويسير كل مستخلف على هذا المنوال إلى أن يأتى منهم على تلك الشريعة سبعة ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ؛ لأنهم ثبتوا على شريعة واحدة واقتفوا أثراً واحداً ، ويقال لأولهم « السوس » .

فإذا انقضى هؤلاء السبعة ، فلابد من أن يبدأ دور ثان من الأئمة ، يفتتحه نبى ناطق ينسخ شريعة من مضى ويخلفه على النحو المتقدم سبعة من الصمت ، وهكذا حتى يقوم النبى السابع من « النطقاء » فينسخ جميع الشرائع المتقدمة ، ويكون هو صاحب الزمان الأخير .

وكان أول الأنبياء « النطقاء » آدم ، وظهيره — أو سوسه — ولده شيث ، وخلفه سبعة من الأئمة الصمت على شريعته .

ثم جاء نوح ثانى النطقاء ، وظهيره ولده سام ؛ فنسخ شريعة آدم ، وخلفه السبعة الصمت على شريعته .

وكان ثالث النطقاء : إبراهيم الخليل ، وظهيره ولده إسماعيل ؛ فنسخ شريعة نوح .

وكان رابعهم : موسى بن عمران ، وظهيره أخوه هارون .

وخامسهم . المسيح عيسى بن مريم ، وظهيره شمعون الصفا .

وسادسهم : محمد ﷺ ؛ فإنه نطق بشريعة نسخ بها كل الشرائع المتقدمة ، وكان ظهيره وسوسه علىّ بن أبى طالب . وكان السبعة الصمت يتعاقبون دائماً بين كل ناطق وآخر على النحو المتقدم ، فلما توفى محمد سادس النطقاء ، تلقى دعوته علىّ بن أبى طالب وهو أول السبعة الصمت ، وجاء من بعده ستة صمتوا على الشريعة الإسلامية ، وحملوا تراث أسرارها ، وهم : ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم على بن الحسين ، ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر الصمت من الأئمة المستورين . وأما

السابع من النطقاء فى هذا الدور ، فهو « قائم الزمان » محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وهو الذى انتهى إليه علم الأولين ، ووقف على بواطن الأمور ومدارك الغيب ؛ ولذا فإن على الأمة اتباعه وطاعته .

المرحلة الخامسة :

ويوضح الداعى فيها حتمية أن يكون مع كل إمام قائم حجج متفرقون فى الأرض ، وعدتهم دائماً اثنا عشر رجلاً فى كل زمان ، كما أن عدد الأئمة سبعة دائماً . ويستدل على ذلك بأمور ، منها : أن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً ، ولابد فى خلق كل شئ من حكمة ؛ وإلا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة ، وجعل أيضاً السموات سبعاً ، والأرضين سبعاً ، والبروج اثنى عشر ، والشهور اثنى عشر ، ونقباء بنى إسرائيل اثنى عشر ، ونقباء رسول الله من الأنصار اثنى عشر نقيباً .. إلى آخر تلك الحجج الموجودة فى كتب القوم .

المرحلة السادسة :

يتحدث فيها الداعى عن شرائع الإسلام وفرائضه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها ، ويعلم المدعو أن هذه الشرائع والفروض ترجع فى الواقع إلى معانٍ وحكم أخرى غير الظاهرة ، وأنها وضعت على سبيل الرموز لمصلحة العامة ؛ حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، ولكى تصدهم عن الفساد فى الأرض ، وتكفل خضوعهم وحسن طاعتهم ، وذلك حكمة من الناصبين للشرائع وقوة فى حسن سياستهم لأتباعهم ، واتقاناً منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك ..

المرحلة السابعة :

إذا ما ثبت للداعى أن المدعو على درجة من الاستعداد والقابلية لأن ينتقل إلى مرتبة أعلى ، فحينئذ يبين له أن صاحب الشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولابد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل والآخر يصدر عنه ، وهذا إنما هو إشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوى . ويستدل الداعى على ذلك بأن مدبر العالم فى أصل الترتيب وقوام النظام ، صدر عنه أول موجود بغير

واسطة ، ولا سبب نشأ عنه ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [يس : ٨٢] ، ففيه إشارة إلى أن الأول فى الرتبة والآخر هو القدر الذى قال فيه : ﴿ **إنّا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ [القمر : ٤٩] . كما يستدل بكل ما فى علمه من أدلة وبراهين نقلية أو عقلية .

المرحلة الثامنة :

وفيها يعرف الداعى المدعو أن مدبر الوجود ، والصادر عنه ، إنما هو تقدم السابق على اللاحق ، تقدم العلة على المعلول ؛ فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى .

والسابق لا اسم له ، ولا صفة ، ولا يعبر عنه ، ولا يحدد ؛ فلا يقال موجود ، ولا معدوم ، ولا عالم ، ولا جاهل ، ولا قادر ، ولا عاجز .. وهكذا سائر الصفات ؛ فإن الإثبات يقتضى شركة بينه وبين المحدثات ، والنفى يقتضى التعطيل . وهو ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته ..

ثم إن التالى يلحق بمنزلة السابق ، والصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزل الناطق سواء ، وأن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس .. وهكذا .

وأن معجزات الأنبياء إنما هى أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور ، وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة يحوى معانى فلسفية ، تنبىء عن حقيقة ما يشتمل عليه العالم بأسره من الجواهر والأعراض ، وأنها تكون تارة رموزاً يعقلها العالمون ، وتارة تكون بإفصاح يعرفه كل الناس ، وأن القرآن والقيامة والثواب والعقاب وغيرها — معناها غير ما يفهمه الكافة وغير ما يتبادر إلى الذهن ، وأنها ليست إلا حدوث أدوار تقع عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع .

المرحلة التاسعة :

وهى المرحلة الأخيرة التى تمثل أعلى مرتبة من مراتب العلم والمعرفة ؛ حيث يدخل فيها المدعو إلى دائرة الأسرار النهائية ، ويتعمق فى علوم الفلسفة ، لاسيما علمى الطبيعة ومابعد الطبيعة . ويوقف فيها الداعى المدعو على السر النهائى المتمثل فى أن الوحى إنما هو صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهم ما يلقى إليه ويتنزل عليه ، فيبرزه إلى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله ، الذى ينظم به النبى شريعته حسبما يرى من المصلحة فى سياسة الكافة . ولا يجب العمل بهذه الشريعة إلا بحسب الحاجة فى رعاية مصالح الدهماء ، وليس على العارف المستنير أن يعمل بها ، وأن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما وجدوا لسياسة العامة ، وأن فلاسفة الإسماعيلية أنبياء حكمة خاصة .

مراحل ارتقاء المستجيب فى درجات التنظيم :

يمكن للمستجيب أن يترق فى درجات التنظيم حسب قدراته وإمكانياته وما يبذله من جهد فى تحصيل المعارف . فبعد أن يستقيم على طريقتهم ، ويأخذ فى التحرك نحو عالم الحقيقة ، تبدأ تنهال عليه « الأسرار الإلهية أولاً فأولاً على التدريج » حتى إذا « أنارت بصيرته وشعشعت صورته أطلق عن الوثلق .. وأقيم مناظراً مكاسراً ، ونصب لجميع الفرق مناظراً ، فإذا علا حده فى المعارف .. أقيم مأذوناً مطلقاً ، فإذا ازداد على تلك الرتبة فى المعارف علواً .. كان داعى بلاغ قد أذن له إلى جميع من فى صقعه بتأييده والإبلاغ ، فإذا اتصل به التأييد الكلى بخيال (أى الذى ينقل المعرفة) المصعد لرتبته .. كان باباً ومجمعاً شريفاً وحجاباً، يتسلم الصورة من الأفلاك الدنيية جميعها ويتصل بصورته الشريفة دانى صورها ورفيعها ويحفظها فى ذاته الشريفة حفظ ممازجة عن طريق الصور العلمية... ومقام هذا الحد الشريف المعرب عنه بالباب هو الحجة العظمى سبب الأسباب» [الذخيرة فى الحقيقة لابن الوليد: ص ٧٥ـــ ٨١] .

إذن فالمستجيب يمكنه أن يترق حتى يصل إلى مرتبة الحجة العظمى أو

الباب وهى المرتبة التى لا يمكنه تخطيها ؛ لأن المرتبة التى تليها مباشرة هى مرتبة الإمام التى لا تنال إلا بالوراثة والتعيين .

نظام الشفرة المستخدم بين كبار الدعاة :

من المعلوم لدى الجميع أن أى عمل سرى لا تكتمل سريته إلا باستخدام رموز سرية لا يعرف مدلولها إلا المنتمون إلى التنظيم . ومن هنا فقد لجأت حركة الحشاشين منذ وقت مبكر إلى استخدام تلك الرموز فى المكاتبات والمراسلات الدائرة بين أتباعها ، وكانوا يستعملون الحمام الزاجل فى نقل الرسائل السرية بين مقارهم وقلاعهم فى شتى أنحاء إيران والشام .

وقد وصلت إلينا فى العصر الحديث ، بعد خروج جزء من كتب الحركة إلى النور ، بعض الأمثلة للرموز السرية التى كان يستخدمها رجال الحركة . وهاكم شيئاً منها :

أمثلة من الرموز السرية التى كانت تستخدمها الحركة

فـرق الفـدائييـن ...
والعمليات الانتحارية ..

- كيف تمكنت مجموعة صغيرة من بث الرعب فى قلوب أعداء أقوياء ؟
- أسلوب اختيار الفدائيين وتدريبهم .
- أساليب الاغتيال .
- نوعية الشخصيـات المستهدفة بالاغتيال .
- لماذا يضحى الفدائى بحياته ؟

فـرق الفـدائييـن ...
والعمليات الانتحارية ..

إذا كان الشق الأول من العمل السرى يتمثل فى الدعوة ونشر الفكر الإسماعيلى كما تفهمه حركة الحشاشين ، فإن الشق الثانى من هذا العمل يتمثل فى استخدام الرعب كسلاح ضد الأعداء اللدودين للحركة الذين لا يتورعون عن شن حملات التقتيل والتشريد ضد أعضائها . ولكن كيف يمكن لمجموعة صغيرة أن تبث الرعب فى قلوب أولئك الأعداء الأقوياء ؟

إن هذه المجموعة الصغيرة يمكنها أن تفعل ذلك إذا كان وراءها عقل محنك يستطيع أن ينظمها التنظيم المحكم الذى يؤهلها للقدرة على توجيه ضربات مؤثرة إلى الخصم ، ثم امتصاص رد الفعل العنيف الذى لا محالة واقع ؛ الأمر الذى يتطلب رجالاً يؤمنون بعقيدة استشهادية تلهمهم الشجاعة والصمود فى مواجهة أى تصفية جسدية يقوم بها الخصوم تجاههم .

وقد استطاع الحسن الصباح بما أوتى من علم بالدين والفلسفة وبما رزق من موهبة عسكرية ـــ أن يبث فى عقول أتباعه العقائد التى تدفعهم دفعاً إلى الإقدام بشجاعة على الموت ، كما تمكن من ابتكار تنظيم محكم الأركان يستطيع أعضاؤه القيام بالعمليات الفدائية التى كان يدبرها الحسن بذكاء وحنكة بالغتين . وقد أسفرت هذه العمليات عن زرع الرعب والإرهاب خلال مدة قصيرة فى أوصال الدولة السلجوقية وبلاط الخلافة العباسية الخصمين الرئيسيين لحركة الحشاشين .

وتظهر براعة الحسن الصباح منذ اللحظة الأولى التى يختار فيها الفدائيين ،

حيث يعمد إلى أهل المناطق الجبلية والصحارى الذين يتميزون بالصلابة والقوة ، ونشأوا على النفرة من السلطات السنية ، فكان يصطفى منهم الشبان ، ويتعهدهم بالتربية والتثقيف الفكرى الذى ينمى روح الجهاد والتضحية فيهم ، ويدربهم على وسائل الهجوم ، واستخدام الخناجر ، والقدرة على التخفى وتقمص الشخصيات المختلفة حسب مقتضى الحال ، كما يعلمهم لغات مختلفة ، حتى يمكنهم الظهور بشخصيات أجنبية عن المنطقة التى يقومون فيها بأداء الواجبات المكلفين بها .

وعندما يتم تكوينهم وإعدادهم ، فإنه كان يشرح لهم خطة العملية التى عليهم تنفيذها ، وكانت هذه الخطة تهدف إلى اغتيال الشخصية المستهدفة فى مكان عام وبمرأى من الجماهير ، مثل الجامع الكبير وفى يوم الجمعة ، أو فى موكب عظيم وسط الحرس والجنود ، أو فى السوق ، أو فى مقر الحكم .

وكانوا يتخفون أحياناً فى ملابس النساء ، وأحياناً أخرى فى ملابس الجنود ، ولكن كان الأغلب أنهم يتخفون فى زى المتصوفة والدراويش حيث لا يتوقع الحرس منهم شراً أو أذى . وتظهرنا بعض الحوادث أن منهم من كان يدخل فى خدمة الضحية حتى تثق فيه ، ثم ينتهز الفرصة المناسبة للإجهاز عليها . وفى بعض الأحيان إذا كانت الضحية عالماً من علماء الدين فإنه كان يواظب على حضور دروسه ويظهر نبوغاً فى التعلم وحباً واتباعاً للشيخ حتى ينال ثقته ويجهز عليه فى الوقت المناسب .

ولسنا بحاجة هنا لضرب الأمثلة على أساليبهم تلك ، إذ قد سبق لنا — فى القسم التاريخى — استعراض معظم عمليات الاغتيال التى قاموا بها .

ونستطيع من واقع ذلك الاستعراض التاريخى أن نتبين أن الشخصيات المستهدفة بالاغتيال كانت هى تلك التى تتربع على قمة المجتمع السياسى والعسكرى والعلمى ؛ فقد أمكنهم اغتيال عدد من الخلفاء ، مثل الخليفة العباسى المسترشد بالله ، ومن بعد الخليفة الراشد ، كما اغتالوا الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله . واغتالوا عدداً موفوراً من القواد العسكريين والأمراء

والسلاطين والوزراء . ولم يتورعوا عن توجيه خناجرهم المسمومة إلى صدور العلماء والمفكرين والقضاة الذين كانوا يعارضون دعوتهم . كما كانوا يغتالون كل من تسول له نفسه الارتداد عن دعوتهم بعد الدخول فيها ، وكذلك بعض أصحاب القلاع الذين يرفضون تسليمها أو بيعها لهم .

وتتمثل الأهداف المحورية لعمليات الاغتيال فى الرغبة فى القضاء على رموز الشر فى العالم من وجهة نظرهم ، والانتقام من القواد والأمراء الذين كانوا يحاربونهم ، وردع علماء الدين الذين لا يكفون عن نقدهم وإظهار مسالبهم فى خطب الجمعة والدروس العامة وأحياناً فى تصنيف المؤلفات الناقدة لهم. وقد مر معنا فى القسم التاريخى نماذج حية على كل ذلك .

ولكن أكثر الجوانب إثارة فى عمليات الاغتيال هو شجاعة الفدائيين وإقدامهم العجيب على طلب الموت ، الأمر الذى حار فيه كثير من المحللين وتضاربت بشأنه تفسيراتهم .

وفى رأيى أن أيًّا من أصحاب تلك التفسيرات لم يتمكن من أن يضع يده على مكمن الحقيقة فى هذه المسألة .

والتفسير الصحيح من وجهة نظرنا ينطلق من تسليمنا بأن الفكر هو موجه السلوك ، وبالتالى فإنه يمكنا أن نقف بكل سهولة على تفسير سلوك الفدائى فى تضحيته بحياته إذا ما وقفنا على مكونات فكره التى استطاع أن يشكلها الحسن الصباح تشكيلاً يجعل الفدائى ينفذ أوامره غير آبه بما يترتب على ذلك من نتائج .

الموقف الذى ينطلق منه الفدائى بصفة خاصة وعضو حركة الحشاشين بصفة عامة ، هو القلق والشعور بالخيبة إزاء الواقع الذى يجد نفسه ملقى فيه : الواقع الذى يعيش فيه كنفس مقيدة فى بدن ، وكفردية مؤطرة فى مجتمع حيث لا يلقى إلا ما ينغّص ويكدر ، إلا ما يجعله يشعر بأنه محاصر ومستعبد ، فيبدو العالم له شراً كله وتصبح مشكلته الأساسية هى مشكلة الشر فى العالم : لماذا كان العالم يحتوى على الشر ؟ لماذا يطغى فيه الشر ؟ وما مصدره ؟ .

من الوعى بهذه « الوضعية » يبدأ موقف عضو الحركة ، ومن إعلان رفض هذه الوضعية ينطلق : أولاً بإبداء التضايق والشكوى منها ثم بإعلان الكراهية والعداء لها انتهاء بالتشهير بها والتمرد عليها . والفدائى إذ يرفض هذه الوضعية بوصفها واقعاً خارجياً يرفضها أيضاً كشعور داخلى : يرفضها كشروط حياة ويرفض نفسه كوجود خاضع لهذه الشروط . ومن هنا إحساسه بالغربة بصورة مضاعفة : يشعر بنفسه غريباً فى عالم يراه غريباً عنه تماماً ، فيتجه إلى تمييز نفسه عن هذا العالم ، إلى الانفصال عنه والقطيعة عنه . ومن هنا ذلك الميل الجامح الذى يستولى على العارف ويذكى شوقه إلى الرحيل عن هذا العالم ، إلى التحرر من قبضته وقيوده والرحيل بعيداً عنه إلى حيث يسترجع كامل حريته ، كامل امتلاكه لنفسه . هكذا تقترن لدى الفدائى رغبة جامحة فى أن يكون نفسه ، فى أن يستعيد الانتماء إلى نفسه ، فى أن يلتحق بـ « عالم آخر » ، عالم متعالٍ عن المكان والزمان ، عالم « الحياة الحقيقية » ، عالمن الطمأنينة والكمال والسعادة ، العالم الذى كان فيه وأخرج منه والذى سيعود إليه . وهو يستقى معرفته بذلك العالم الآخر لا من خلال تأمل العالم الدنيوى ، وكيف يمكن أن يجد فيه الجواب وهو عالم غريب كله شر ؟ ولا باستعمال حواسه وعقله ، وكيف يمكن أن يعتمد عليهما وهما مرتبطان بهذا العالم ؟ وإذن فلا يبقى إلا أن يطمع فى أن يتلقى المعرفة التى يبغيها من القوى العليا التى هو مشدود إليها ويسعى للالتحاق بها ، ولكن هذه القوى العليا لا تعطى علمها الغيبى إلا لإمام الزمان ، ومن هنا فإن الفدائى « يسلم » نفسه تماماً إلى هذا الإمام أو من ينوب عنه ، وفق ما سبق أن وضحنا ، فيقوم الإمام أو نائبه باستغلال هذا الموقف فيدفع بالفدائى ورغبته فى الخلود والرجوع إلى موطنه الأصلى إلى أقصى مدى . إن الإمام يقدّم له تاريخ ما قبل تاريخه وما بعده ؛ فيعرف منه أنه كان موجوداً قبل وجوده الراهن فى العالم ، وأنه جاء إلى هذا العالم من عالم آخر يقع خارج هذا العالم ويسمو على تحديداته الزمانية والمكانية . هكذا يقتنع بسهولة ، أو لا يفتأ يقنع نفسه باستمرار ، أنه ينتمى بطبيعته إلى عالم آخر : عالم الخلود .

وانطلاقاً من هذا التصور يقتنع الفدائى بأن وجوده الراهن فى هذا العالم شئ غير طبيعى ؛ وبالتالى فلابد أن يكون هذا السقوط الذى أصابه ، والذى يتمثل فى مغادرته عالم الخلود والارتماء فى هذا العالم المملوء شراً ، لابدّ أن يكون نتيجة لذنب ، نتيجة لخطيئة . وإذن فلابد من تدارك الموقف ، لابدّ من العمل من أجل الخلاص . وهكذا يزداد شوقاً وحنيناً إلى العودة إلى حاله الأصلية . إنه يتصور « البعث والنشور » على أنه رجوع إلى حال سابقة سامية ، حال من الحرية الفكرية ، حال ينزع فيها عنه جسده ؛ ليعود إلى الحال التى كان عليها قبل ميلاده ، لا بل قبل تكونه الجسمانى . إنها النشأة الأخرى ، أو الميلاد الجديد .

وبعد أن عرف الفدائى من أين أتى وعرف أن مصيره الحقيقى الذى سيتحرر فيه من سجن هذا العالم هو الرجوع إلى حيث أتى ؛ ففى هذا الرجوع — وفيه وحده — يكمن خلاصه .. بعد أن عرف إلى أين ، لا يبقى إذن إلا أن يسلك الطريق ، وسلوك هذا الطريق لا يكون إلا تحت رعاية الإمام وتوجيهه ، والخضوع له خضوعاً مطلقاً وفقاً لمبدأ « التعليم » الذى يقوم بدوره على « التسليم التام » لكل ما يصدر عن الإمام أو المعلم الصادق من أوامر ، حتى أنه — كما يقول نصير الدين الطوسى فى التصورات — « لو أراد له الحياة لما أحب الموت . ولو أراد له الموت لما أحب الحياة ، ولو قال له أن النهار المشرق ليل بهيم أو أن الليل البهيم نهار مشرق لما هجس فى قلبه أى اعتراض على هذا القول ، ولما حام حول كيف يكون الأمر كذلك ولماذا . فينعدم اختيار الإنسان الناقص الجاهل وإرادته باختيار الإنسان الكامل العاقل وإرادته » .

ومن هنا فإن الإمام أو المعلم الصادق عندما يأمر الفدائى بأن يغتال إحدى الشخصيات المناوئة للدعوة ، والتى تمثل من وجهة نظره أحد رموز الشر ومصادره فى هذا العالم ، فإن الفدائى يسارع بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه رغم أنه يعلم أن تلك العملية ستودى بحياته الدنيوية ؛ وهو يفعل ذلك انطلاقاً من رغبته الجامحة فى المساهمة فى القضاء على الشر المسيطر على هذه الحياة الدنيا ، وشوقاً فى الصعود إلى عالم الفردوس والخلود الذى آمن من قبل أنه لن يمكنه

بلوغه إلا بأن « يخلع عنه قميص جلده » فيتحرر من بدنه ومن كل ما يشده إلى هذا العالم .

هذا هو التفسير المنطقى الذى يكشف النقاب عن الأسباب الحقيقية التى تجعل الفدائيين يقدمون على التضحية بحياتهم . ولاشك أن القارئ الكريم إذا ما تفهم التفسير المقدم فإنه سيتبين بوضوح سذاجة وسطحية التفسيرات الأخرى ، مثل التفسير الخرافى الذى قدمه ماركو بولو ؛ إذ يشير فيه إلى أن الإمام يمارس سيطرته وتأثيره على الفدائيين عن طريق تخديرهم بالحشيش وإذاقتهم ألوان الشهوات من النساء والولدان وأطايب الطعام والشراب ، ثم إغرائهم بالمزيد منها عند القيام بالمهام المنوطة بهم . والأسباب التى تدعونا لرفض هذا التفسير قد ذكرنا طرفاً منها عند الإشارة للطبيعة الطبوغرافية لقلعة ألموت ، والتى تدل بوضوح على استحالة وجود أنهار العسل والخمر واللبن والحدائق الغنّاء فى مثل تلك الظروف الجغرافية والمناخية بالغة القسوة . ونزيد هنا أن التجربة الإنسانية ، فضلاً عن التحليل النفسى الحديث ، يؤكدان أن النفوس المترفة التى درجت على تعاطى المخدرات إن هى إلا نفوس ضعيفة مستكينة يصعب أن يقوم أصحابها بأعمال انتحارية تتطلب إقداماً وتضحية مثل تلك الأعمال التى يقوم بها فدائيو الحركة .

وهنا يجب أن نسارع بالتنبيه إلى أن هذا التحليل الذى نقدمه للأسباب والدوافع التى تدفع بالفدائى إلى الرهان على الحياة والموت ، إنما هو تحليل تفسيرى علمى بحت ، وليس تبريراً بأية حال من الأحوال ؛ وهناك فارق — وفارق كبير — بين التفسير والتبرير .



الخاتمة

سيظل الإرهاب ـ سواء كان الإرهاب كما تمارسه الدولة العباسية والسلجوقية فى مواجهة الحشاشين ، أو كما يمارسه الحشاشون فى مواجهة العباسيين والسلجوقيين ـ عملاً لا أخلاقياً ، وتفكيراً لا منطقياً . نقول هذا ونؤكد عليه رغم أننا لا ننكر العوامل الموضوعية التى تقف وراء هذه الظاهرة ؛ حيث لا يشك أحد فى أن العنف يولّد العنف ، وأن الإرهابى إذ يلجأ إلى العنف فإنه لا يخلقه ولا يبتدعه ، وإنما يجد بذوره فى العالم المحيط به ؛ فالظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت سائدة آنذاك فى الدولة الإسلامية كان لها دور كبير فى نشوء هذه الظاهرة ، والمجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت بما يحوى من تناقضات وصراعات كان ينجب حفّار قبره . ومن هنا فإن أية رؤية تحليلية تنظر إلى الإرهاب السياسى والعقائدى على أنه عنصر غريب عن المنتظم الحضارى الذى كان سائداً حينئذ ، إنما هى رؤية مبتورة لأنها تجرد هذه الظاهرة من إطارها الاجتماعى والسياسى والاقتصادى .

وإذا كان الإطار التاريخى يعطى للإرهاب عنصراً عقلانياً ، فإن هذا يعنى أن الإرهاب ينطوى على تناقضات باطنية تحركه فى جوانيته . ولكن حتى هذا العنصر العقلانى يظل عاجزاً وقاصراً ومنهاراً ؛ لأنه يدفع إلى فعل كل شئ ولا يتوانى عن أى شئ مهما كان لا أخلاقياً ـ من أجل انتصار قضيته ؛ يظل هذا العنصر قاصراً لأنه ينطلق من موقف شديد التشنج والخطورة من شأنه أن يؤدى إلى أعمال شرسة وفظيعة ضد الآخرين ، وإلى أعمال انتحارية يروح ضحيتها عادة الإرهابيون أنفسهم . وليس بوسع أحد أن يفرض على الإرهابى الذى ينطلق من موقف أيديولجى ـ قواعد وقوانين من خارج مفاهيمه وحقائقه هو ، لأنه هو الذى يحددها ويختارها ويلتزم بها بمقدار ما تخدم قضيته ، وبما ما تتناسب مع الظروف التى يكافح فيها . فهو لا يراعى أى عُرف وأية حُرمة إجتماعية أو سياسية ، كما أنه لا يراعى أية قاعدة أخلاقية تشكل عائقاً فى سبيله ؛ إذ أنه يضع بتصرفه جميع الطرق والأساليب والوسائل

الممكنة دون أن يتراجع أمام الصعاب مهما بلغت خطورتها لأنه يلعب لعبة الموت فقط ، الموت من أجل حياة بعينها يريدها دون غيرها . فكل ما هو ممكن فهو مسموح ، وكل ما هو نافع وفعّال فهو ضرورى ولا يمكن التخلى عنه لأى سبب من الأسباب خارج مستلزمات حاجته وإرادته التى تهدف بالأساس إلى التغلب على العدو وتحقيق الأهداف المرجوّة وانتصار القضية الحقيقة من وجهة نظره . فالمهم أن ينجح ؛ لذلك لا يفرق بين الوسائل العادية والقانونية وبقية الوسائل الأخرى مهما بلغت حداً قصياً من العنف اللاأخلاقى واللاعقلانى . فهو لا يتوانى عن ضرب أى هدف يقع على مطال يده ، سواء كان من الممتلكات العامة أو الخاصة ، أو كان إنساناً عادياً أو أية شخصية سياسية أو علمية أو إجتماعية ، عندما يرى هو أن مصلحته قائمة فى هذا الفعل .

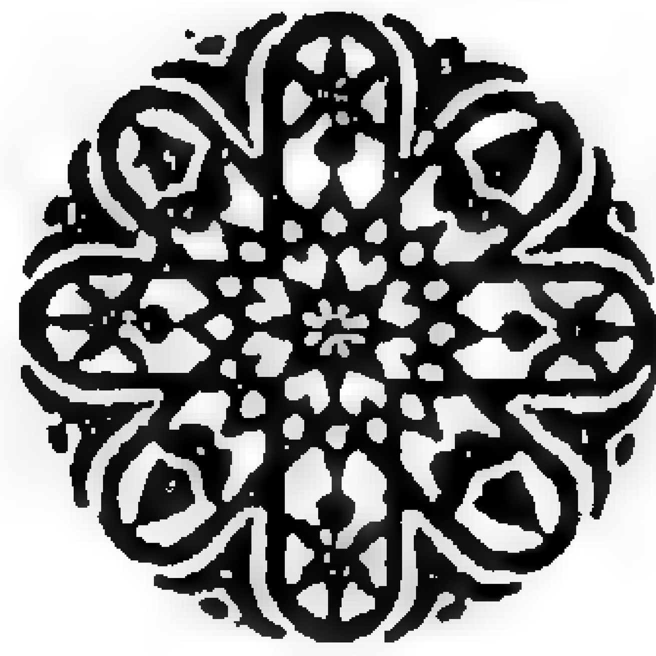
وكما قالت مدام رولان : «أيتها الحرية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ! » ، فإنه يمكن القول : « أيها الحق ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ! » . فالإرهابى إذ يحاول محو الاضطهاد والشرور والظلم ـــ يعمد إلى الإمعان فى إثارة آلام وشرور أخرى أعمق وأشد ؛ فباسم أىّ حق وباسم أية أخلاق يموت الأبرياء ويموت العلماء لمجرد أنهم يخالفون الإرهابى فى الرأى والعقيدة ؟ وباسم أية أخلاق لا يأمن الإنسان على نفسه وهو يشعر أنه مهدد بتصفيته جسدياً من مخالفيه فى التوجه والايديولوجية ؟ .

فى الواقع إن الإرهاب كسلاح فى التعامل مع الخصوم هو سلاح بدائى يفقد قيمه وينقض أخلاقياته بسبب مبدأ عدم التمييز بين الأهداف والوسائل أو مبدأ الضربة العمياء .

إن الحكومات العباسية والسلجوقية من جهة وحركة الحشاشين من جهة أخرى ؛ إذ يمارس كل حزب منهما الإرهاب فى مواجهة الحزب الآخر ، فإنه يضع أمامه هدفاً يقوم على تقويض ما يعتبره مصدراً للشرور التى تعبث فى المجتمع المعنىّ فساداً ، وتدميره تدميراً كاملاً .

وفى الواقع إن محاولة التبرير الأخلاقى والعقلانى للإرهاب بالاستناد إلى الهدف — مهما كان نبيلاً ومشروعاً — يعنى جعل الأخلاق مجرّد مجاملة للنزعات والأهواء التى تسيطر على مجموعة بشرية أو طبقة أو حزب أو دولة ؛ وبالتالى تفقد الأخلاق مضمونها وتتصدع قوانينها .

فبديهى إذن صعوبة ، بل استحالة ، فهم ظاهرة العنف والإرهاب بالنسبة للأخلاق المجردة والمبنية على المبدأين الرئيسيين : الخير والشر ؛ إذ ليس بإمكان هذه الأخلاق أن تبرر العنف والإرهاب — كوسيلة للحوار بين الخصوم — وإلا وقعت فى التناقض والانتفاء والعبثية . فعلى مستوى الأخلاق المجردة تظل المناقضة بين العنف والأخلاق لا يمكن تجاوزها ، كما لا يمكن تجاوز المناقضة بين الإرهاب والفضيلة .



فهرس الكتاب

الموضـوع — الصفحة

الأحداث التاريخية المواكبة لنشأة الحركة وتطورهـا واضمحلالهـا

الأصول التاريخية لحركة الحشاشين

حركة الحشاشين : النشأة والتطور

حركة الحشاشين فى إيران بعد رحيل الحسن الصباح

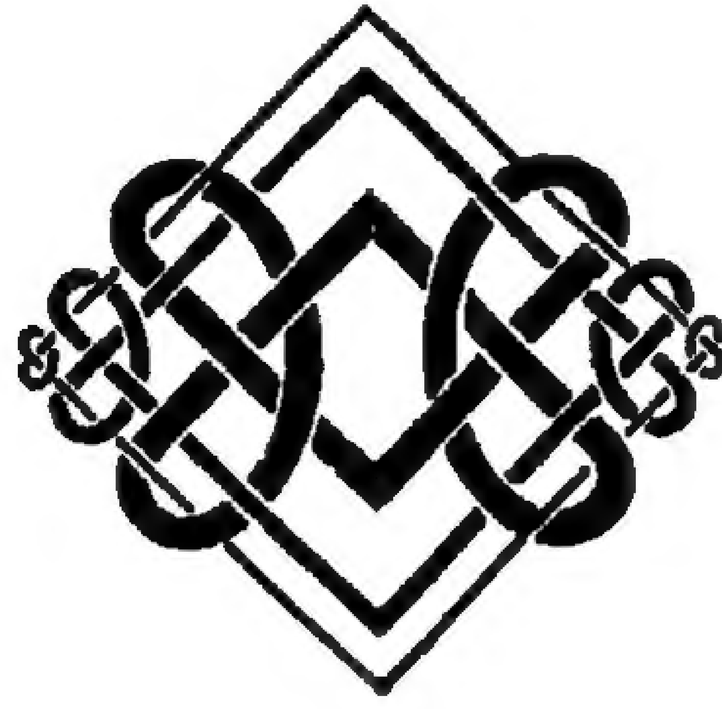
حركة الحشاشين فى سوريا

نظرية الوجود

عقائد مابعد الموت

نظرية الإمامة

التنظيم السرى للدعوة



رقم الإيداع ٧٠٢٥/٨٨

الترقيم الدولي ٨- ٧٥ -١٣٤١- ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
ت ٧٧٣٢٢١٠